

مقرر

علم النفس عبر الحضاري

فصول مختارة

السنة الثالثة

د. فائق بركات

د. صالح بريك

د. بشري علي

د. زين دوبا



التفصيل الأول

الموضوع والهدف والميدان

مقدمة : بلغ الاهتمام بعلم النفس عبر الحضاري Cross Cultural psychology حدوداً واسعة تمثلت في ظهور العديد من المجلات التي تهتم بنشر البحوث الخاصة به ، كمجلة علم النفس الدولي (1966) The International journal of psychology ، ومجلة علم النفس الاجتماعي ، ومجلة علم النفس عبر الحضاري (JCCP) The journal of cross cultural psychology ، كذلك توجد مجلة «رسالة الأخبار» Newsletter والتي ظهرت عام 1967 وتختص أيضاً بنشر الدراسات عبر الحضارية ، كما تم نشر دليل الأعضاء في علم النفس عبر الحضاري بواسطة «بري» Berry في 1969 في مجلة علم النفس الدولي ، وروجع هذا الدليل وظهر في كتيب عام 1970 بواسطة كل من «بري» و«لور» Berry & Lonner ، وبواسطة «بري» و«لور» و«لروكس» Leroux في 1973 . وتوجد أيضاً الجمعية الدولية لعلم النفس عبر الحضاري والتي عقدت مؤتمراً في «ونج كونج» عام 1972 ، وفي «كنجستون» بكندا عام 1974 ، و«هولندا» عام 1976 ، وفي «ميونيخ» بألمانيا الغربية عام 1978 ، وفي «تركيا» عام 1986 ويبلغ أعضاء الجمعية 350 لائماًلة و«مسيون» باحثاً من «عشرين» دولة ، وبالرغم من أن علم النفس قد انتشر انتشاراً واسعاً في كل بلاد الدنيا ، إلا أن

الاهتمام بجميع البيانات المقارنة Comparable data عن الحضارات المختلفة يعتبر شيئاً جديداً نسبياً ، لكنه امتد واتسع بعد منتصف عام ١٩٦٠ ليشمل عدداً من المنظمات الدولية الإقليمية ، كجامعة علم النفس الأمريكي ، وجامعة علم النفس في منطقة البحر الأبيض المتوسط والتي اتسع نشاطها في هذا الموضوع خلال العشرين عاماً الأخيرة .

ومن الجهات المهمة ببحوث علم النفس عبر الحضاري نجد في استراليا باحثين في معهد التكنولوجيا ، وفي جامعة جيمس كوك ، وجامعة المنذرز ، ونجد في اندونيسيا مدرسة ملهالا العليا ، وفي اليابان جامعة طوكيو وجامعة صوفيا ، وفي باكستان جامعة كراتشي وجامعة السند ، وفي الفلبين تهتم أقسام التربية بهذه الدراسات ، وفي تايلاند جامعة شينجما ، وفي الولايات المتحدة جامعة فود هام بنيويورك ، وجامعة هاراي ، وجامعة ساركينوز ، وجامعة الاسكا ، وفي أفريقيا جامعة ليبيريا بفنروفا ، وجامعة ليجوس بنيجيريا ، وجامعة كيتون بجنوب أفريقيا ، وجامعة زامبيا بلوساكا في زامبيا ، وفي منطقة البحر المتوسط جامعة بارايلان بإسرائيل ، والجامعة الأمريكية بيروت ، وفي جنوب آسيا كلية ليدي أرفن بنودلهي بالهند ، وجامعة مونج كونج ، وجامعة كوالالمبور بماليزيا (٩٩) .

مؤجلة علم النفس عبر الحضاري^(١٠٠) : ومما يستحق الذكر الإشارة للمجلة التي حملت لواء نشر البحوث والدراسات عبر الحضارية . والتي تعتبر بحق بمثابة «نشرة أخبار موسعة» لهذا العلم .

ويمثل هيئة تحرير المجلة مختصون من الجامعات المختلفة في كل القارات بأمريكا وأوروبا وأفريقيا . ويهتم نشر المجلة من خلال قسم علم النفس بجامعة هرب والسنجتون وبمساهمة ومساعدة الجمعية الدولية لعلم النفس عبر الحضاري . وتهتم المجلة بنشر البحوث الميدانية التي تختص بكيفية ؟ . ولماذا ؟ أو بكلاهما ، تختلف الظاهرة النفسية وفقاً للشروطات

الحضارية والعوامل البيئية، كما تهتم بالمرضوعات التي تتعلق بالثقافات^(١) الفرعية داخل أي بلد من البلدان والتي لا بد من أن تكون مقارنة بجماعات حضارية. وتصدر موضوعات بحوث المجلة بمجلة الملخصات النفسية Psychological Abstracts تحت العديد من الموضوعات منها: ملخصات الاثنوبولوجي، ملخصات الدراسات الحضارية، ملخصات اللغة والسلوك اللغوي. وبمناسبة مرور عشر سنوات على ظهور أول عدد من المجلة (JCCP) في سبتمبر ١٩٦٩ كتب لوثر Walter J. Lonner في العدد الأول مارس ١٩٨٠ قائلاً: كانت الكتب والنظريات قبل عام ١٩٧٠ في الموضوع قليلة، وكان السيكولوجيون الذين يبحثون في الميدان يتخذون من المصادر الاثنوبولوجية موجهاً لبحوثهم، وبعد ذلك ظهر الكثير من الكتب، ومنها الكتاب المدرسي الذي ظهر في ستة مجلدات عن علم النفس عبر الحضاري لفرانديس Harry Triandis وكتاب قراءات لمارسلا Marsella وآخرين (١٩٧٩)، وغير ذلك بين الكتب لدرجة أن سيجال Segall (١٩٧٩) أشار إلى أنه من الصعب التنبؤ بأن هذا المستوى من الإنتاج سيتكرر مرة ثانية، إذ أن هذه الكتب المتعددة، كما نشر في مئات المراجع كل شيء عن علم النفس عبر الحضاري في الفترة الأخيرة.

وقد شارك ٦٦٢ ستمائة واثني وستون باحثاً في عمل ٣٤٧ مقالة بالمجلة وهم من أفريقيا (نيجيريا - جنوب أفريقيا - أوغندا - زامبيا)، ودول البحر الأبيض المتوسط (يوغوسلافيا والسندانمرك ومصر وإنجلترا وألمانيا وهولندا...)، وآسيا (هونغ كونج - الهند - إيران - اليابان...)، وأمريكا الجنوبية (البرازيل، والأوروغواي).

وقد تضمنت عينات هذه الدراسات جماعات من جنوب أفريقيا البيض والسود، ووسط وشرق أفريقيا البيض والسود، وجماعات من المغرب، والمغرب داخل إسرائيل والإسرائيليون، وجنوب وشمال أوروبا والمملكة المتحدة، والصين والهند وباكستان، واليابان وكوريا، وأستراليا،
(١) نلاحظ هنا عسكرة وثقافة بعض واحد.

ونيو زيلندا والفلبين واندونيسيا، وأمريكا الشمالية، وتضمنت الدراسات فيها
البيض، والبيض في كندا، والأمريكيين الآسيويين، والأمريكيين السود
والمكسيكيين الريفين والحضرين.

وأما الموضوعات التي اهتمت بشرفنا المجلة في الفترة من
١٩٦٩ - ١٩٧٩ فقد كانت تدور حول:

- ١ - التحضر والتنشئة، والتوافق للتغير الاجتماعي، ودراسات الهجرة.
- ٢ - الجانب المعرفي، كالعلاقة بين الثقافة والتفكير والذاكرة وحل
المشكلات.
- ٣ - الإدراك سواء علاقته بالأشكال أو الزمن.
- ٤ - النمو بشكل عام، التنشئة، النمو الحركي، دراسات بياجيه.
- ٥ - التعليم، اتجاهات المدرسين وتعليمهم والابتكار وأداء الفصل،
والإنجاز.
- ٦ - الصناعي والإداري والتنظيمي وإدارة الأعمال.
- ٧ - المشكلات المنهجية والحلول المقترحة لها.
- ٨ - الشخصية بوجه عام، دراسة الأعلام، الطابع القومي، القياس
وتقنين الاختبارات، والحاجات، وقياس النواحي الإسقاطية.
- ٩ - الفسيولوجيا ودراسة النواحي النشوية للسلوك وتأثير المرض.
- ١٠ - السياسة.
- ١١ - اللغة والنمو بوجه عام والازدواج الثوري، واللغويات النفسية
المقارنة.
- ١٢ - القياس النفسي وتقديرات الذكاء والقدرات.
- ١٣ - علم النفس المرضي، وأسباب الاضطرابات.
- ١٤ - العلاج النفسي والإرشاد.

١٥ - الإجتماعي ، الدور والقيم والاتجاهات والعندوان والانتماء ، والتنافس والتعاون ، والقيادة ، والمسايرة وبحوث تنظيم الأسرة والمشكلات السكانية والعزو (١٨٢) .

أما المتأمل للبحوث المنشورة في المجلة في أواخر الثمانينات عندما كان مالپاس Malpas Roy S. رئيساً لتحريرها فيجد أن موضوعات المجلة في أعداد عام ١٩٨٦ كالآتي :

- ١ - دراسة حضارية مقارنة باستخدام استبيان ايزنك للشخصية .
 - ٢ - عادات النوم لدى المسنين من ثلاث حضارات (٢١٦) .
 - ٣ - الطرائق عبر الحضارية لدراسة اتخاذ القرار السلوكي .
 - ٤ - العلاقة بين تقدير الذات والسلوك الجانح في ثلاث جماعات ، عرقية (٢١٧) .
 - ٥ - القيم لدى الأطفال الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والكنديين .
 - ٦ - الصنق عبر الحضاري لاستبيان Bem P. لدور الجنس (٢١٨) .
- وفي أعداد عام ١٩٨٧ حيث رأس دراغونز Dragns Juris O. تحرير المجلة كانت البحوث الآتية :

- ١ - قيم الصينيين والبحث عن أبعاد لا تتأثر بالحضارة .
- ٢ - الضغوط الجامعية دراسة مقارنة بين إسرائيل وأمريكا .
- ٣ - دراسة عبر حضارية لرسموم الأطفال (٢١٩) .

موضوع علم النفس عبر الحضاري ومجالاته

يهتم علم النفس عبر الحضاري بالدراسة المنظمة للتعبير والسلوك اللذين يحدثان في حضارات مختلفة ، ويتأثران بتلك الحضارات ، وبصدران من خلال التغيرات الحضارية القائمة . وكلمة الحضارة Culture واحد من تلك الأفكار التي ما زالت حتى الآن تشغل المفكرين الاجتماعيين ، والتي تعرف بطرق مختلفة حتى أنه لم يستقر بعد على تحديد لمفهومها . ففي

الأنثروبولوجيا يشير مفهوم الحضارة للنشطة الكلية الخاصة بفترة ما وبجماعة إنسانية معينة والتي تتضمن ما تقوم به من زراعة وحرف صناعية ، واقتصاد وموسيقى وفن ، ومعتقدات دينية وتقاليد ولغة .

وقد أكد كثير من الكتاب على جوانب مختلفة من مكونات المفهوم السابق . لقام كل من كروبر Kroeber وكلكهوهن Kluckhohn (١٩٥٢) بمعمل مسح لتعريف مفهوم الحضارة عبر المائة والخمسين عاماً الماضية وأشارا لأوجه الاختلاف فيها ثم قاما بوضع التعريف الآتي لمفهوم الحضارة :

«تتضمن الحضارة تلك الأنماط الضمنية والصريحة الخاصة بالسلوك المكتسب ، والمنقول بواسطة الرموز ، والذي يشكل الإنجاز المميز للجماعات البشرية كالأعمال الحرفية ، والتقاليد والتي تمثل المحور الأساسي للثقافة والأفكار والقيم ، وقد تعتبر الأنماط القيمة من ناحية كمنتجات للفعل ، ومن ناحية ثانية عناصر شرطية لأعمال أخرى » ، ونظراً لطول التعريف السابق فقد اقترح هيرسكوفيتس Herskovits (١٩٤٨) تعريفاً ، مختصراً للحضارة هو : «الحضارة هي ذلك الجزء الذي صنعه الإنسان من البيئة البشرية» .

والتعريف بصورته تلك يتضمن كلاً من النواحي الطبيعية كالتقني والمباني والأدوات ، والتي تشكل الثقافة الفيزيائية Physical culture ، كما يتضمن الاستجابات الذاتية مما يقوم به الإنسان من أدوار وما لديه من قيم واتجاهات ومعتقدات ، والتي تشكل الحضارة الذاتية Subjective culture وتتداخل كل من نواحي الحضارة الطبيعية والذاتية في بعضها البعض ، فالأبنية والقوانين والأدوات والقيم والاتجاهات عادة ما تكون مترابطة بشكل محقق .

ويشير مفهوم عبر حضاري Cross-culture للمقارنات التي تجري بين الحضارات ، وهذا بالتالي يشير في الدمن سراً إلى شخص ما هي تلك النواحي أو الوحدات Units التي تقوم المقارنة حولها ؟ . ويستخدم تارول

Naroll (1970) في هذا الصدد مفهوم وحدات الحضارة Cultunits والتي يقصد بها الناس الناطقون باللسان المحلي Domestic speakers وباللغة الأم Dialect language ، والذين ينتمون لنفس الدولة أو لنفس الجماعة . وعلى هذا الأساس فإن كثيراً من المتخصصين يقارنون بين تلك الوحدات الحضارية ، وأنخرون يقارنون بين وحدات أكبر تتضمن القوميات .

ويمتد تحديد مفهوم وحدة الحضارة Cultunit على الوقت ، والمكان ، واللغة . ويعتبر الوقت Time محدداً لذلك المفهوم لأننا عادة ما نهتم بفترة تاريخية خاصة ، والمكان Place وذلك لأنه يتم التأكيد على الاتصالات بين الأفراد أو على النظام السياسي واللغة Language .

أهداف علم النفس عبر الحضاري : يمكن أن تتحدد أهداف علم النفس عبر الحضاري بصورة عامة في النواحي الآتية :

١ - يتمثل الهدف الأساسي من علم النفس عبر الحضاري في اختبار عمومية القوانين السيكولوجية ، وفي هذا الصدد قامت مجهودات كبيرة تضمنت العديد من المحاولات لمعرفة ما هي الجوانب العالمية في نظرية جان بياجيه مثلاً ، وأياًها يتعدل بالمتغيرات الحضارية ، وأياًها يصدق على أبناء سويسرا . وقد أشارت البيانات التي تم جمعها أن فترات النمو التي صورها بياجيه Plaget موجودة في كل الثقافات ، وفي ثقافات معينة تظهر مراحل النمو في فترات لا تسير وفق نظام ثابت Invariant order ، فعلى سبيل المثال فإن الألفة بمواد خاصة من شأنها إكساب خبرة ما فإنها ستؤدي إلى استجابات ثابتة في وقت مبكر ، وهكذا فإن الأطفال الذين يتعرفون لهذه المواد سوف يصلون للمرحلة الإجرائية Operational period عند بياجيه ، في حين أن الأطفال الذين يحرمون من هذه الخبرات قد لا تظهر لديهم علامات تدل على وصولهم لهذا المستوى المعرفي . وبالمختصر فإن الدراسات عبر الحضارية تكشف عن كل من النواحي العامة ، والنواحي الخاصة في الحضارة .

٢ - إن المتغيرات الموجودة في كل حضارة تكون متزوجة

Confounded ببعضها البعض ، لكنه ليس امتزاجاً كاملاً ، ويتفصح ذلك في وجود حالات شاذة . فإذا كان المتغيران أ ، ب يرتبطان ببعضهما ارتباطاً موجباً وعالياً ، فمع ذلك نجد أن هناك حالات (وحدات حضارية) قليلة تكون عالية في أ ، ومنخفضة في ب ، وحالات قليلة منخفضة في أ ، ومرتفعة في ب . فإذا درسنا الوحدات الحضارية (الحالات) الشاذة فإننا نستطيع أن نحدد أي العلاقات بين المتغير المستقل (ج) والمتغيرين المعتمدين (أ ، ب) يكون سببه أ ، ب وسببه ب ، أو سببه الاثنان معاً أ ، ب . وتلك المعلومات الأخيرة ذات قيمة كبيرة في علم النفس عبر الحضاري ، فعندما يشير فرويد Freud إلى أن عقدة أوديب Oedipus complex عالمية ، فإنه بذلك قد لفت النظر للعلاقة الجنسية بين الآباء وزوجاتهم ، ولم يشر إلى أن الآباء في فيينا عام ١٩٠٠ كانوا صارمين في تأديب أبنائهم وغالباً ما كانوا يعاقبونهم . وعندما وجد مالينوسكي Malinowski في دراساته على البسائيين من التروبرياندرز (Trobrianders) أن لديهم أشكالاً مختلفة من التنظيمات الاجتماعية فإنه يعني بذلك أن عقدة أوديب عبر بتغيرات الزمان Time والمكان Place ، واللغة Language ليست عالمية . وهذا يفتح الباب على مصراعيه لإعادة النظر في الظواهر التي لاحظها فرويد مثل الحسد .

٣ - تمدنا الوحدات الحضارية Cultunit بتجارب شبه طبيعية Natural quest-experiments ، وذلك باضطلاع المتغيرات للبحث والنواسة ، فعندما تكون بعض وحدات الحضارة مرتبطة بالزراعة والبعض الآخر بصيد السمك ، فإن التنظيمات الاجتماعية الخاصة بهما تختلف . فالأطفال الذين تكون تنشئتهم وفق درجات مختلفة من الشدة ، تنمو لديهم نماذج مختلفة من الإدراك حسب تأكيد الحضارة على الزراعة أو صيد السمك .

٤ - تشكل الحضارات المستقرة الوظائف السيكولوجية للأفراد . أما الحضارات التي لا يكون التنبؤ بالأحداث فيها غالباً بسبب الحروب المتكررة ، والثورات ، والانقلابات والزلازل ، والفياضانات فإن التخطيط يكون أقل احتمالاً في أن يؤدي إلى التنمية . إذ أن الناس في هذه الحضارات

يكون الاحتمال أقل في نظرتهم للتخطيط كقيمة ، أو في مساندة بعضهم البعض من أجل التخطيط ، ويرجع ذلك ببساطة إلى أن الناس لا يميزون السلوك غير المشاب . فحيث أن البراكين والثورات والفيضانات تقلب الخطط رأساً على عقب ، فبالتالي فإن الناس لا يهتمون بالتخطيط . وإن الدراسة العالمية المتكاملة لسلوك الإنسان هي التي تحاول الربط بين خصائص البيئة Ecology وخصائص الإنسان . وتساعدنا الدراسات عبر الحضارية في تعلم كيف ترتبط المتغيرات البيئية بالمتغيرات النفسية .

٥ - إنه من المهم معرفة التكرار الخاص بالسلوك والأحداث لدى مجموعات مختلفة من السكان . فعلى سبيل المثال إذا وجدنا أن العدوان Aggression موجود في كل الحضارات ، فإننا نعلق على ذلك بأن هناك شيئاً ما إنساني أساساً لا يتغير بالنسبة لهذا السلوك . أما إذا وجدنا أن هناك حضارات لا يلاحظ فيها العدوان إطلاقاً فإن ذلك لا يتسق مع التعليق السابق ويُفسر ذلك بالعوامل الحضارية .

نواحي الاختلاف بين الحضارات

جمع موردوك Murdock ، وبروفوست Pruvost (١٩٧٣) بيانات عن ١٨٦ مجتمعات لمراجعة تحليل كارنيرو Carenciro (١٩٧٠) الخاص بتحديد الفروق الحضارية فاستخدموا عشرة موازين Scales لترتيب وتقدير كل مجتمع على أساسها وهي :

١ - الكتابة والسجلات : Writing and records حيث تغطي الدرجة العليا عند وجود نظام داخلي للكتابة ، ودرجة صفر عندما لا يوجد سجل عن هذا النظام .

٢ - الإقامة المستقرة : Fixity of residence حيث الإقامة الدائمة المستقرة (عالي) يقابلها الوجود البدوي Nomad (منخفض) .

٣ - الزراعة : Agriculture حيث التأكيد على الأسهم النسبي للزراعة في مد الحضارة بالطعام .

٤ - الحضر : Urbanism حيث يكون التركيز على حجم المستوطنات
Settlements

٥ - التخصص النفسي : Technical Specialisation ويقصد به عدد
الحرف والمهارات والصناعات المختلفة .

٦ - النقل البري : Land transport حيث يتم التركيز أيضاً على الوسائل
الآلية لمقابل الوسائل الإنسانية في النقل .

٧ - النقود : Money ويتم التركيز على السهولة النقدية في الداخل
في مقابل المقايضة Barter .

٨ - الكثافة السكانية : Population density

٩ - مستوى التكامل السياسي : Level of political integration .

١٠ - درجة الطبقة الاجتماعية : Degree of social stratification .

وبعد ترتيب المائة وستة وعشرين مجتمعاً وفقاً لهذه المقاييس وجد
الباحثان أن هناك تداخلاً بين هذه المقاييس . وقد أمكن تمييز أي مجتمع
بموقعه على هذه المقاييس بما فيها من تداخل وتقاطع .

ميدان علم النفس عبر الحضاري

إنه من الصعب رسم حدود لميدان علم النفس عبر الحضاري ، لتغير
التأكيد على ذلك عبر مرور الأيام والسنين ، فتجد في فترة ما طرائق جديدة
تظهر وتتمو ، وفي فترة أخرى تبرز موضوعات أخرى جديدة من البحوث
فتصبح هي الغالبة .

وإضافة لذلك فإن النظريات التي يستند إليها علم النفس عبر الحضاري
في بناء أسسه قليلة العدد ، وبسبب ذلك فقد استخدمت الكثير من الأطر
النظرية لتنظيم وتحليل المعلومات التي تم جمعها من شتى المراتب ، كما
استخدمت الكثير من نظريات علم النفس لنفس الغرض . وعلى الرغم من
ذلك فإن لعلم النفس عبر الحضاري طرائق بحث خاصة به ، ولهذا السبب

لأنه يعرف من خلال المنهجية العلمية الخاصة به وليس من خلال النظرية التي يتبناها . ومن المعروف منذ الخمسة عشر عاماً الأخيرة أو أكثر (منذ عام ١٩٦٥ حتى بداية هذه الفكرة ١٩٨٠) أن باحثاً ما لا يستطيع أن يستخدم طريقة من طرق البحث السيكلوجي في حضارة أخرى دون إجراء تعديل واسع متعمق عليها .

ويتركز أهم بجانب من جوانب تلك المنهجية Methodology في التمييز بين الأبعاد العالمية Universal dimension الخاصة بوصف الظاهرة والتي تسمى Elic (جزء مأخوذ من المقطع الأخير لكلمة Phonetic أي صوتي وهو المتعلق بالأصوات الكلامية المنطوقة والتي تتكون عند المتحدث من منطقة الجهاز الصوتي وما يشمله من الوترين واللسان والشففتين ، وبالطبع هذه الأشياء عالمية لدى كل إنسان في الدنيا) وبين الأبعاد المتعلقة بالحضارة والخاصة بذلك الوصف والتي تسمى Emic (جزء مأخوذ من المقطع الأخير لكلمة Phonemic أي وحدة كلامية منفردة والتي تساعد على تمييز نطق لفظة ما عن نطق لفظة أخرى في لغة أو لهجة فمثلاً Fin. Pin فونيمتان أي وحدتان مختلفتان ، وبالطبع هذه الأشياء تختلف من ثقافة لأخرى مثل : سائر ، صائر في اللغة العربية) .

ويمكن التمييز بين مكونات كل ما هو عالمي Elic ، وكل ما هو خاص بالحضارة Emic مثلما يتم التمييز بين المقاييس العالمية Elic measurement ، والمقاييس الخاصة بالحضارة Emic Measurement . فمقياس البعد الاجتماعي Social distance (بوجاردس Bogardus ، ١٩٢٨) ذا مكون عالمي Elic construct لأنه يمكن استخدامه في القياس على المستوى العالمي Emically ، وعلى المستوى الخاص بالحضارة Emically . ومن ناحية أخرى لئلا نجد أن مفهوم الفيلولوجيا Philology يعتبر مكوناً خاصاً بالحضارة وينطبق فقط على اليونان . وهذا المفهوم يشير إلى أي مدى يتطابق الفرد مع التوقعات داخل جماعته ، وهو عبارة عن بعد ملحوظ بين اليونانيين ، ويمزج بوجه خاص داخل تلك الحضارة . ويعتبر قياس البعد الاجتماعي بعد

التحديد التام للمفهوم بواسطة أسئلة مناسبة لكل الحضارات قياساً عالمياً
Etic لذلك البعد أما قياسه في حضارة واحدة فقط كما فعل بوجاردس فإن هذا
يعتبر خاصاً بالحضارة Emic الواحدة .

ولتعتبر هاتان المبرورتان من القياس مناسبتين ، أما القياس غير المناسب
فيتمثل هنا في أخذ مقياس خاص بالحضارة Emic واستخدامه كما لو كان
مقياساً عالمياً Etic . ولقد كان هذا الأمر الأخير شائعاً لكنه تغير في الخمسة
عشر عاماً الأخيرة (منذ عام ١٩٦٥) .

ورغم أن ذلك التقدم الذي حدث ، فإنه يوجد تقدم آخر تمثل في قيام
الأخصائيين النفسيين بعمل مثالي ليس فقط لأنهم سيمدون مقاييس عالمية
Etic باستخدام أسئلة ووحدات خاصة بحضارة ما Emic ، بل لقيامهم بإجراء
الصدق عليها بطرق متعددة . وطريقة الصدق المناسبة من طريقة صدق
التكوين Construct Validity والذي يعني أنه من خلال أساس نظري معين
يكتشف الأخصائيون كل شبكة العلاقات القائمة في مضمون الأسئلة . فمثلاً
من المعروف في حالة مقياس البعد الاجتماعي فإن البعد الاجتماعي يكون
مرتبطاً بسلوك التجنب Avoidance behavior (تجنب عدم الزواج من شعب
معين ، وعدم إقامة صداقة مع أبناء شعب آخر ، وعدم الإقامة في مسكن بجوار
أبناء شعب ثالث ، . . . إلخ) . وسلوك التجنب هذا يلاحظ بدون تدخل في
المراقف الطبيعية . ومن الممكن توقع أن يكون البعد الاجتماعي مرتبطاً أيضاً
بتسميمات لفظية Stereotypes تختص بالجماعات موضع الدراسة وبمدى
الجهاذية نحو هذه الجماعات ، وإن الاتساق بين النتائج التي يتم الحصول
عليها وبين التوقعات النظرية سوف يقوي الثقة في صدق مقياس البعد
الاجتماعي .

ومع هذا فإنه لسوء الحظ ما زالت هناك فجوة بين هذا البرنامج المثالي
والخاص بالصدق وبين ما يقوم به المتخصصون في علم النفس عبر
الحضاري ، خصوصاً في حالة قياس القدرات العقلية .

ويجب الأخذ في الاعتبار عند محاولة تغيير المعنى في تلك الطرق عبر الحضارات أن الاعتماد على طريقة واحدة للكشف عن الفروق الحضارية يكون غير سليم من الناحية المنهجية. إذ أن الذي سيدوانه فروق حضارية أي فروق بينها الحضارة قد يكون نتيجة لمواقف الاستجابة المختلفة وعملية التهويل لها، كالفروق في الألفة مع المنبهات، والفروق في تعريف مواقف الاختبار، وردود الفعل الفارقة للمجرب، والفروق في الدوافع للاستجابة لذلك الاختبار، والفروق في التقبل الاجتماعي للاستجابات، ومشكلات التفسير. وهكذا يتضح أن أي فرق لا يمكن تفسيره (١٠٠).

علاقة علم النفس عبر الحضاري بالمبادئ الأخرى : في مجال المقارنات الحضارية بدأت الخطوط والحدود القائمة بين الأنظمة في التلاشي والانتفاء خاصة في مجالي الأثرولوجيا وعلم النفس. ومن الأثرولوجيين الذين ساروا في هذا الاتجاه نجد هالويل، وكلاكهوهن A.L.Hallowell & Clyde Kluckhohn حيث شدت أعمالهما الانتباه لأنهما كتبا في علم النفس مثلما كتبا في ميدان تخصصهما وهو الأثرولوجيا. وقد كتب كلاكهوهن فصلاً عن الحضارة والسلوك في الطبعة الأولى من كتاب علم النفس الاجتماعي Handbook of social psychology والذي نشر عام ١٩٥٤ تحت إشراف جاردنر ليندزي Gardner Lindzey، وتضمن هذا الفصل الاختلافات في السلوك البيولوجي، وفي الشهية للطعام، والحصول عليه حيث الكل يخضع للضبط الحضاري، كذلك الأمر بالنسبة لنماذج السلوك الجنسي حيث وجد أن الجنسية المثلية عالمية في بعض المجتمعات لكن نادرة أو غير معروفة في أخرى. كما وجد في نواح سلوكية أخرى كالنماذج الحركية، والإيماءات وطرق المشي والجلوس، وإدراك الألوان، وإدراك الفراغ، أن اللغة قامت فيها جميعاً بدور هام وكذلك الأمر بالنسبة للذاكرة والمعرفة، والعلاقات المؤثرة، والتميزات الانفعالية، والعمليات اللاشعورية، والأحلام، وعلم النفس المرضي، والفهم، وتدريب الطفل، ونواح أخرى متعددة من السلوك. وقد كتب هالويل هداً من المقالات التي تناولت مشكلات في الصحة النفسية، والإدراك،

واستخدام الطرق الإحصائية في دراسة مشكلات Acculturation أو التغير الاجتماعي (١٩٥٠، ١٩٥١).

ويقول كلينبرج Otoklinoberg إن كتابي في علم النفس الاجتماعي، والذي يعتبر أول كتاب يعتمد أساساً على وجهة النظر عبر الحضارية المقارنة، بسبب اتصاله بـ Boas ، وسابير Sapir ، ويندكت Bendict وميد Mead ، وغيرهم من الأنثروبولوجيين ، إضافة لبعض الكتابات التي تألفت قادمة والمرائز عند الإنسان .

وكان السؤال المطروح حينئذ هو كيف يتم ذلك دون معرفة بالسلوك في بعض المجتمعات والمعتقدات الأخرى؟

وقد وجد بعد ذلك أن نظرية التراتز لدى مكدوجل (١٩٠٨) ليست هامة عند كل البشر كميزة التملك وحرية المدوان .

ولم تقتصر الدراسات المقارنة على تناول قضية التراتز فقط بل شملت كثيراً من الأنشطة النفسية ، فقد أوضح السيكلوجي الفرنسي دوماس Dumas (١٩٢٣) إلى أي أحد يحل التعبير الانفعالي لفتة ، أي أنه شكل من أشكال الاتصال مع الآخرين أكثر من مجرد انحناس لحالة داخلية فقط ، ولقد أبدت ملاحظات الأنثروبولوجيين ذلك . كما حاول كلينبرج أن يكتشف لدى النسيجرات الانفعالية لدى الصينيين ، فلاتصميم أسلحتهم أنهم ولغزة Inscrutable أي غامضين ، فهل هذا يرجع إلى أنهم يصرون عن انفعالاتهم تسيماً مختلفاً ، أم أنهم أقل تسيماً عنها ؟ . وقد أشرت النتائج غير الكاملة أن كلا من ذلك صحيح جزئياً ، فبالنسبة لتكوين النسيجات الانفعالية في الصين وفي الغرب متشابهة . وقد أوضح دوكاهم Durkheim أن ظاهرة الانتحار تفسح لمواصل اجتماعية وحضارية . وقد طرَح مالفوسكي Malinoki (١٩٢٧) سؤالاً عن الانسجام الحضارية في الإندونيسيا البشري، بين التروبراندو Trobriandeta واللمين برون الغشاه بين الرجل وأبيه ، وليس بين أمه ، واللمين يصرون على أن الأخوين لا يمكن أن يشبهها بمشهما البمض .

وتؤكد كل هذه الأمثلة ضرورة النظر لعلم النفس الاجتماعي من خلال وجهة النظر المقارنة . وبالنسبة لطرق البحث فإن هناك القليل من إنجازات السيكولوجيين في ذلك المجال ، ما عدا بعض الاستثناءات ، لكن معظم الإنجازات قام بها الأثنربولوجيون لبحكم معرفتهم بالمحضارات المختلفة كانوا أول من استخدم بصورة واسعة الوسائل النفسية . وقد شكل ذلك في حد ذاته نمواً جوهرياً له دلالة . فقد تدرب السيكولوجيون على استخدام الاختبارات الموضوعية ، والتجارب ، والوسائل الإسقاطية والتي قللت من اتجاهات الملاحظة والتي تحد من النتائج ، كما عرضوا النتائج بصورة كمية وقد نظر الأثنربولوجيون لذلك (التكميم) بصورة مختلفة إذ ذكر جوليان ستوارد Julian Steward (١٩٥٠) «أن الأنماط الحضارية لا يمكن وصفها رياضياً» ، كما ذهبت بندكت (نقلاً عن لويس ١٩٥٣) إلى القول «إذا بدأت بالتكميم فلن نستمع في دراسة الحضارة طويلاً» ، كذلك ذكر جريجوري بتسون Gregory Bateson في رده على السيكولوجيين الذين يؤيدون التحليلات الإحصائية ويمكن أن يحاول فرد ما إجراء القياس بعلاقته بالمواقف المفترضة البسيطة ، وبالأنساق القيمة البسيطة من خلال مقياس واحد ، في حين أن فرداً آخر يتفادى كل هذه الأشياء التي يهتم بها . وقد ذكر هنري وسبيرو Henry & Spiro (١٩٥٣) أن أسلوبهما في البحث الأثنربولوجي يهتم بدراسة الجماعات وخصائصها المنوالية كما لو كان الفرد غير موجود . إضافة إلى أنهما أيدا أيضاً الوسائل النفسية في العمل الميداني متخذين موقفاً مختلفاً ففي رأيهم أن دراسة العلاقة بين الشخصية والمحضارة يتطلب شيئاً أبعد من الآراء الانطباعية عن خصائص الفرد ، وذهبا إلى ضرورة افتراض أساليب جديدة . وقد استعان الأثنربولوجيون بإسهامات علم النفس فوجدوا (ولفياً لرأي هنري وسبيرو) في الوسائل الإسقاطية عوناً كبيراً لهم .

وقد كان لأوسكار لويس Oscar Lewis (١٩٥٣) نفس النظرة في مقالة له عن «الضوابط والتجريب في العمل الميداني» إذ أشار إلى أن الاتجاهات الحديثة تؤكد على مدى التباين في المبادئ والسلوك ، وعلى الضبط التام

للتحيز القائم بالمقابلة ، وعلى المعادلة الشخصية في وصف الشخصية . كما أكدوا بوجه خاص على ما يقوم به السيكلوجيون من جهد من أجل المزيد من البيانات عن الفروق الفردية .

وقد أصبح السيكلوجيون على وعي وفهم بالأنثربولوجيا ، فاستخدموا اكتشافاتها لتعديل وتحسين وصفهم للسلوك الإنساني . كما أن الأنثربولوجيين أخذوا ينتبهون لنقد السيكلوجيين ، فشجعوا تطبيق وسائل علم النفس في ميدانهم . فقد قام ريفرز Rivers وهو سيكلوجي وأثنولوجي كذلك بدراسة خداع الأبصار في جزر تورس ستريتس Torres Straits (١٩٠١) وعند التوداس Todas بالهند (١٩٠٥) وأشار لبعض الفروق عبر الحضارية المثيرة . وقد كان لودورث Woodworth (١٩٠٥ - ١٩١٠) سبق في إحصاء عدد من الناس من بلاد مختلفة في العالم في معرض سانت لويس St. Louis Exposition عام ١٩٠٤ ليدرس العلاقة بين مفردات اللون وقدرتهم على مماثلة الألوان فوجد أنه في معظم الحالات لم يكن هناك نقص خاص في إعطاء الشيء اسماً Nomenclature .

وقد حاولت مارجريت ميد (١٩٢٨) تطبيق اختبار الكرة والحقل في مقياس بينيه على أطفال الساموان Samouan فوجدت أنهم اهتموا بعمل رسم جميل أكثر من قيامهم بحل مشكلة كيف يجعلون الكرة ، كما أن بارنلت Bartlett (١٩٣٢) ونادل Nadel (١٩٣٧) أوضحا كيف أن الذاكرة تتأثر بالخلفية الحضارية في جماعات أفريقية مختلفة .

وفي عام ١٩٤٠ قام كثير من الأنثربولوجيين الشباب بكثير من الأعمال الميدانية مستخدمين اختبار بقم النهر لرورشاخ ، وتفهم الموضوع لمورد وحداً من الوسائل الاكلينيكية إضافة إلى معلوماتهم الفردية . وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا مدرّبين التدريب الكافي فإن السيكلوجيين صاروا شيئاً فشيئاً يطبقون هذه الوسائل في الميدان سواء عندما كانوا يقومون بالتدريس في الجامعات الجديدة بالدول النامية ، أو أنهم وجدوا التمويل لإجراء هذه

البحوث في تلك البلاد. وبذلك صاروا على وهي بالحضارة والحاجة
لدراسة السلوك في سياقه الحضاري. وقد أصبح هذا الاتجاه هو السائد
والهام فتحول كل الميدان لعلم نفس عبر حضاري (١٠١).



منهج المقارنات الثقافية والصعوبات التي يواجهها الباحث : ويعتمد منهج المقارنات الثقافية على الملاحظة والمعلومات المستمدة من الاختبارين ، وكثير من المقاييس كالتقاربات الذكاء والشخصية ، ويمتد هذا المنهج لتسخدم فيه الوثائق الجماهيرية للراشدين ، والفولكلور ، والأفلام ، والمصطف إلى جانب الاستبيانات . ويقوم الباحث في هذا الأسلوب بالكشف عن السلوك الاجتماعي والمفردات التي تتكرر في الوثائق كالتقاربات لأمور واعتمادات الأفراد الذين يصدر عنهم هذا السلوك كرويتجون هذه المعلومات^(١) ولقد ذهب وركان ، وديجكر^(٢) 1966 Goldstein and Diller إلى أن طرائق الدراسات الثقافية المقارنة تركز في ثلاث فئات هي :

١ - دراسات الوثائق ، والتي تعتمد على التحليل المقارن للمفردات والعلاقات المتضمنة في السجلات .

٢ - الإحصائيات الجارية ، والتي تقوم على التحليل المقارن للبيانات المصنفة في أجهزة الإحصاء والتي تسجل فيها البقاي الاجتماعية المختلفة .

٣ - الدراسات الميدانية والمجالية ، والتي تخصص بتحليل البيانات المجموعة عن طريق الملاحظة والمقابلة وغيرهما^(٣) .

ويواجه الباحث الذي يستخدم منهج المقارنات الثقافية *Cultural Comparative* تلك الكثير من الصعوبات : (١) فمطلب منه تعلم لغات المجتمعات التي يدرسها لأن

هذا المنهج يقتضي من الباحث إقامة علاقات حسنة مع أفراد هذه المجتمعات حتى يتسنى له أن يجمع البيانات بدقة ولا يمكن ذلك بالطبع إلا بإقامة لغات هذه المجتمعات حتى تسهل المعاينة الكاملة ، لكن ذلك على الممرم ليس بالأمر اليسير على الباحث . (٢) كذلك فإن جميع البيانات من أكثر من مجتمع يتطلب أكثر من باحث أي فريقاً من الباحثين وقومون في وقت واحد يجمع هذه البيانات حتى يتوفر في هذه البيانات شروط الطيف العلمي . (٣) كما أنه بالنسبة للأفراد التي يستلزمها البحث لا بد أن يراعى أن تكون معاملة في جميع المجتمعات التي يجري فيها البحث كأن يترجم الاختبار أو الأسلوب الذي يستخدم في أمريكا وفي البلاد العربية إلى العربية وتكم مرفهته من حيث اللغة والبيئة في البلاد العربية . (٤) كذلك لا بد من أن تتماثل السمات من حيث العدد ، البنية ، الاقتصادي والاجتماعي والعلمي إلا أن هذه الصعوبة لا يستلزم الباحثون في هذا التخليط التخليط أو السيطرة عليها . (٥) كما أنه عند السير العاكس لا بد وأن يوضح في الاختبار مشكلة البحث *Research Problem* حيث أن العمل الواحد قد يعطي معنى إلى مجتمع ومختلف من المعنى الذي يعطيه في مجتمع آخر . فجميع الأرقام مثلاً في مجتمع قد يفسر عن الحالة في أحد المجتمعات ولا يفسر عنها في مجتمع آخر .

ولقد لاحظ كاهلان^(٤) هذه الصعوبات أنه عند تطبيق اختبار فهم الموضوع T.A.T. على مهنوعات من الجمال الزواحي في ثلاث أناسيا بهم يؤكد أنهم لم يكونوا قادرين نسباً على الإطلاع إنما كانوا يصغون الصغرة ويذكرون ما بها من أحداث . وقد ذهب كاهلان إلى أنه لا يمكن أن نستنتج أن شعب ثلاث لا يفكر إلى الجمال ، إنما يمكن القول بأن هذا الاختبار لا يستمر لفهم الثقافة على التخليط ، إلا أن هذا الكلام لا يمكن تعميمه لوجود عوامل ثقافية مؤثرة^(٥) .

مفهوم الحضارة

في الدراسات البيكلوجية المقارنة

عقوت قسوم

قسم علم النفس - جامعة القاهرة

المقالة - أولي المشكلات للنسبة التي يقوم عليها الباحث العرب منها والتميز بها وتقوم الخصائص المهمة للحضارة بما يتعدى أساسى كى تفسر عند كوبر بين أساليب سلوك الأفراد المتضمن إلى هذه الحضارة ويرتبط هذه الأساليب السلوكية بمقابل نوعية تلتصق بها لغة دون الأخرى من الأفراد سواء داخل الحضارة الواحدة أو بين حضارة وأخرى وتكتمل دراسة الخصائص الحضارية بالأهمية

يتصدى الباحثون لدراسة عناصر سيكلوجية من أكثر من مجتمع لأهداف عديدة ، ومن بين هذه الأهداف ملاء المقارنات أو بحث جفوة التفسيرات الممكنة التى تشتملها البحوث العقلية أو العقل على أساس حضارة إلى أخرى أو من لغة إلى لغة ، ولما سبيل لتعلم واحد أو آخر من هذه الأهداف تظهر مشكلات متصلة بالعقل الحضارة لتحتل بؤرة الاهتمام برصدها - فى هذه

يرى بعض الباحثين أن مفهوم الحضارة ذاته مفهوم لا قيمة له في علم النفس غير الحضاري. فالمحضارة لدى سيجال Segal (٢٢) ليست أكثر من تركيبة مختلفة من الصفات العقلية المختلفة. لهذا فإن القول أن شيئاً ما عبارة عن تأثيرات حضارية بدلاً من قولنا أنه راجع لتغير مستقل بالذات لا يؤدي إلى إضافة نخدم نحن لها للعلاقات السببية ويؤدي سيجال النقص الذي الخطه لوليف LeVine (١٤) والمنشغل في خبرتنا اليوم بالمتغيرات التابعة. بحيث نكون على تلك أولاً من أننا نشارك مشكلة جديراً بالاهتمام. ثم تنبه نحو البحث عن المتغيرات السببية. علينا إذن أن نبحث عن التباينات في الطرق والأنماط السلوكية التي تعكس جماعات مختلفة من التباين لكي نخدم المتغيرات التي نتحكم فيها أو يمكن معرفتها. ولما كان محله. فالحير أن التساؤل الذي يقار هنا يخلق ما هي هذه المتغيرات المختلفة. إلا نحسن الأمر فسنجد أنها تتشعب وفقاً لسجالات المؤسسات الأساسية وأنماط المعيشة والتنظيمات الاجتماعية من ذلك. ولما تعد مختلفه تحكم العلاقات بين الأفراد بالأضالة إلى عدم آخر من العنصرات من بينها البيئة. ونحكم اختيارنا لهذه المتغيرات المستقلة المتعلقة بتحويلنا السببي استكشافنا لدورها

وتنمية لضالة الاهتمام بمشكلة تحليل وتفسير مفهوم الحضارة لتتبع الخلق البحوث التي يمكن تصنيفها إلى فئة البحوث في الحضارة. هـ. جولد مجرد إبراز الفرق بين جماعات لغوية مختلفة. مسخرة من حضارات متباينة. وذلك في جزئيات سلوكية محدودة. بحيث يفرغ غالباً إلى نتائج غير واضحة المقدمات على الإطلاق (أنظر على سيجال المثال ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٩، ١٠، ١٦، ١٧).

وتكمن المشكلة هنا في أن التصار اهتمام الباحثين على المتغيرات السلوكية فقط. ورغم محاولاتهم ربط الاختلافات السيكولوجية بالخصائص الحضارية أدى إلى استخدام مفاهيم وأنماط تفسيرية دون بذل أي جهد في تصنيفها وتحليلها وإثباتها.

أهمية المفهوم

ولكن ما يبدى حاجة علم النفس غير الحضاري إلى مفهوم الحضارة. وهل يؤدي التسلسل بهذا الاهتمام إلى مزايا تفسيرية أفضل. أم أنه يمكن استخدام أنماط بديلة ذات مزايا منهجية تظهر في الوقت نفسه من مشكلات التعريف ومشكلات تشابك المكونات وعيوبها واختلال وجهات النظر.

هذا التمسك إلى كمية البحوث فقط . بل
يشمل أيضاً في مقدار الثقة في البيانات
التي تارة حول الفرق الحضارية والسبب في
ذلك هو التقارب المتزايد المستخدمة للثقافة
في شتى النسخ الفلسفية أو السبب الذي
يقع فيه مجال المزيّنات الأساسية وأما
المسألة والشكوك الاجتماعية والتمسك
والقواعد التي تحكم العلاقات بين الأفراد
التي . فهل يختلف هذا التمسك من الحضارة
التي هي الحضارة ؟
لا يمكن حصرها في الحياة . وتضمن الحضارة
بالنسبة لأغلب علماء الأنثروبولوجيا السلوك
والمعتقدات والاتجاهات كما تتضمن أيضاً
نائج النشاط الإنساني الذي يعد من
خصائص المجتمع معين أو مجموعة تكاتف
محددة . وتارة كل فرد في حضارة متعددة
الجوانب تؤثر ثقافة وعلى اعتماد غيره في
نظم حياته وسلوكه . وهذا ما يفسر في تقديم
البحوث الحضارية في مجال الاضطرابات
النفسية والفكرية أنه يصعب أن نجد اليوم بين
علماء السلوك والحضارة من يعترض على
الدور بأن الحضارة لهذه الطرق المعينة التي
يدرك بها الأفراد بهااتهم . وأنها تدعنا إلى

التكامل الأفراد المجتمع . فوفقاً للإطار
البرسبي . التطوري الذي قدّمه كيمبل
Campbell يضمن لكي تبدأ عملية التطور
أن نسأل أنفسنا ببساطة ما هو الجانب الذي
نصلو من هذه البيانات من بين جوانب أخرى
عديدة . الذي يذهب إلى اختيار هذه الأساس
السلوكية . وما هي العمليات التي جعلت هذه
الأساليب تكيفية . وهل هذه النقطة هي
البحث التجريبي . وهذا استخدام الفروض في
المنهجية .
وعلى الرغم مما ذكره سيجال من أهمية
استخدام التحريات العقلية في البحث
السببي من منظور تكيفي . ويبدو أن
لأن هذا لا يعني إهمال علم النفس الأخر
وكما يرى باجورا (1969) أنه لا يمكن
لأن سيجال لا يربط إلى خلاف مفهوم الحضارة
تأثير العقل . بل يربط إلى استخدام سبب آخر
الأساسي . يكون عرضاً بدرجة أكبر . ويمكن
أن لا يلاحظ أنه ليس الوقت الذي يذهب إلى سيجال
في عرض ذلك . إنما هو الاهتمام بالتحريات
السببية لأن لو كان لا يربط في أن يكون أن
لقد البحوث السببية هي أكثر ما زج التحليل في
العلوم النفسية بصفة عامة . والدراسات
الحضارية على وجه الخصوص . ويرجع السبب
في ذلك إلى نقص البيانات المؤكدة والمؤقتة
الطوبى تفسيرها . (1969: 186) ويرجع

الافتقار كالترواعه أو الصيد أو الجمع أو
الصفاء

(١٣) النظام الاجتماعي الحضاري كما
يعتبر في المنطق والقياس الاجتماعي
السائد والأدوار - والنظم العامة خارج حدود
الفرق

(١٤) التسوق الفردي والذي ظهر مع
الاجتماع السيكولوجي مثل الادراك والتميز
والعلاقة والحضارة الثانية

(١٥) أخطاء السلوك الاجتماعي السائدة
بعد الأفراد وتضمن أنماط التنشئة والتربية
الأطفال

(١٦) الأخطاء الانشائية والميكانيكيات
المناعية المختلفة

(١٧) أخطاء التفاضل بين الأفراد
والجماعات الفرعية (١٨) لا

ولعل السؤال الذي نطرحه كل هذه
الأسان الفرعية هي ما الذي يقصد إلتان
بالخطورة على شخصية كل هذه الجوانب ؟ هل
يقصد بها الجوانب والأسماء السيكولوجية
السائدة في مكان أو زمن آخر ؟ أو هل هي
الخصائص السيكولوجية المعينة المعروفة من
الأفراد دون مجموعهم ؟ وهل يقصد بها الأفكار
والقيم التي تفضل بها جماعات معينة ؟ هل
يقصد بها القيمة المحددة لخصائص من البشر

Seppokunij System (١٦)

الانسان - لذلك نرى إشكالي الصراع
والسلوك ... كما نؤكد نتائج الدراسات في
مخططات الحضارات أنه يمكن أن تأخذ بموج
الاعتماد العوامل الحضارية والاجتماعية عند
تشخيص الأمراض السيكولوجية واضطرابات
السلوك . وعند التفتت بنظرة واستجابتها
للمعظم صفوف العلاج بل وأيضاً في وصف
طرق الوقاية والعلاج (١٩٦٧ : ٢٥٦)

إطار الحضارة

إن إرجاع الفرق بين الأفراد أو أشكال
السلوك المحددة لها فيها الاضطرابات المناعية
إلى تلك للجهول (١) (٢) الحضارة
يعتقد أن لا يكون الخطورة الأخيرة . فمن
الضروري - - - - - الإهتمام بالاضطرابات
السيكولوجية في مجال البحوث هي الحضارة
إلى أحد من ذلك . بهدف أن نضع في
تدويرنا إطاراً نظرياً يتضمن عدداً من أساق
الخصائص المناعية والضرورية . والتي يمكن
أن تتضمن الجوانب الأربعة

(١) البيئة الطبيعية أو الإيكولوجية
التي يحدث فيها السلوك - وما يتأثر في
هذه البيئة من مواد وطوائف القيمة
وجغرافية معينة

(٢) النظام المعيشي وما يتضمنه من
أساليب الاستثمار الاقتصادية التي يمارسها
الأفراد بهدف حفظ حياتهم . ولعل هذه

Ecology (١٦)

ويذكر رايت White تعبيراً عن بعض هذه
التغيرات أن الحضارة عبارة عن معضلة يتم
عناصر مادية تسيطر فوق الجوانب المعنوية^{١٤}
تتغيرك وفقاً لقوانينها ومبادئها الخاصة .
وتتفاعل هذه العناصر الواحد مع الآخر مشكلة
لتركيبات وصيغيات جديدة . ولا تشكل كل
الحضارة بواسطة الإنسان أو زيجاته أو أفراد
أو أماله بمشاركته وفيها . فإن كان الإنسان
- على أي حال - هو المخطط الأول بالطبع
للقيام بالحضارة . أنه في الواقع ، وإذا صح
التعبير . بمثابة الغير أو الخالق الذي يخلق
عمليات التفاعل معقدة . غير أن محدثات هذه
العمليات لا هي بمرجعية ولا هي نصيب بل
حضارية (٢٥ ، ٢٧٤) وتفضل هذه الرؤية
من النظر جوانب عديدة في الحياة الحقيقية
العمليات الحضارية بالبنية التي هي . لكن
غير الممكن إعمال دور الفكر الإنساني في
وصفه أو بلورته خصائص الحضارة بالإضافة
إلى الدور الأساسي للفرق في هذه النظرية التي
تعمل السلوك الإنساني من جهة استجابة من
الكان الحي للبيئة الحضارية لوتتغير الأمر
لديه بكونه متغيراً وضيقاً بالحضارة . وكما
يذكر رايت بأن الحضارة ليست زائلاً
حقيقياً . لأنها حالة السلوك فحسب . بل
لأنها أيضاً تفرم بظيفة والعنكم فيه بجمعه
يا في تلك العمليات الأهرامية والفكرية

والواقع أن الدور هذه الوجهة من النظر
يؤدي إلى إهدار حقيقة الفرق بين الحضارة
التي تشكلت عنها حضرات الحضارات بين سلوك
جماهير مختلفة . والتي تتركب من مجموع أن
الشكالات متعددة من السلوك فرعية بخصومية
حضرية جزئية . لا يمكن أن لا توجد تلك
العناصر الرئيسية التي تسيطر فوق الجوانب
المعنوية والتي تتجاوز الأفراد والأنساق
عبرها لتعبر كقوانينها على كل شيء
لكن الذي لا يستطيع أن الواقع بغير
دوره للهم الحضارة دون أن يترك للعنصر
الإنساني دوراً مهماً . ولا يترك لأية محاولة
توسيع للعنصر الخامس دون الفرع بالحضارة سواء
أكان ذلك على السطح النظري أم على
السطح الواقعي أي قدر من النجاح .
ولذا تكون وجهة النظر الأخرى بين
أصحاب الرؤية الحضارية والتي يميز عنها
كل من كارول Gardiner ومنورهوك
Morduck (١١٠ ، ١١١) لا يترك (١٠٠) أقرب إلى
المنطق في محاولتها . فتنسب إلى الحضارات
النتيجة الخاصة للحضارة . وهو العلم .
ولكن في العقل الجسدي لا لأفراد مجتمع مما
وحيث تعمل بوصفها خريطة بعينها الأفراد
معهم لتقدمهم وتوجه سلوكهم . يحتاج خلال
تضاريس المجتمع والعرض وجهة النظر هذه أن
كل الأفراد يشركون في جعل هذه الخريطة

المعقولة، ويمكننا تسمية كاردن أن الأهم
 مشتمل كون في شكلها، نحن نعتبرها الكلية
 يرى، مودة ذلك أنهم يتفكرون في
 عناصرها الجزئية في أنها ينبغي أن تكون
 صيرتها الكلية، مختلفة من فرد إلى فرد
 ولكنها تتضمن لديهم جميعا العناصر ذاتها
 المفهوم الحضاري
 إذا ما انتقلنا إلى وجهة النظر العربية
 فيقولون أن أصنافها، يحد أن الحضارة عبارة
 عن مجموعة من الاستعدادات أو القدرات
 التي يتوصل إليها الباحثون، وذلك ما
 يلاحظه من النظام في السلوك أو أحيانا من
 الانظام بين المجتمعات الأهم إلى المجتمع ما
 يذكر، وهو أن الحضارة العربية من النظم
 أن الحضارة ليس لها وجه، والتي لا
 في كيانها، فالعشيرة، وأما عن الكائنات
 الحية، ولا هي، من جهة، فكرة في عقل الإنسان
 بل هي تكون منطقيا، مستخلص من
 سلوك الإنسان، ولهذا فهي، توجد الفكر في
 عقل الباحث (١٣٣١) (١٣٣٢) (١٣٣٣) (١٣٣٤) (١٣٣٥)
 المنظر الأساسي لا يتم الحضارة، وهو سلوك
 الأفراد في، سابقا، الحياة اليومية، وكما لا
 توجد، سلوكهم في، مثل العلاقات، إنسانهم
 الحضارية، والرمزية، والأدراك، واستعداداتهم
 العالمية، والتي يمكن أن تشكل، ويرتبط
 الحضارة ما يطلق عليه الباحث العربي اسم
 الحضارة

الحضارة، تقوم بدورها، في شكلها
 يكون نظري من مستوى، وليس يشغل الباحث
 من خلال استبدال الخصائص والتفسيرات أو
 الخصائص الزمنية، والوصول الحضاري
 ذاتها ما يكون عبارة، فالقائمة، فهم يحد (١٣٣٦)
 (١٣٣٧) (١٣٣٨) (١٣٣٩) (١٣٤٠) (١٣٤١)
 المفهوم الحضاري والمنطقي
 منظور آخر يتناول المفهوم الذي نحن
 بصدده، ولا يعمل محوره الزماني أو
 العمود الزمني للحضارة، ولكنه يحد وجهة
 أخرى، تشتغل في الأمة، خيار، حول الأشكال
 الهرمية للحضارة، وقد يكون هذا الخيار
 وما يخصه من وجهات نظر أكثر أهمية، من
 منظور، والتي، ومنه، لدى علماء النفس، على
 وجه الخصوص، لتصل إلى النهاية، ذات
 كبرى في بناء الامتياز الحضارية للثقافة
 المتميزة التي يتوصل إليها الباحثون
 السؤال الرئيس في هذا المنهج هو، ما
 هي أشكال الحضارة، أو ما الذي يشتمل
 مفهوم الحضارة، هل يمكن تعريف الحضارة
 بسلوك السلوك، ما هي، ذلك المضمون المادي
 للسلوك (١٣٤٢) كالاتجاه، المضمون في صورة
 حضارة، وكثيرا ما (١٣٤٣) أم أنه يمكن تصور
 الحضارة، ليشمل، فقط، الأفكار، والمعتقدات
 والقيم، والتفضيلات، وغير ذلك من مكونات
 أنماط الحياة الرمزية لدى الإنسان.

التكنولوجيا ، وأساليب التنظيم الاقتصادية ،
والإطار الاستقرائي ، وأساليب الصنع ،
والتصنيف ، الاجتماعي ، والتطبيقات
النفسية والمعتقدات والممارسات الدينية
(١٣ : ٤٤) . يمكننا أن نلاحظ جيداً أن هذا
المفهوم ، وهذه الصياغة تبدو أكثر ملاءمة لـ
جذبة الأمر للنظام الاجتماعي ،
أما النموذج الفكري فيلزم على طرف
مناقض تماماً للنموذج السلوكي وهو أكثر
عموماً وقبولا لدى المتخصصين لوجهة النظر
الحرية ، من جهة ، ولعلماء الأنثروبولوجيا
المعاصرين ، ويمكن هنا تصور وجود ثلاث
وجهات النظر : على الأقل - حول هذا
النموذج للحضارة باعتبارها نظاماً من
الأفكار .

نرى وجهة النظر الأولى أن الحضارة
نسق معرفي ، ويعتمد على النظرية على
النموذج الفكري ، وهي ترتبط بشيئين
بدراسة التطور الفكري لعلوم ولايات الأقطار
الحضارات الساقية ، مفرقة في المجال نفسه
التي تقوم هذه العلاقات بوصفها زمناً فكرية
مستخلصة ، بما يلي ، خلف مجال الأحداث
الملاحظة (١٣ : ٤٦) .

يطلق رولر Rohner (١٩ : ١١٨)
على المنهج الأول اسم المنهج السلوكي^{١٦}
بينما يطلق على المنهج الثاني اسم المنهج
الفكري^{١٧} ولأن جوهر هذا الحوار يتداخل مع
الموازاة السابق المتعلق بمفهوم الحضارة ، فإن
أصحاب النظريات العالمية والإشمية قد
يختلفون أيضاً فيما بينهم في هذه النقطة
ويحاولون لإحدى وجهتي النظر في هذا
التصنيف الجديد .

ويجوز كل من أصحاب وجهة النظر
الحضارية العالمية والمدافعين عن نظريات
التطور والنظريات البنيوية ونظريات الحضارة
القائمة على نظم الآثار الجديد^{١٨} النظرية
السلوكية أو النموذج السلوكي حول شكل
الحضارة ، ويرسم العلاقات المعقدة بين
أصحاب هذه النظريات حول نقاط كثيرة ، فإنه
يمكن ملاحظة أن هناك اتفاقاً عاماً بينهم في
النظر إلى الحضارة على أنها نسق سلوكي
مفصل باسم جميع تراكيب معين ومفهوم عند
القائمة صلاته بين المجتمعات البشرية وظلتها
التاريخية . الحضارة إذن هي ذلك الأسلوب
المعمر ، والمفصل للحياة في المجتمعات ،
ويضم هذا الأسلوب جوانب متعددة من بينها

Ideological	(١٧)	Behavioural	(١٦)
System of Ideas	(١٥)	New Archaeology	(١٨)
Linguistic Model	(١٧)	Cognitive System	(١٧)
		Ethnoexematics	(١٧)

الاعتبارات السيكولوجية على تعريف الحضارة باعتبارها نسقا من المعاني الرمزية وفي هذا يذكر جودانف Goodenough أن الحضارة تعرف بشكل إجرائي باعتبارها كل ما يتشمل في الأمور التي يتمين أن يعرلها الشخص أو يعتقد فيها لكي يسلك بطريقة معينة من أفراد المجتمع . وأن يعمل لذلك عند قيامه بأي دور يتقوله لنفسه . ورغم أن هذا التعريف لا يضيف جديدا من الناحية النظرية فإنه ضروري وتضمن تذكره دائما واستعادته في ذهن عند القيام بمبحث غير حضاري (١٦)

وعلى الرغم من المزايا الواضحة لهذه النظرية العامة في الحضارة من حيث هي تكون نظري في عقل الباحث وما يجعلها أقرب إلى القبول لدى علماء النفس . لأنها تتجنب عددا من المشكلات الهامة التي تمثل صعوبات في بناء النظرية وما يترتب عليها من مشاكل ذلك الجوانب التالية (١٧)

(١٨) إذا كانت الحضارة عبارة عن تكوين نظري في عقل الباحث وحدود ونادراً ما يكون لهذا التكوين وجود في عقل الأفراد الذين يسلكون وفق نسق حضاري إجتماعي معين . لأن قضية كيف « يشارك » كثير من الناس في مجموعة واحدة من المعاني

في حدود وجهة النظر الثانية والذي يلمس ستراوس Levi Strauss في نظريته الثانية (١٩) والتي تناول فيها الحضارة باعتبارها نسقا رمزياً . متقاسماً بين أفراد المجتمع . وهذا النسق من البديجات العقل التراكمية . فسمى ستراوس إلى دراسة الحضارة إلى الكيف من المخرجات والبنية نظم الترابية واللغة ومبادئ العقل التي تنتج هذه التخصصات الحضارية (٢٠ : ٢٧ - ٢٨ : ١١٩)

روم إيمان وجهان النظر الثالثة في مجال التوحيد التكملي لا تعني أن الحضارة نسق الرمزي (٢١) أو نظام من المعاني والرموز المشتركة . وتعتبر أكثر تحديدا بعد الحضارة نسق من المعاني الرمزية (٢٢) ولا حظ هنا أن كلا من جرونوشتيدر Oertiz & Schuler et باغدان بهذه الوجهة من النظر التي يمكن أن تجد أصولها في نظرية بارسونز Parsons (٢٣ : ١٧ : ١٨) وكذلك في نظريات الحضارة بوصفها نسقا رمزياً والتي تنطق في كثير من جوانبها مع نظرية الحضارة باعتبارها نسقا رمزياً (٢٤ : ١٨ : ٢١ : ١٩ : ١١٨)

الحضارة لنسق من المعاني الرمزية (٢٥) ينتسب إلى أنثروبولوجيون أصحاب

Symbolic System (٢٤)

Symbolic Meaning System (٢٥)

Structuralism (٢٦)

Symbols and Meanings (٢٧)

والمرئط غالباً ببعض المجتمعات الفرعية أو
جماعات الأقلية أو اللغات المنعزلة أو أية
جماعات حضارية منظمة في فئة اجتماعية
وأنساق الحضارة الفرعية بالنسبة للحضارة
مثل الأنواع بالنسبة للجنس (٧).

أما الأنساق الفرعية للحضارة فمباراة
من مجالات متميزة من المعتقدات والمبادئ
الأخرى الشائعة على امتداد النسق الحضاري
الاجتماعي الواحد. يقال ذلك أن اللغة نسق
فرعي للحضارة. وكذلك العقيدة والنظام
الاقتصادي. والنظام السياسي وغير ذلك من
الأنساق الفرعية. وتستخدم تعبير الأنساق
الحضارية الفرعية في الكثير من الأحيان
كمترادف للمفاهيم التي يطلق عليها اسم
المؤسسات الاجتماعية. وفيما علماء
الأنثروبولوجيا والاجتماع في حين من الإشارة
إلى أن بعض ما يندرج على أنه حضارة عند
دراسته في إطار مجتمع ما غالباً ما يتجزأ
كمجموعة جزئية ذات
مكونات فرعية (١٩، ١٢٥).

الحضارة، النظام الاجتماعي،
المجتمع.

تمت التفرقة بين كلا من الحضارة^{٢١}
والنظام الاجتماعي^{٢٢} والمجتمع^{٢٣} قامة للغة
في حين أنها لطيفة للفروق بين جماعة

الأولية. قبل أن يتم ربطها جميعاً تحت
مسمى حضارة. أو يطلق عليها هذا
الاسم بشكل واحد من هذه المشكلات.
(٢١) متى يتعين أن نلاحظ أن كلياً ما
أو مجتمعاً معيناً، أو أية مجموعة أخرى من
الغالب لا تعد بعد جزءاً من النسق الحضاري
القائم (١) أو تعد الآن لأول مرة جزءاً من هذا
النسق الحضاري.

١٢٣) تظهر العديد من التجميعات
البشرية فيما بينها تداخلاً حضارياً معقداً
(كما في اللغة على سبيل المثال) فكيف
يستطيع الباحث أن يميز زمانياً أو مكانياً
وتشكلياً لاطع حضارة عن الأخرى في إطار
هذا النسق النظري (١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٥).

الواقع أن المفهوم المقبول للحضارة يتعين
أن يسمح بإمكان حدوث الصراع والاختلاف
والابتداع والتغيير. كما يتعين أن يسمح
بالمثل بإمكان حدوث المشاركة والاستقرار
داخل التجميعات المختلفة. في الوقت نفسه
الذي لا تشكل فيه أو تتوازن أنساق
الحضارة الفرعية^{٢٤} أو الأنساق الفرعية
للحضارة^{٢٥} في إطار هذه النظرية (٦ ،
١٢٤).

ويقصد هنا بأنساق الحضارة الفرعية
ذلك الشبان الجمهوري داخل الحضارة الأكبر.

Cultural Subsys (٢٢٨)

Social System (٢٢٩)

Subcultural Systems (٢٧)

Culture (٢٨)

سوسيولوجيا (٢٩)

ويبدو أن هذا أيضاً هو السبب في أن علماء
الأنثروبولوجيا على اختلاف مذاهبهم لا
يستطيعون عملياً تحديد المسبب في أي من
مجالين المعاني الرقوية أو السلوك الصريح .
وكما يذكر جامودا في هذا المؤلف درس
لعلاء النفس المعتمدين بالبحوث غير
المحضارية ، والذين "ما زالوا يقصرون أدواتهم
على مقاييس السلوك اللغوي" ^{٢٢} ، والذي
يشار إليه أحياناً على أنه الحضارة الثانية ^{٢٣}
دون أن يهتموا أو يشغلوا أنفسهم بالملاحة
بين هذه المقاييس والسلوك اللغوي ^{٢٤} ، في
المجال الاجتماعي (١٤٤ : ١٤٤) .
وعلى خلاف كل من الحضارة والنظام
الاجتماعي ، يمكن النظر إلى المجتمع بدرجة
ما يوصلهم جوهرها مادياً ^{٢٥} وفقاً لما يراه
بارسونز (١٨ ، ٧١) . وتظهر الجوانب
المادية للمجتمع من خلال التعريف المقبول لدى
أغلب علماء الاجتماع اليوم ، والذي يرى أن
المجتمع هو أكبر وحدة القومية ذات حدود
محددة زمنياً من خلال الأجيال المتعاقبة فيه
نتيجة للتناوب بين أراءه النظمية ، ولدى
حضارة معينة ، ونظام اجتماعي عام ، ويقصد
من الإشارة إلى المجتمع بوضوح أكبر وحدة ،

تميزه عن الوحدات المجتمعية الصغرى المكونة
من التجمعات محدودة مثل القرى والمدن ،
والتي ينطبق عليها بشكل ما التعريف
السابق ، وهنا نجد هذه التجمعات المحلية
لأن المجتمع هو أكبر وحدة تضم العديد من
هذه التجمعات المحلية (١٤٥ : ١٢١) .
يتميز أن للثقافة الحضارة بجزئياتها
ومكوناتها المختلفة التمييز بين هذه النظم
الثلاثة الرئيسية التي تكمن وراء نظرية
محاكمة عن الحضارة وهذه النظم الثلاثة هي :
(١) الحضارة ذاتها ، أي النسق الفكري
أو النسق الرمزي المشترك من المعاني بين
الأفراد .
(٢) النظام الاجتماعي ، أي الشبكة
المقدمة من الأساليب السلوكية وأنماط التفاعل
والترتيبات الاجتماعية .
(٣) المجتمع ، أي القوام أو البنية
المادية التي يخلق الأفراد تحت نظام اجتماعي
معين ، وذلك نسق حضاري مشترك .
وهذا يصبح الفرد عضواً في مجتمع ،
وخاضعاً لنظام اجتماعي ، ومشاركاً في
حضارة معينة .

المراجع

- ١ - ملكة، ل. ك. دراسات في علم النفس الاجتماعي في الوطن العربي : القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠٠
- 2 - Bigan, R.J., *Patterns of Cultural Change in a Sepitish Flathead Community*, J. Human Organization, 1971, 30, 3, 229 - 237.
- 3 - Brinson, Les., *Cultural Diversity within a frame work of psychological assessment*, High School Journal, 1976, 60, 2, 85 - 91.
- 4 - Dixon, J.C., *The Effect of Social desirability on two Dimensions of self-Evaluation in Two cultures*, J. Social Psychology, 1974, 92, 167 - 171.
- 5 - Fouche, F.A. *The development of psychological tests for different ethnic groups in South Africa*, Hiroshima Forum for Psychology, 1974, 1, 35 - 43.
- 6 - Goodenough, W.H., *Cultural anthropology and linguistics*, in P. Gra-
vin (Ed.) *Report of the 7th Annual Round Table Meeting on*
linguistics and language study, Washington D.C, George-
town Univ. Monograph series on language and linguistics,
1957, 9.
- 7 - Goodenough, W.H., *Culture, Language and Society*, Menlo Park, CA:
The Benjamin / Cummings Pub. Co. 1981, 2nd ed.
- 8 - Greetz, C., *The Interpretation of Cultures*, New York: Basic books,
1973.
- 9 - Hood, R.W. & Olshburg, G.P. *connotative similarity of Remote*
Associates test lines as a function of their cultural
Availability, psychol. Rep., 1970 27, 1, 127 - 130.
- 10 - Jahoda, G. *Do we need a concept of Culture*, J. of crosscultural psy-
chology, 1984, 15, 2, 139 - 151.

الانفعال والثقافة
Emotion and Culture

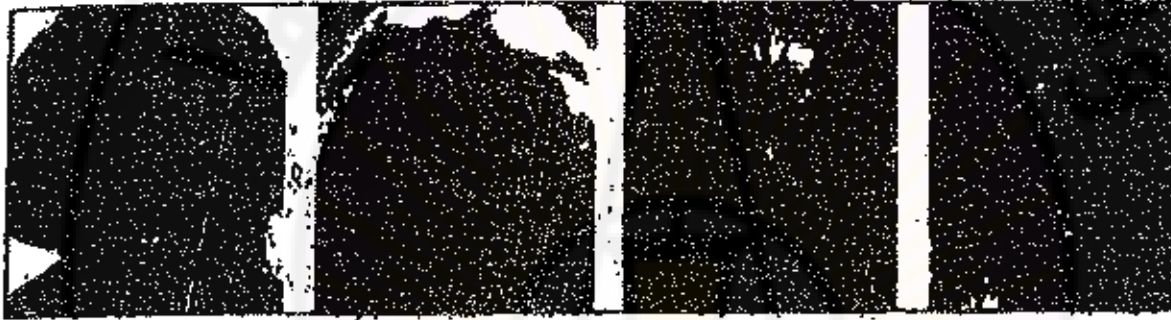
محمد عودة الريماوي
(من كتاب علم النفس العام)

الثقافة والانفعال

لثلاثة عقود خلت من الآن انصبحت الأبحاث والتفكير على العلاقة بين الثقافة والانفعال، وتركزت بشكل مباشر على قضية مفادها ما إذا كانت الانفعالات عالمية أم ثقافية. وقاد

عالمية الانفعال
مقابل الثقافة
الثقافة والانفعال

الجهود الأولى في علم النفس كل من إيمان Ekman وإيزارد Izard بدءاً من عام (1960) حيث ركزا على الدراسات عبر ثقافية للتعبيرات الوجهية وذلك لاختبار فرضية داروين Darwin حول عالمية التعبيرات الانفعالية. وخلصا إلى أن الإنسان إذا ما تعرض إلى انفعالات قوية ولم يحاول إخفاء هذه الانفعالات لسبب أو لآخر فإن التعبير عنها هو هو بغض النظر عن العمر، والعرق، والثقافة، والجنس، ومستوى التعليم. إلا أن هذا الاستنتاج أثار جدلاً طويلاً بين الباحثين والمهتمين ووجهت له الانتقادات القوية خاصة فيما يتصل بمدى صدق هذه النتائج وإمكانية تعميمها.



وقد تصدى الكثيرون لفرضية عالمية الثقافة وخاصة الاثنوبولوجيون الأوائل (ميد Mead، باتسون Bateson ... الخ) الذين نادوا بأن التعبيرات الانفعالية تتغير تبعاً للثقافة، وأن هذه التعبيرات تتشكل بفعل الثقافة. ليس هذا فعسب، فقد فرض النوع الثقافي مفاهيم متعددة للانفعال وللمعرفة الانفعالية Emotional Knowledge. واختلف كل من علماء النفس وعلم الاثنوبولوجيا الثقافية حول المعاني الثقافية للانفعالات. فعلماء النفس المبالون إلى عالمية الانفعالات أنكروا إمكانية تطبيق المعاني الثقافية على الانفعالات، واعتبروا أن هذه المعاني يمكن أن تؤثر في تفسيرنا ومعتقداتنا ذات العلاقة بالانفعالات في حين أن الاثنوبولوجين طوروا منحنى نظرياً يدافع عن أهمية المعنى الثقافي في فهمنا فيما يتصل بالخبرة الانفعالية أو التعبير عن الانفعالات. (يمكن الرجوع إلى كتاب Culture and Emotion الفصل الأول للاطلاع على الدراسات المديدة التي دارت حول المقارنة بين التعبيرات الانفعالية في الثقافات المختلفة) (Manstead & Fisher, 2002).

ومن القضايا البحثية الأخرى في مجال الثقافة والانفعال التمثيل اللغوي للانفعال والحوادث الانفعالية. أجريت دراستان حول هذه القضية حيث توصلتا إلى أن هذه التمثيلات تتأثر بفعل التنظيم الثقافي للعلاقة بين الشخص والآخرين. ففي الثقافة التي تمجد العلاقة بين الفرد والآخر والاعتمادية المتبادلة بينهما فإن المفردات الدالة على الانفعال هي مفردات

لفوية عيانية Concrete في حين أن الثقافة التي تمجد الفرد فإن المفردات اللغوية تكون مفردات مجردة Abstract. كما أن المفردات في الثقافة الأولى تعبر عن العلاقة الاجتماعية، في حين أنها في الثانية تعبر عن علاقة الفرد بنفسه Individuality. من الأمثلة على النوع الأول (فادي يلکم عصام)، (أحمد ضرب عثمان)، أو (أحمد عدواني) أما النوع الثاني يظهر في القول: (أحمد يكره عثمان)، (فاطمة تحب عائشة) في الجمل الأولى يرد وصفاً للحدث الضرب، اللكم، وفي الثانية تتحدث عن وصف الحالة الانفعالية كره، حب.

وفي نفس الموضوع درست الكلمة والنبرة (Tone) التي تُقدّم بها بهدف فهم الكلام الانفعالي، ولمعرفة دور الثقافة واللغة في تغليف الانفعال وتقديم نتائج معالجته في غالب أكثر دبلوماسية وأقل مواجهة ومباشرة. فكلمة "حسن" مثلاً أو "بصير خير" تقدم بنبرات تبعا للموقف، يفهم منها المحتوى الانفعالي في الموقف (Manstead & Fisher, 2002).

البناء المعرفي
للانفعاليات
الفردية
التي تتأثر
بالانفعال
والخبرة أو
حالة وأخيرة

كذلك درس المكون المعرفي للانفعالات دراسة مقارنة في الثقافتين الاندونيسية والهولندية لانفعالي الخجل والذنب. ثم استقصاء المفردات المعبرة عن هذين الانفعاليين، تلك المفردات تشير إلى البناء المعرفي للانفعالات. وذلك بهدف معرفة الفروق والتشابهات بين المفردات الانفعالية وبالتالي بين الأبنية المعرفية في كلا الثقافتين. حيث تبين أن الثقافتين تحتويان على بناء معرفي مشترك، وأن انفعالي الخجل والذنب يقتريان من مفهوم "الخوف" ويمهدا إلى حد ما عن الغضب في الثقافة الاندونيسية أكثر منه في الثقافة الهولندية (Manstead & Fisher, 2002).

تغير المزاج
بالتعبير
عن المزاج
في الثقافات
المختلفة

وفي دراسة أخرى عبر ثقافية بعنوان "البكاء وتغير المزاج" عام (2002) هدفت إلى تحديد أثر البكاء في تغير المزاج عبر الثقافات المختلفة. الفرضية التي عملت عليها هذه الدراسة مفادها أن تحسن المزاج يرتبط

إيجابياً بتكرار البكاء، كما يرتبط بالفرديّة - والجماعية، وكذلك بالجنس، بينما ترتبط الذكورة - الأنوثة والخجل سلبياً بتحسّن المزاج. جمعت البيانات من (30) بلداً فوجد أن الذكورة - الأنوثة، الدخل القومي، الخجل، وتكرار البكاء متنبئات دالة على تغير المزاج وتقيد النتائج بأن الكيفية التي يشمر بها الفرد بعد البكاء يعتمد على مدى شيوع البكاء في الثقافة وعلى المضاعف العامة للخجل الناتج عن البكاء.

نشاهد رقم (3)

1 - عرف الثقافة

2 - ما رأيك في عالمية التعبيرات الانفعالية؟

3 - هات أمثلة تدلل على دور الثقافة في الانفعالات.

خامساً: الثقافة والتعبير الانفعالي



تتنوع معاني الايماءات Gestures بتنوع الثقافات. فقد لاحظ عالم النفس كلينبرنج Klinberg (1938) ان الصينيين يصنفون بأيديهم للتعبير عن انزعاجهم او يأسهم. ويستخدمون اللفظ Ho - Ho للتعبير عن الفضيض،

ويخرجون السنتهم للتعبير عن الدهشة. وبالمثل فإن الأميركيين يرفعون الابهام Thumb up ويلفظون بـ (A-Ok) كتعبير عن الاستعسان في حين أن مثل هذه الايماءات مستكرة في ثقافات أخرى. ومن الايماءات الأخرى رفع السبابة والوسطى على شكل (V) دلالة على النصر، ورفع الاصبع الوسطى كدلالة على حظ سعيد Good Luck لدى شعب هاواي الأمريكي.

... هل تختلف معاني تعبيرات الوجه تبعاً لاختلاف الثقافة؟ أجريت دراستان للإجابة على هذا السؤال إبان عقود السبعينات والثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، فلاحظ أن هناك تعبيرات تظهر على الوجوه وتحمل نفس المعنى رغم تعدد الثقافات. فالابتسام والفضيض علامتان لا تختلفان باختلاف الثقافة. فليس هناك ثقافة يمر فيها بالمبوس من الفرح والسعادة.. وعلى الرغم من بعض الفروق فإن الثقافات واللغات تنقسم الكثير من التشابهات في الطرق التي يصنفون بها الانفعالات مثل: الفضيض، الخوف ومكذأ، وبالمثل فإن المؤشرات النفسيةولوجية للانفعال هي واحدة عبر الثقافات المختلفة (Myers, 2004).

في مقارنة بين الثقافتين الأميركية والصينية كانت مجالات المقارنة هي:

- أنا في مقابل نحن

- الحب والفضيض

- الحقوق في مقابل الواجبات

- الخوف (رؤي عن روزفلت Roosevelt قوله: الشيء الوحيد الذي علينا ان نضاف منه هو الخوف نفسه).

كما وجد أيضاً أن تعبيرات وجوه الأطفال حتى لدى هاندي البصر منهم هي عالمية، خاصة تلك المصاحبة للانفعالات الأساسية مثل الفرح والحزن والخوف والفضيض. وأن جميع الأطفال

يكون هندياً يحبطون، ويحركون رؤوسهم في مواقف التعدي ويتسمون عندما يكونون هندياً، إن عضلات الوجه تتحدث بلغة عالمية - كما ذهب الى ذلك دارون - مما يباعد البشر على البقاء.

وعلى الرغم من أن الثقافات تتناسب لفة الوجوه للانفعالات الأساسية إلا أنها تختلف في مقدار الانفعال المميز عنه. ففي الثقافات الغربية التي تمجد الفردية (أوروبا الغربية، استراليا، نيوزيلانده والولايات المتحدة) فإن الانفعالات لديهم شديدة وتدوم طويلاً. فالتناس يركزون على أهدافهم واتجاهاتهم ويمبرون على أنفسهم تبعاً لتلك الأهداف والاتجاهات. في الثقافات التي تمجد الروابط الاجتماعية والتعاون تزدهر فيها انفعالات التعاطف والاحترام والفعل (في آسيا أكثر مما هي في الثقافة الغربية). (Myers, 2004); (Westen, 1996)

تذكير بالغ

من يميل أكثر الى التمييز عن انفعاله الذكور أم الاناث؟ وكيف تصل إلى إجابة هذا السؤال؟

الأسئلة رقم (4)

يتعلم الناس ضبط مظهرهم في التمييز عن الكثير من الانفعالات، ويستخدمون انماطاً من التمييزات الانفعالية. يعتقدون انها تتلاءم أكثر مع ثقافتهم ومع الثقافات الفرعية الكاثية داخل الثقافة الواحدة. وهذا ما يعرف باسم تشغيل القواعد (Display Rules) عندما عرض على يابانيين وأميركيين فلم يعرض مظاهر مؤلمة وجد ان تمييزات وجوههم كانت واحدة عندما لم يعرفوا أن أحداً يلاحظهم حيث تصبروا بالفطرة لا بالقواعد الثقافية (Westen, 1996).

سادساً، الخصائص الثقافية للانفعالات

للانفعالات خصائص خمسة هي: النوعية، والشدة، والتمييز السلوكي، والكيفية التي تدار بها، وتخليقها. هذه الخصائص متأصلة في الثقافة وتعكس أنشطة ومفاهيم ثقافية وهذا ما نحاول توضيحه.

فمن حيث نوعية الانفعال الذي نشعر به في موقف ما يعتمد على فهمنا له (مفهوم، تمثيل، مضطرب). فالانفعال يعتمد على عدد من المفاهيم وليس على مفهوم واحد، من هذه المفاهيم: فهم المثير اللحظي (حدث، شيء، شخص، مهول) الذي يواجه الفرد، والسياق الاجتماعي الذي

يحدث فيه الكثير، وحاجات وامكانيات الفرد. مثال ذلك إذا ما شتمك أحدهم (فهذه الشتمة) أمام الناس (السياق الاجتماعي) وكنت قادراً على الرد عليه (الامكانيات) فإنك تظهر انفعال الغضب. فالانفعال ليس حكماً منعزلاً ولكنه نظام من الأحكام الفرعية لجبل طرائقنا في رؤيتنا للعالم.

ويؤكد علماء البناية الاجتماعية أن هذه المفاهيم ثقافية من حيث أنها تُعَيَّر بالاتجاهات (المعتقدات، الأحكام، الرغبات). إنها تتعدد بأنظمة من المعتقدات الثقافية والقيم الأخلاقية لاجتماع ما.

مثال:

إن مفهوم "المسؤولية الشخصية" الذي يولد الغضب بين أفراد الثقافة الغربية هو فكرة ثقافية سائدة، يستخدمه الغربيون في تفسير فعل ما علي أنه مؤذ لهم ويجعلهم يغضبون. فالغضب هنا يمكن موقفاً قضائياً فيه ينفي على المعني تلقي اللوم وفقاً لحقوق الضحية. الناس الماقدون لمفهوم المسؤولية الشخصية واللذين يعززون الأحداث المؤلة العظيمة أو للصداقة أو للقدر فإنهم لا يلومون المسببين لما تسببوا فيه من أذى وبالتالي لا يتوقع منهم أن يطوروا انفعال الغضب.

أما من حيث شدة الانفعال فهي تعتمد كنوعية الانفعال على مفاهيم معرفية. فالمفاهيم الثقافية المختلفة بخصوص طبيعة أهمية الأحداث وطبيعة الانفعالات تولد مستويات مختلفة من الشدة الانفعالية لدى الجماعات البشرية المختلفة.

مثال:

إن قوة الحب تعتمد على المدى الذي يحققه المحبوب من المثاليات الثقافية والجمال الجسماني، والشخصية، والثروة، والنسب، والرق (تنكح المرأة للمال، ولجمالها ولحسبها، والدينها). ويتكثف الحب أيضاً إلى الدرجة التي تسمح بها القيم الثقافية بما يتناسب مع تقدير الذات والمكانة الاجتماعية. وبالمثل الغضب فإن شدته مرتبطة بالأحكام الثقافية حول مدى الإيذاء الذي تسبب به المسيء.

أما السلوكات المعبرة عن الانفعال فإن نوعية الانفعال غالباً ما يعبر عنها طبقاً للقواعد المختلفة في الثقافات المختلفة. ديفيد همفيل Hemphill (1998) أن معظم أفراد العليقة الوسطى الأسيركية في القرن الثامن عشر رجالاً ونساء كانوا يميلون إلى كبت انفعالهم مقارنة بالذين سبقوهم في أمريكا. الرجال والنساء كانوا مطالبين بالتمسك من تمبيراتهم

الانفعالية بما في ذلك تعبيرات الوجوه والضحك واللفة. الرجال عليهم ان يكونوا اكثر كبتاً من النساء (www.humboldt1.com).

نفيد الدراسات الحديثة التي تناولت التعبيرات الانفعالية المعاصرة بين الرجال والنساء انها ضاربة جذورها في الأنشطة الاجتماعية. فالانفعالات التي تحرص المرأة على ابدائها (الدفء، السعادة، الخجل، الذنب، الخوف والمصيبة). هذه الانفعالات ذات علاقة بمكانة المرأة المتدنية في المجتمع، وضعفها الجسماني في مواقف المدوان، وأدوارها التقليدية (الانجاب وتربية الأطفال). أما الرجال فهم حريصون على ابداء الانفعالات ذات العلاقة بمكانة الرجل وأدواره الاجتماعية، من مثل: الغضب والغضب، والأزدراء. فالمدوان الجسدي مقبول من الرجل في حالة الغضب ولكنه مستهجن من المرأة. والبكاء في حالة الحزن مقبول من المرأة ولكنه غير مقبول من الرجل، وهكذا.

أما من حيث الكيفية التي تدار بها الانفعالات وتُحل فإنها تعتمد كسابقاتها من خصائص الانفعال على المفاهيم الثقافية عن الانفعالات. فشعب Illongot في الفلبين يملكهم خوف شديد من امكانية الانفعال في تدمير العلاقات الاجتماعية وبالتالي فهم حريصون على الا يتحول الاحباط إلى عدوان، انهم يحرسون على تجنب الغضب. يشبههم في ذلك اسكيمو ال Utku.

وأخيراً فنظير الانفعالات فهو أيضاً يعتمد على المفاهيم والأنشطة الثقافية فاناس Ifaluk يمتثلون ان اليأس Dissappointment والفرح Fright قريبان من بعضهما البعض لأنهما يؤكدان حقيقة ان كلاً منهما يتضمن اشياء غير متوقعة وأشياء سيئة وقعت. بينما في الثقافة الفرية لا يمتثلون أن اليأس والفرح متشابهان.

سابعاً، الوظائف الثقافية للانفعالات Cultural Function of Emotions

يؤكد كيب Copp (1998) على ان الانفعالات تشكل دوافع للأنشطة الاجتماعية. فالنساء بعد الحرب المالية الأولى شجّعن على الضمور بالحمس والتعبير عنه لمضاعفة الأنشطة الاقتصادية. أكثر من ذلك فإن الفروق الجندرية التي سادت أكثر من مئة وخمسين عاماً بدأت تتلاشى لتقارب الأدوار بين الرجال والنساء.

والفكرة تدفع إلى سلوك التملك في كثير من المجتمعات، والحب يدفع بالناس للارتباط بنوع خاص من العلاقات الاجتماعية ليحققوا نوعية انفعالية خاصة. الخجل بين النساء البدويات كما يقول أبو لفد (1990) خاصة الخجل من أمور ذات علاقة بالممارسة غير

الشرعية للجنس وظيفته تخليد البطيريركية والاقتصاد الابوي والعلاقات الأسرية (سيطرة الأب). فالزواج يتم لتحسين الوضع الاقتصادي للأب. أن الاحتشام الجنسي يمنع النساء غير المتزوجات من محاولات جذب الرجال. (خاصة إذا كن غير مقبولات من الأب) وهذا يسمح للأب املاء الزوجة المقبلة لابنه. وهكذا فإن انفعال الخجل يدعم انماطاً من العلاقات والانشطة الأسرية.

التكوين الثقافي للانفعالات Cultural Formation (Development) of Emotions

إن تطور الانفعالات لدى الأطفال الصغار وتشكيلها عبر عملية التنشئة الاجتماعية Socialization مظهر دال على أن الانفعالات ثقافية المنشأ على الأقل في المتعلم منها. ويورد علماء علم نفس النمو الكثير من الأدلة على أن الانفعالات تُنشأ عليها الطفل. فالنموذج الذي تقدمه الأم أو المربية للتعبيرات الانفعالية يثدونها الأطفال الصغار. كما أن بعض الأنماط النميرية للانفعالات تتشابه ما بين الأم وطفلها مع بدايات مرحلة الطفولة المبكرة.

هينما تتأدى عملية التنشئة الاجتماعية الأولية عبر التفاعلات بين الأشخاص - المربية والطفل - فإن محتواها المتجذر في الأنشطة الثقافية ومفاهيمها أيضاً. في الثقافة الغربية يستجيب الآباء لانفعالات أطفالهم ويشجعونهم لايلاء مزيد من الانتباه لانفعالاتهم.

التنشئة الاجتماعية الانفعالية تعلم الأنشطة والمشاعر المناسبة والمتقنة مع القواميد لأطفالهم وذلك لتحضيرهم للمشاركة في الأنشطة عندما يكبرون، والاندماج في مجتمع الراشدين مستقبلاً. وحيث أن النساء ما زلن مسؤولات عن التربية أكثر من الرجال، تُنشأ البنات أكثر من الأولاد ليكن أكثر انفعالية لمعرفة المشاعر المشاركة للأهكار والتعبير عنها. ولتحقيق ذلك فإن على الآباء أن: (www.humboldt1.com)

- 1- يناقشوا الانفعالات مع البنات أكثر مما يفعلونه مع الأولاد.
- 2- يستخدموا أنواع واسمة من الكلمات ذات العلاقة بالانفعال عندما يتكلمون مع البنات.
- 3- يوجهوا انفعالات متنوعة نحو بناتهم مقارنة بالأولاد.
- 4- يستخدموا انفعالات ايجابية أكثر من السلبية مع البنات
- 5- يلتفتوا انتباه الأولاد من أعمار (12 - 18) سنة الى السلوكات السلبية (المدوان الجسدي السرقة، التعبير اللفظي عن الانفعال السالب)
- 6- يساعدوا البنات أكثر

7- يسمحوا للأولاد بالاستقلالية.

8- يبتسموا للبنات أكثر.

9- يماقبا الأولاد أكثر على تمبيراتهم الانفعالية.

10- يستجيبوا بانفعالية أكثر مع البنات.

إضافة إلى كل ذلك فإن النماذج الانفعالية تقدم في الأدب، واللعب، والشعر والتلفزيون والسينما مما يسمح للأطفال بتذوق هذه النماذج.

ويرى فيجوتسكي أن عملية التنشئة الاجتماعية تولد انفعالات كظواهر اجتماعية. / ممرقة جديدة لدى أطفالهم. وسنتناول عملية التنشئة الاجتماعية بشيء من التفصيل في الفصل الخامس عشر.

ثامناً : الثقافة الانفعالية Emotional Culture

الثقافة الانفعالية هي إحدى اهتمامات الدراسات عبر الثقافية. عرفها جوردون Gordon (1989) على أنها : "مجموعة من المعتقدات التي تؤمن بها الجماعة، والمفردات الانفعالية والمعايير المنظمة للانفعالات.

تذهب وجهة النظر البنائية الاجتماعية Social Constructivism الى أن المجتمع يُنقل عملية بناء المخزون الانفعالي. لتفهم المواقف واختيار الاستجابات الانفعالية اللفظية منها وغير اللفظية هي في قسم كبير منها على الأقل نتاج التعلم الاجتماعي (Averil, 1982) المشار إليه في (www.fix.org).

يتعلم الأطفال المعتقدات والمعايير ذات العلاقة بالانفعال، ينقل المجتمع ثقافته الانفعالية من جيل إلى آخر. إن هذا لا يعني أن هذا النقل الثقافي يتم فقط في مرحلة الطفولة. إنما يتم في مختلف الأعمار. فالأطفال يلاحظون الاستجابات الانفعالية لدى الآخرين في مواقف غير مألوفة، ويتعلمون منهم الاستجابات المناسبة لكل موقف.

إن الحدود بين الانفعالات ليست واضحة تماماً فالانفعالات الخاصة لا يمكن تعريفها بالمطلق. لذا يتعلم الأطفال تعريف الانفعالات باستخدام الأنماط Prototypes فالفضب على سبيل المثال ليس حدثاً خاصة أو حالة أكثر من كونه تجمع حوادث ذات علاقة أو حالات تتقاسم بعض المزاوات المشتركة. أن تجمع الحالات الانفعالية تختلف بعض الشيء من ثقافة لأخرى. ولكن الانفعالات الأساسية يبدو أنها عالمية. فالأنماط متشابهة في كل الثقافات (Shaver, Wu & Schwartz, 1992) المشار إليه في (www.fix.org).

في عام (1984) حاول ليفي Levy أن يفترض أن هناك Categories مختلفة من الانفعالات ربما تُمنح سيادة أكثر أو أقل في الثقافات المختلفة. هذه الفروق ربما ترمز إلى الانفعالات التي واجهها الأطفال. فبعض الثقافات تحاول توجيه الأطفال بعيداً عن بعض الانفعالات، وبمضها الآخر تحاول توجيههم نحو بعض الانفعالات الأخرى. مثال ذلك أن بعض الثقافات تعرض على توجيه الأطفال بعيداً عن تلك الانفعالات السلبية التي تنمي التشاؤم لديهم. في حين تحرص على توجيههم نحو الانفعالات السلبية التي تشجع على التخلص من السلوك الضار.

لقد وجدت فروق في الأعمار التي يتعلم فيها الأطفال كلمات الانفعالات في مختلف الثقافات. فالأطفال الأميركيون يتعلمون تعريف الانفعالات الإيجابية قبل أن يتعلموا تعريف الانفعالات السالبة، بينما الأطفال الصينيون، على العكس، يتعلمون تعريف الانفعالات السالبة أولاً. وربما يمس هذا أهمية مختلف الانفعالات في الثقافتين.

لقد وجدت قرائن امبريقية تدعم مصطلح (Pan - Cultural Emotions) فالإشارات غير اللفظية للانفعالات الأساسية متشابهة عبر الثقافات، وتمييزات الوجوه واحدة للانفعال الواحد في كل الثقافات، ومع ذلك فإن الأفراد في الثقافات المختلفة ربما يفسرون بعض الانفعالات باعتبارها أشد أو أقل شدة، أن انتاج تعبيرات الوجوه تأخذ نوعاً من الثبات عبر الثقافات مع أن شدة الانفعال تتغير. هذا التنوع في شدة الانفعال ربما ترد إلى عوامل الثقافة. مثال ذلك أن مؤشر التواضع لدى اليابانيين يتطلب أن تبقى الذات مخفية لذا فإنهم يميلون إلى إبداء تعبيرات انفعالية أقل في حضور الآخرين خاصة الغرباء منهم. أما إذا آمن اليابانيون عدم وجود الآخرين فإن تعبيرات وجوههم الانفعالية تشبه تعبيرات الوجوه في الثقافة الغربية.

إن أفراد الثقافة الواحدة يستجيبون بنفس الانفعالات الأساسية للتعبيرات المشتركة، على الرغم من أن شدة الاستجابة تختلف عبر الثقافات. إن التعبيرات الانفعالية تتنوع من حيث نسبة تكرار حدوثها فبعض هذه التعبيرات تظهر في ثقافة بينما تختفي في أخرى.

تفيد الكثير من الأبحاث أن الاستجابات الفسيولوجية للانفعال تظل ثابتة عبر الثقافات المختلفة. إلا أن هذه النتيجة تتناقض مع نتائج دراسات أخرى تفيد بأن بعض الناس (ساموا) يبنون إثارة فسيولوجية أقل بينما يبني أناس (Illingot) إثارة فسيولوجية أكبر مصاحبة للانفعال (www.fix.org)

ملف (4)

الجنسية والسلوك غير اللفظي

الإناث أكثر حساسية للسلوك غير اللفظي، يبدن تعاطفاً أكثر وبشكل عام يظهرن أكثر العلامات الدالة على الانفعال، ومع ذلك فإن مقاييس الظواهر النفسيةولوجية للتعاطف تظهر إلى أن الفروق بين الذكور والإناث صغيرة.

ملف (5)

تفيد الدراسات عبر الثقافية للتمييزات الانفعالية أن:

- 1- حركات اليدين لا تحمل نفس المعاني في الثقافات المختلفة.
- 2- تعبيرات الوجه تبدو وكأنها عالمية.
- 3- هناك فروق ثقافية في درجة التعبير الانفعالي.
- 4- السعادة لا ترتبط بمتغيرات: العمر أو الجنس، أو مستوى التعليم، أو الجاذبية أو الوالدية.

تسماً: الذكاء الانفعالي Emotional Intelligence

ما هو الذكاء؟

سؤال يختلف جوابه باختلاف الشخص المجيب، فإن كان المجيب أباً أو أمّاً فإنه يتحدث من ابنه وعينه للثمان فربحاً قائلاً ابني يتكلم أو يسأل أو يستكشف أو يعمل أعمالاً لم نألفها لدى إخوانه عندما كانوا في مثل سنه، إن كان المجيب مربية في الروضة فتستدل على ذكاء أطفال الروضة بمدى ما يحفظون والسرعة التي يحفظون بها، وقدرتهم على الامساك السليم بالقلم، وتقليد رسم الحروف أو الأشكال وقوة الشخصية. وإن كان المجيب معلماً فغالباً ما يستدل على ذكاء تلميذه بنتائج تحصيله الدراسي فيربط بين الذكاء وهذا التحصيل. وفي جميع الأحوال فإن الذكاء بهذه المعاني أمر يدركه الحس الفطري. ولا شك أن لديك مثل هذه المعلومات وقهرها.

ولكن ماذا لو كان المعنى بهذا السؤال عالم من علماء النفس، فلا شك أن هؤلاء تعريفاتهم. وتمتدت هذه التعريفات بتمدد النظريات النفسية التي يصدر عنها ذلك العالم فاحتضنت كتب علم النفس بالتعريفات ولعل أشهرها وأحدثها هو: "القدرة على حل المشكلات والقدرة على التكيف والقدرة على التعلم من الخبرة" (Santrock, 2003).

الفصل الخامس

التنشئة الاجتماعية والثقافة

مقدمة

يمتد موضوع التنشئة الاجتماعية والثقافة من الموضوعات ذات الأهمية القصوى في علمي الاجتماع والانسان، وكلاهما يحمل بين طياته فكرة التدخل الانساني لاحداث تأثير أو اضافة شيء أو اشياء لجوانب الحياة الطبيعية والاجتماعية، وعمليات التنشئة الاجتماعية والثقافة متلازمان، وتؤثر كل منهما في الأخرى، فالفرد يكتسب ثقافة مجتمعه من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، ومؤسساتها المختلفة التي تتولى عملية نقل الانجازات الثقافية للأجيال المتعاقبة (الفروني وآخرون، 1992).

والتنشئة الاجتماعية علاقة تفاعلية، يتعلم الفرد بواسطتها المتطلبات الاجتماعية والثقافية التي تجعل منه عضواً فاعلاً في المجتمع، وتتضمن هذه العلاقات من الناحية النفسية، العادات والسمات والأفكار والاتجاهات والقيم، ومن وجهة نظر السوسولوجية، فإن التنشئة الاجتماعية تعني ان الفرد يتماثل مع الأشياء المسموح بها في الثقافة والتوقعات الثقافية، التي يعبّر عنها في الفاظ مثل الطرائق الشفوية والتقاليد والطرق الأخرى الخاصة بالحياة الاجتماعية (غيث وآخرون، 1988).

تعريف الثقافة

إن ثقافة أي مجتمع من المجتمعات هي ذلك الكتل المتراكم من المعرفة والمعتقدات والقانون والمعرف والمادات والقيم والفنون والأخلاق وكافة أساليب حفظ البقاء، التي اكتشفها وأوجدتها أو استعارها الانسان لنفسه باعتباره عضواً في جماعة، تؤمن بالتراث وتحافظ عليه، وتضمن الثقافة كافة المنجزات الفكرية والمادية، ففي الجانب الفكري تزود الثقافة الأفراد بأساليب التعامل فيما بينهم والوسائل التي تمكنهم من حل مشكلاتهم وتلبية حاجاتهم المتعددة، كأساليب التنشئة وعادات الزواج والطعام، أما الجانب المادي للثقافة فيتم التعبير عنه من خلال الأدوات التي يستعملها الانسان في السكن وطرق العيش ووسائل النقل، ومن الجدير بالذكر ان الثقافة لا تؤثر في سلوك الفرد تأثيراً مباشراً، وإنما توكل ذلك إلى عدد من الجماعات

والمؤسسات التي ينتمي إليها الفرد (الغزوي وآخرون، 1992).

وقد تناول العلماء مفهوم الثقافة، كل من الزاوية التي تخدم المجال الذي يهتم به، ويوصله إلى هدفه، فالمؤرخون يرون أن الثقافة تعني التراث لبني البشر، وعلماء الاجتماع يرون أن الثقافة تعني الجانب الفكري من التقدم البشري، في حين تعني الحضارة الجانب المادي من التقدم، كما يرى بعضهم أن الثقافة هي المدنية. أما علماء الإنسان (الأنثروبولوجيا)، فيرون أن الثقافة هي العنصر الأساسي، والصفة التي تميز بين المجتمعات البسيطة والمعقدة، وعلماء الإنسان، هم الفئة التي اهتمت ولا تزال بالثقافة، وجعلتها محور دراستها، وافردت لها فرع من تخصصها هو الأنثروبولوجيا الثقافية (ناصر، 1988).

يمد مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم تداولاً وشيوعاً ومن أكثرها غموضاً وتعقيداً (الليبي، 1987)، وهو المفهوم الذي تساقطت أمامه جهود الباحثين الذين حاولوا تعريفه وتحديد ملامحه، ولقد وقع كلكهون (Kluellon) على مئة وستين تعريفاً للثقافة، وذلك منذ خمسة وعشرين عاماً.

ولفظت ثقافة قديمة في اللغة الفرنسية، إذ ظهرت في القرن الثاني عشر، للدلالة على فعل العبادة، وبدأت تشير إلى حرائة الأرض وزراعتها في القرن السادس عشر. ولكن هذه الكلمة بدأت تأخذ أبعاداً اجتماعية، وتكتسب مضامين ثقافية منذ بداية القرن الثامن عشر (زحلق ووظقة، 1995).

ولعل من أقدم التعريفات للثقافة، وأكثرها ذيوعاً حتى الآن لقيمتها التاريخية، تعريف إدوارد تايلور الذي قدمه في أواخر القرن التاسع عشر في كتابه عن الثقافة البدائية والذي يرى فيه أن الثقافة هي: " كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون والأخلاق والقانون والعرف، وغير ذلك من الامكانيات أو الحاديات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في مجتمع " (Tylor, 1924).

ويبرز هذا التعريف العناصر اللامادية لحياة الناس في جماعة، كالأخلاق والقانون والعرف التي تنشأ نتيجة للتفاعل الاجتماعي، وتأخذ طابعاً إلزامياً، إلى جانب العنصر المادي للثقافة، علاوة على العلاقات بين الناس، وبين العناصر المكونة للثقافة (ثومبسون وآخرون، 1990).

ولعل من أبسط تعريفات الثقافة وأكثرها وضوحاً تعريف أحد علماء الاجتماع المحدثين روبرت بيرستد، الذي ظهر في أوائل الستينات، حيث يرى أن الثقافة هي : " الكل المركب الذي يتألف من كل ما ن فكر فيه ، أو نقوم بعمله ، أو نملكه كأعضاء في مجتمع . ويبرز هذا التعريف الصيغة التأليفية للثقافة لتصبح ظاهرة مركبة تتكون من عناصر بعضها فكري وبعضها سلوكي وبعضها مادي (Bierstedt , 1963) .

ويمرّف وإيام أوجبرون " Ogburn " الثقافة بأنها ما يشتمل على الأشياء ، والنظم الاجتماعية ، والطريقة الاجتماعية التي يسير عايشها الناس في حياتهم (غيث ، 1965 ، 65) .

أما كلايد كلاكهون " Kluckhohn " فيرى أن الثقافة هي جميع منظمات الحياة التي تكونت على مدى التاريخ بما في ذلك المنظمات الضمنية و الصريحة ، وهي توجد في أي وقت ، كموجهات لسلوك الناس عند الحاجة (بيلز ، 1984) .

أما رالف لنتون " Linton " فيرى أن الثقافة : " كل مركب يضم الاشغال البدوية ، والمعتقدات ، والفنون ، والمادات المكتسبة من الجماعة ، وكل ما ينتجه الانسان من الأشياء ، فكان الثقافة حزمة الاستجابات التكيفية للانسان ، فهي إذن مجموعة متشابهة من الوسائل التي تتخذ شكل الانماط ، وتختص بتلبية حاجات الحياة ، وهي أيضاً شبكة من الاهداف التي تقصدها منجزات الافراد والمجتمع (ناصر ، 1985) .

وعلى وجه المموم ، يلاحظ المتتبع لتعريف الثقافة ، ان هناك اتجاهين رئيسين ، يتنازعان هذا المسرح ، أحدهما ينظر للثقافة على انها تتكون من القيم والمعتقدات والمبادئ والتفسيرات الفعلية والرموز والايديولوجيات ، وما شابهها من المنهات الفعلية (Almond & Verba , 1963) . وثانيهما يرى ان الثقافة تشير الى النمط الكلي لحياة شعب ما ، والعلاقات الشخصية بين افراده وكذلك توجهاتهم (Benedict , 1934) .

وبدلاً من التمييز نحو تعريف دون الآخر ، يمكن الوصول الى درجة أوضح من طريق التمييز بين المفاهيم الثلاثة التالية التي تمثل الثقافة :

1. التحيزات الثقافية : وتشير الى القيم والمعتقدات المشتركة .

2. العلاقات الاجتماعية : وتعرف بأنها أنماط العلاقات الشخصية بين الأفراد.
3. أنماط وأساليب الحياة : تشير إلى التركيبة الحية من العلاقات الاجتماعية والتعزيزات الثقافية .

وفي فهم أنماط الحياة، لا تعطى أولوية للتعزيزات الثقافية على العلاقات الاجتماعية، أو العكس، وإنما كل منهما لا غنى له عن الآخر، فبين العلاقات والتعزيزات علاقة تبادلية، وكل منها تتفاعل مع الأخرى وتقويها، لأن الالتزام بأنماط معينة للعلاقات الاجتماعية، يولد طريقة متميزة في رؤية العالم، كما أن رؤية العالم بطريقة معينة تبرز نموذجاً منسجماً معها للعلاقات الاجتماعية (Rosenberg, 1968).

معنى الثقافة في التاريخ Culture in History

لا يمكننا أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة، فالامة التي تعقد ثقافتها، تفقد تاريخها حتماً، والثقافة بما تتضمنه من فكرة دينية انتظمت الملحة الإنسانية في جميع ادوارها منذ ولادة البشرية، لا يمكن ان تترك علماً يتعلمه الانسان، بل هي محيط يحيط بالانسان، واطار يتحرك داخله، انها الوسيط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتعاصر، وهي الوسيط الذي تتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعاً للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه، فالثقافة هي تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من مبادئ متجانسة، وعقريات متقاربة وتقاليد متكاملة، واذواق متناسبة، وعواطف متشابهة.

معنى الثقافة في التربية Culture in Education

الثقافة ليست علماً خاصاً لطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تنظيم الحياة العامة، بجميع ما فيها من مشروب التفكير والتنوع الاجتماعي، وخاصة اذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يفره الناس الى الرقي والتقدم، وهي كذلك الجايز الذي يحفظ بعضهم الآخر من السقوط من أعلى الجسر الى الهاوية.

وعليه فان الثقافة تشتمل في معناها المام على اطار حياة واحدة، وتهتم بكل طبقة من طبقات المجتمع بما يناسبها من وظيفة تقوم به لتصلها الى الوجود من شروط خاصة، وعلى ذلك فان الثقافة تتدخل في شؤون الفرد، وفي بناء المجتمع، وتعالج مشكلة القيادة كما تعالج مشكلة الجماهير وفي هذا المركب الاجتماعي للثقافة ينحصر برنامجها التربوي (بن نبي، 1989).

الثقافة والحضارة Culture and Civilization

هناك تداخل كبير بين مصطلحي الثقافة والحضارة، وإذا استعرضنا المعاني المختلفة لمصطلح الحضارة في العلوم الاجتماعية، فإنه يمكن تمييزها في مفهومين :
الأول : الحضارة هي شكل من أشكال الثقافة، وهنا يمكن التمييز بين ثلاثة أشكال ومعاني لمصطلح الحضارة :

1. استخدام كلمتي ثقافة وحضارة بمعنى واحد.
 2. الحضارة هي الثقافة عندما تتعقد وتتميز بخصائص معينة.
 3. الحضارة هي الثقافة إذا ما وصلت الى درجة واضحة من الرقي وامكن قياسها بمقاييس خاصة.
- الثاني: يقوم على مقابلة الحضارة بالثقافة، فالثقافة تنكش حين تصوير ممبرة عن مجرد تلك الافكار والابداعات الانسانية المتعلقة بالاساطير والدين والفن والادب، بينما الحضارة تدل على المبتدعات الانشائية المتعلقة بمجال العلوم المادية والتكنولوجيا (الفزوي، 1992).

وبشكل عام يمكن ان نحدد الفارق بين اللفظين على النحو التالي :

يمشي مفهوم " ثقافة " المحصلة الكلية للتراث الانساني والاجتماعي سواء كان هذا التراث ماديا أو غير مادي، بينما يستخدم مفهوم " حضارة " ليشير الى نسق خاص منظم من الثقافة يتميز بالشمول والاستمرارية. فالحضارة أكثر شمولية وعمومية من الثقافة (غيث وآخرون، 1988).

عناصر الثقافة Culture Elements

تقسم عناصر الثقافة الى قسمين رئيسيين هما :

- أ. العناصر المادية : وتشمل ما انتجه الانسان، ويمكن معرفته بالحواس.
- ب. العناصر المعنوية : وتشمل انماط السلوك والمعايير الاجتماعية والقيم والاعراف والمادات (الفزوي، 1992).

وقد حدد كل من بيلز وهو يجر المعاني التي يستخدم بها مصطلح الثقافة

بما يلي:

- الدلالة على اساليب الحياة المكتسبة والشائعة في وقت معين بين الجميع.

- للدلالة على أساليب الحياة الخاصة بمجموعة من المجتمعات التي يوجد بينها قدر من التفاعل.

- للدلالة على أساليب السلوك الخاصة بمجتمع معين.

- للدلالة على أساليب السلوك الخاصة بشريحة معينة داخل مجتمع كبير على درجة من التنظيم المعقد (بيلز ورهيقه، 1984).

وهناك من يرى ان الثقافة تتكون من ثلاثة مكونات رئيسية هي :

1 - المكونات المادية أو ما يسمى القطاع المادي للثقافة.

2 - المكونات الاجتماعية أو ما يسمى القطاع الاجتماعي للثقافة.

3 - المكونات الفكرية أو ما يسمى القطاع الفكري للثقافة.

أما المكونات المادية للثقافة، فهي ما يستعمله الإنسان في حياته اليومية، من أدوات وأثاث ومسكن وملبس ومباني، ووسائل نقل وما إلى ذلك. أما المكونات الاجتماعية للثقافة، وهي ما يطلق عليه اصطلاح البناء الاجتماعي، وهو يكل المجموعة الاجتماعية من الناس، المستمرة في الوجود لفترة كاهية من الزمن، وتتشأ بين أفرادها علاقات وتفاعل، وتظم اجتماعية تعمل ضمن طريقها مجموعة من السكان الى حالة التكامل والترابط اللازمة لتكوين المجتمع. أما المكونات الفكرية للثقافة، فتشمل العناصر والمركبات والنظم الثقافية التي يخلق عليها طابع الأفكار والمواظف، ويشتمل هذا القطاع على اللغة والفن والسعر والدين والعلم (ناصر، 1989).

أما رالف لنتون " Linton " فيذكر ان محتوى الثقافة يمكن تقسيمه الى ثلاثة اقسام هي :

1 - العموميات أو العالميات Universals

وهي المكونات الثقافية التي يشترك فيها جميع افراد المجتمع الناضجين، وتمثل

العالميات المعقدات والقيم التي يعتبر منها أحيانا بمصطلح جوهر الثقافة، والعالميات أو العموميات تبين في اعلى مستويات التحليل، انها تلك العناصر التي تميز فرداً من فئة معينة عن فرد من فئة أخرى، وتتكون العموميات من الأفكار والسلوكيات التي توجد بصفة عامة عند كل أعضاء المجتمع الواحد البالغين، وتكون مقايير

بواسطتها تقرر الجماعة المحلية ان كان الفرد يسلك سلوكاً طبيعياً ام لا. وقد سميت تلك العناصر بالعالميات لانها موجودة في معظم ثقافات العالم (ناصر، 1989).

وتؤدي العموميات الى وجود اهتمامات مشتركة بين افراد المجتمع، تعمل على تماسك الجماعة ووحدة اهدافها، كما تعمل على اكسابها الشعور بالانتماء والتضامن والتعاون، وتجنبها الصراع والتمزق. ان اشتراك افراد المجتمع في هذه العموميات، وبصفة خاصة في الجوانب الفكرية والايديولوجية، هو في اكتساب الافراد لروح الجماعة والعمل على بقائها (بقليس ومرعي، 1984).

2 - الخصوصيات Specialities

وهي عناصر الثقافة التي تشترك فيها مجموعة معينة من افراد المجتمع، بمعنى انها العناصر التي تحكم سلوك افراد معينين دون غيرهم من المجتمع. فهي المواد والتقاليد والادوار المختلفة المتصلة بمناشط اجتماعية حددها المجتمع في تقسيمه للعمل بين الافراد. وتشمل هذه الفئات الخصوصيات المهنية، والطبقية، والاعراقية والعنصرية (لنتون، 1964).

3 - البدائل Alternatives (البديل)

وهي العناصر الثقافية التي لا تنتمي الى العموميات، فلا تكون مشتركة بين جميع الافراد، ولا تنتمي الى الخصوصيات، فلا تكون مشتركة بين افراد فئة واحدة أو طبقة واحدة، ولكنها عناصر تظهر حديثاً، وتجرب لأول مرة في ثقافة المجتمع، وبذلك يمكن الاختيار من بينها كما انها تتمثل في انواع الاستجابات غير المألوفة بالنسبة لمواقف متشابهة أو وسائل مختلفة لتحقيق اهداف متشابهة (سرحان، 1973).

فالبديل اذن هي تلك الانواع من الانشطة التي يكون فيها للافراد المعينين اختيارات معينة، فالعموميات على سبيل المثال، تتطلب ان يكون هناك في المجتمعات الشرقية (واجا شرعياً بين الرجل والمرأة تحت رعاية القانون. اما كيفية الاحتفال بالزواج سواء في حفلة عامة أو خاصة فذلك متروك للفرد واختياراته أو حسب الطبقة التي ينتمي اليها (غيث وآخرون، 1988).

Culture Characteristics

خصائص الثقافة

تتميز الثقافة بمميزاتاً هامة للإنسان عن بقية المخلوقات، ولكنها تختلف من

شعب إلى شعب ومن أمة إلى أمة، وهكذا فإن لكل مجتمع بشري ثقافة خاصة به، ولكن تلك الثقافة ليست متطابقة، إذ إنها تختلف حتى بين الأفراد أنفسهم، ولكن هناك خصائص عامة توجد في كل ثقافة من الثقافات (عاطف، 1975).

ومن خصائص الثقافة أنها :

1. **إنسانية** : فهي ظاهرة تخص الإنسان فقط، لأنها عبارة عن نتاج عقلي، والإنسان يمتاز عن باقي المخلوقات بقدراته العقلية وإمكاناته الإبداعية، ولا يشارك الإنسان بهذه الظاهرة أية مخلوقات أخرى.
2. **مكتسبة** : الثقافة لا يرثها الإنسان، كما يرث لون عينيه أو بشرته بل يكتسبها بطرق متنوعة أو عرضية عن طريق التعلم، والتفاعل مع الأفراد الذين يعيش معهم، كأسرته وأقرانه.
3. **تطورية** : أي أن الثقافة لا تثبت على حالها، بل إنها تتطور نحو الأحسن والأفضل، ولكن التطور لا يتم غالباً في جوهر الثقافة، بل في الممارسة والطريقة العملية، ويكون ذلك نتيجة لحاجات الإنسان الذي يعيش في المجتمعات الحديثة.
4. **كاملة** : أي أنها تشبع الحاجات الإنسانية، وترى النفس البشرية لأنها تجمع بين العناصر المادية والمعنوية، وتجمع بين المسائل المتصلة بحاجات الجسد، والمسائل المتصلة بالروح والفكر كالمقيدة الدينية أو النظرية السياسية (ناصر، 1988).
5. **استمرارية** : فهي ظاهرة تتبع من وجود الجماعة، ورضاهم عنها، وتمسكهم بها، ونقلها إلى الأجيال اللاحقة، فهي بذلك ليست ملكاً لفرد معين، وإنما هي ملك جماعي وتراث يرثه جميع أفراد المجتمع الذي يمثل هذه الثقافة، ولا تفنى هذه الثقافة إلا إذا انقضى المجتمع الذي يمارسها لأي سبب كان.
6. **واقعية** : اعتبر كثير من العلماء الظواهر الثقافية كالظواهر الاجتماعية، وبالتالي فإنه ينبغي النظر إليها كأشياء واقعية مستقلة، لا تتعلق بوجود أفراد معينين، وبناء عليه يمكن دراستها كأشياء مدركة موضوعياً، وتأثير الظواهر الثقافية ببعضها البعض، كما تؤثر في السلوك الاجتماعي للأفراد في المجتمع، وتخضع لقواعد اجتماعية.
7. **القابلة** : أي أنها قابلة للانتقال من جيل الكبار إلى جيل الصغار بواسطة عملية.

التكيف أو التنشئة الاجتماعية، ولذا فهي قابلة للانتشار بين الأمم والأجناس المختلفة، وذلك لسهولة أساليب الاتصال الحديثة في المجتمعات المتقدمة.

8. **هوية** : بما أن الثقافة تحدد أسلوب الأفراد وسلوكياتهم في المجتمع، فإنه بالإمكان التنبؤ بما يمكن أن يتصرف به فرد معين ينتمي إلى ثقافة معينة، لأن ثقافته تحتم عليه أسلوباً معيناً تجاه كل مشكلة من المشاكل التي تقابله في حياته اليومية، وهي بالتالي تحدد التصرف الفردي والجماعي في إطار ثقافي محدد، ويخطة يحملها الفرد معه، وبها يحدد مسيرته في حياته العامة.

9. **تراكمية** : وهذا يعني أن الثقافة ذات طابع تاريخي تراكمي عبر الزمن، فهي تنتقل من جيل إلى الجيل الذي يليه، بحيث يبدأ الجيل التالي من حيث انتهى الجيل الذي قبله، وهذا يساعد على ظهور أنساق وأنماط ثقافية جديدة (الفزوي وآخرون، 1992).

وظائف الثقافة

الإنسان يكيف الطبيعة ويتكيف معها، يغيرها ويتغير معها، وهذا يعني أن الثقافة هي أدوات في عملية التواصل والتكيف في الحياة، ومن أهم وظائف الثقافة :

1. تمديد الأفراد بمجموعة من الأنماط السلوكية لتحقيق حاجاتهم البيولوجية وضمان استقرارهم.

2. تتيح للأفراد التعاون من خلال مجموعة من القوانين والنظم.

3. تساعد الأفراد على تحقيق التكيف والتفاعل وتحقيق لهم الوحدة الثقافية والتجانس.

4. تؤدي إلى ظهور حاجات جديدة وتبني وسائل إشباع هذه الاحتياجات كالاتجاهات الثقافية والجمالية والدينية.

5. تمكن الإنسان من التنبؤ بالأحداث المتوقعة والمواقف الاجتماعية المحتملة، ومن التنبؤ بسلوك الآخرين في مواقف محددة (الراشدان، 1985).

ويقول مالبوزوكي في هذا الصدد : أن الثقافة تلبي نظاماً متكاملًا من الاحتياجات

الإنسانية البيولوجية والروحية، وتضمن له طعاماً وظيفياً يسمى إلى عملية الإنسان

من المخاطر والكوارث الطبيعية والبيئية. والثقافة هي أداة الإنسان في حل مشكلاته

الحية والخاصة التي يواجهها في إطار البيئة وبالتالي فإن لكل عنصر من عناصرها

غاية ووظيفة محددة (زحلق ووظيفة، 1995).

التغير الثقافي

مقدمة

التغير حقيقة موجود، فضلاً عن أنه ظاهرة عامة وخاصية أساسية تتميز بها نشاطات ووقائع الحياة الاجتماعية، بل أنه ضرورة حيوية لكافة المجتمعات البشرية، فهو سبيل بقائها ونموها، فبالتغير تستطيع التكيف مع واقعها، وبالتغير يتحقق التوازن والاستقرار في أبنيتها وأنشطتها، وعن طريق التغير تتمكن الجماعات من مواجهة متطلبات أفرادها وحاجاتهم المتجددة (الششاب، 1971).

والتغير هو مقياس حقيقة الوجود وطاقته، ذلك أن التغير موجود في كل مكان. والفوانين التي يعنى بها رجال العلم قوانين حركة وتوالد وتنازل. وترمي جهود هؤلاء العلماء الى معرفة ما بين التغيرات من ترابط وعلاقات والكشف عن مصادر التغير، ووسائل توجيهه، وقوانين تنظيمه وضبطه، لادراكهم أن أي تغير يحدث في أي جانب من جوانب الحياة، يتطلب حدوث تغيرات في الجوانب الأخرى، ذلك أن الباحث لم يمد يحاول اليوم أن يعرف ويحدد شيئاً ثابتاً وسط التغير الذي يحدث، بل يحاول أن يصف لنا نظاماً متسقاً للتغير المستمر، ويبرز عوامل جديدة، تزيد هذا التغير ديمماً، ويدعو الناس الى التفكير فيه لمواجهة على أساس من البصيرة والذكاء (المفيهي، 1975).

وقد استرعت ظاهرة التغير انتباه هيراقليطس حيثما أشار الى الحقيقة التي مفادها أن الإنسان لا يستطيع أن ينزل الى النهر مرتين، ويجد الماء نفسه جاريًا فيه، إذ أن ينزوله للنهر في المرة الثانية، لا يجد التيار المائي نفسه، الذي كان فيه عند نزوله في المرة الأولى (الزعيبي، 1979، 35).

مفهوم التغير الثقافي Cultural change

يرى كيسينج (Kessing) أن الثقافة هي: "مجموعة السلوك المكتسب الذي يتم تناقله اجتماعياً"، وعلى ذلك فهي تضم العديد من العناصر، ويعد أي تغير يطرأ على أي عنصر من التكوينات للمادة والمعنوية والاجتماعية تغيراً ثقافياً، وعلى هذا فإن التغير الثقافي يعني أي تغير يمكن أن يؤثر في مضمون أو بناء ثقافة معينة، ويعتمد هذا النوع من التغير على الانتشار، أو الاختراع، أو القدرة على الابتداع الثقافي. وتعريف الطريقة التي يتم بها التغير الثقافي باسم العملية الثقافية.

أما ملينوفسكي، فيعرف التغير الثقافي " بأنه العملية التي يتحول بمقتضاها ودرجة متفاوتة من السرعة، النظام القائم في المجتمع وتنظيمه ومعتقداته وممارسه، وأدوات العمل فيه وأهداف المستهلكين ". ويتضمن التغير الثقافي مجموعة من المفاهيم التي تدل عليه، ومنها الثقافة، والتفكير، والانحراف، والتطور، والتغير التدريجي، والابتداع، والتكامل، والنقل، وإمادة الأحياء، وإعادة التفسير، وما إلى ذلك، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن التغير في حقيقته ظاهرة ثقافية عامة، تشكل عملياته عبر الزمن ديناميات الثقافة (الفريجي، 1983).

التغير الاجتماعي والتغير الثقافي Cultural & Social Change.

يعني التغير الاختلاف، ما بين الحالة الجديدة والحالة القديمة، أو اختلاف الشيء عما كان عليه في خلال فترة محددة من الزمن، وحينما تضاف كلمة الاجتماعي، فهي تعني ما يتماق بالمجتمع في الوظائف والقيم والأدوار الاجتماعية خلال فترة محددة من الزمن، وقد يكون هذا التغير إيجابياً أي تقدماً، وقد يكون سلبياً أي تخلفاً، أي أنه لا يوجد اتجاه محدد للتغير (البكر، 1987).

أما التغير في المهام الخاصة بالأجهزة الاجتماعية، فيشير إلى تلك التغيرات الخاصة بوظائف العناصر المكونة لهذه الأجهزة مثل دور العبادة والأسرة والتعليم والصناعة والمؤسسات السياسية والاقتصادية والقانونية والإعلامية وغيرها، وعليه فالتغير الاجتماعي، هو ذلك التحول الذي يقع في البناء الاجتماعي من حيث القيم والمظاهر والانتاج الثقافي المبتدع والمادي (جامع، 1972).

وتجدر الإشارة إلى أن التغير الثقافي أعم وأشمل من التغير الاجتماعي الذي يشير إلى التحولات على النظم الاجتماعية والوظائف التي تقوم بها، وتزداد الصورة وضوحاً في عملية التغير الثقافي عندما نعرف مكونات الثقافة، فهي كما يرى " تايلور " في تعريفه التقليدي لها، تعني ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والقيم والأخلاق، والقانون والعرف وكل المقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع (أبو زيد، 1966).

وعلى ذلك يعد التغير الاجتماعي جزءاً من التغير الثقافي أو جانباً منه فمعنى

(حسن، 1969).

التباين الثقافي Cultural Differentiation

إن دراسة الثقافة، مهما كان تعريفها، تبرز بذاتها حقيقة تفرد ما، فالثقافات بهذا التصور تتنوع بتنوع الأمم، الجماعات العرقية، الشركات والنسب، وسائر التجمعات الأخرى بين الناس، التي تفكر بطريقة مختلفة ولو قليلاً عن غيرها، وتستخدم رموزاً متباينة، التي حد بها، أو التي تعبر عن ممارساتهم وسمائهم المعتادة عن شيء ما خاص بهم. فالثقافة الفرنسية مختلفة عن الثقافة البريطانية وعن الثقافة الأمريكية، وكل من يعمى إلى تصنيف الثقافات أو بمهارة أقل فلو حيا، إن يصوغ تعميمات كلية حول السلوك الإنساني، ممرض لمجابهة أولئك الذين يتمسكون بالخصوصية الكامنة في المجتمعات والتظيمات المختلفة.

ولواجهة ذلك، نوضح أنه بالرغم من أن للأمم وجماعات الجيرة والقبائل والاجناس، أنظمة متميزة من القيم والمعتقدات والمادات، فإنه من الممكن حصر قناعاتهم حول الحياة في عدد قليل من التعيزات الثقافية (تومبسون وآخرون، 1990).

التحدي الثقافي Cultural Challenge

يفترض التحدي وجود طرفين يحاول أحدهما أن يلغي وجود وهوية الطرف الآخر، أي أن يلغي هويته الاجتماعية وهويته الثقافية، لأن جوهر التحدي هو النفسي. وما دام الأمر كذلك، فالتحدي الثقافي يضع الأنا الاجتماعية، ومضمونها الثقافي أو الأنا الثقافية في مواجهة الأنا الاجتماعية والثقافية.

ومواقع التحدي الثقافي كثيرة منها الحروب القديمة والحديثة سواء أكانت حروباً دينية أم قومية أم اقتصادية، أم حروباً استعمارية.

ولما كانت المجتمعات تتنافس فإن التحدي المباشر يكون في مجال الثقافة، وقد تستخدم المجتمعات المتدنية، أو ذات الثقافة السائدة الجانب المادي من ثقافتها مثل أدوات الحرب، وتوظيف اقتصادها، ووسائل إعلامها لاختصاص أصحاب الثقافات الأخرى وبذلك تصبح مجالاً للجوانب المادية لثقافتها بالسيادة (عثمان وآخرون، 1992).

عوامل التغير الثقافي

التغير الثقافي ظاهراً اجتماعية، لا تخلو منها أية جماعة بشرية ويرتبط حدوثه بعدد من المتغيرات والعوامل، والتي يعتبر من أبرزها:

1. ديناميات الاجيال Generations Dynamics

يرى بعض الباحثين ان بعض التغير الثقافي يظراً بفعل ديناميات الجماعات العمرية المختلفة، التي تقوم بدعم وخلق وابتداع اساليب حياة جديدة نتيجة لاتصالها الاحداث دائماً بثقافة المجتمع الغالبة.

ويرى كارل مانهايم (K. Mannheim)، ان المحدثين تنقصهم الخبرة والتجارب الاجتماعية ومعرفة الاحداث التاريخية وغيرها مما يعيه الافراد الاكبر سناً، وبسبب هذا النقص في الخبرات، يستقبل المحدثون العالم بطرق جديدة، ويتبدسون بدائل ثقافية فريدة، واساليب حياة جديدة، تختلف عن نظائرها في الثقافة السائدة.

2. التعليم Teaching

يعد التعليم من العوامل التي تهمل باحداث التغير الثقافي، وذلك بما تتضمنه العملية التعليمية من اكساب العقل مهارات فكرية، وتنمية قدراته الابداعية وملكاته الذهنية. علاوة على المواد الدراسية التي تقدم له خبرات الآخرين وتجاربهم، فيكون قادراً على التخلص من السمات والعناصر الثقافية التي تمرقل التقدم، ويدعم السمات والعناصر التي تحفز النهوض والازدهار. وقد ادى التعليم ولا زال الى تغير ثقافي واضح القسمات في مجتمعات العالم بأسره.

3. التكنولوجيا Technology

تلعب التكنولوجيا دوراً بارزاً في احداث التغير الثقافي بما تسهم به من وسائل لتيسير الاتصال بين المجتمعات، وتخطي العواجز التقليدية وغيرها، فقد ساعدت التكنولوجيا في معظم مجتمعات العالم، على القضاء على ظاهرة الغزلة الثقافية، وصار العالم كله قرية صغيرة، كما دخلت التكنولوجيا في مجال التعليم، والطب، والزراعة، والصناعة، والاعلام، والترويج، والمتقدمات، والحياة المنزلية بكافة جوانبها.

4. وسائل الاعلام Media

من الملاحظ في حياتنا الماصرة، ان دور وسائل الاعلام بدأ يتعاظم، مما ترتب على ذلك جوانب تلمسها وتلمس آثارها في مجال المنزل، والبيت، والشارع، ومكان الترويج، وفي ضوء تعاظم هذا الدور، يذهب البعض الى ان التغير الثقافي ما هو الا

لمرة من ثمرات وسائل الاعلام، وان ذل ذلك على شيء فانما يدل على خطورة الدور الذي تلعبه هذه الوسائل بمختلف انواعها.

5. الانفتاح على العالم Openness

سبق الاشارة الى ان العزلة لم يمد لها وجود في مجتمعات اليوم، حيث عزت وسائل الاعلام والاتصال الافراد بمختلف مستوياتهم في عقر دارهم. ولم يمد هناك من يستطيع الخلاص من احبالها، أو يقدر على الفكك منها ومن صور الانفتاح الهجرة المؤقتة الى المدن المجاورة، أو المدن البعيدة، أو الدول المجاورة أو الدول البعيدة، كل ذلك يثرثب عليه التعرف على عناصر ثقافية جديدة، ونظرات وخبرات جديدة، وطرائق حياتية تخالف ما ألفوه في مجتمعاتهم التي نشأوا فيها.

مواقف التغيير الثقافي

يمكن النظر الى كل مجتمع على انه عرضة لتوهمين من القوى، قوى تعزز حدوث التغيير، وقوى تمركله وتحد من فاعليته، اما ابرز الحواجز التي تبيق التغير الثقافي فيمكن ايجازها على النحو التالي :

1. نوعية التراث وقيمه

تضفي بعض الثقافات أهمية كبرى على قيمة الابتكار والتغير، ولذلك فهي ترى في الشيء الجديد مبرراً كافياً لفحصه وتطبيقه. ويمارس التراث في مجتمعات أخرى سلطة كبيرة على الاخذ بالجديد واحداث التغيير. وتلمب الامثال الشعبية دوراً بارزاً في التثيت الاثوجرافي، وبالتالي في المعولة دون حدوث التغير الثقافي السريع (الخريجي، 1983).

2. التواكل

ترتبط اتجاهات التواكل ارتباطاً وثيقاً بقوى التراث السائدة. ففي المجتمعات غير الصناعية على سبيل المثال، التي لم تحقق السيطرة الكاملة على قوى الطبيعة، ينسب الجفاف والفيضانات الى القوة فوق الطبيعية التي يزود الانسان بمواد حياته. أو ارواحاً شريرة (Foster, 1973)

3. معايير التواضع السائدة

غالباً ما توجد عوائق تمرقل التغير الثقافي الموجه ويقصد بهذا النوع من

المواثيق الملائمة بين الرجل والمرأة، وتظهر هذه الملائمة واضحة في حملات الصحة العامة بين الطبيب والنسوة، التي كانت تهدف إلى الاهتمام بالعوامل للتقليل من معدل وفيات الأطفال، والملاحظ في بعض البلاد النامية، أن المرأة الحامل كانت تفضل تجنب الرعاية الطبية خشية أن يفحصها الطبيب، ولذلك كان الزوج هو حلقة الاتصال بين الطرفين.

4. تضارب السمات الثقافية

من المعروف أن هناك عناصر ثقافية يسود بينها الانسجام المنطقي، في حين توجد أخرى تتطوي على تضارب بين بعضها البعض، ويؤدي هذا التضارب وعدم الاتساق إلى الحيلولة دون حدوث التغير الثقافي، ففي المجتمعات التقليدية إذا مرض شخص له مركز اجتماعي مرموق وهيبة كبيرة، وكان مستقيماً، قيل بأن المرض ابتلاء من الله. وأن الابتلاء لا يكون إلا للصالحين، وإذا مرض شخص مشاكس لا يحظى بالهيبة الاجتماعية، قيل أن مرضه عقاب صارم أنزله الله تعالى به، وهذا نلاحظ التضارب في تفسير المرض نفسه في نفس المجتمع.

5. النتائج غير المتوقعة للتجديد

لا يمكن أن يحدث تغير في حالة متغيزة وبلا نتائج أولية أو ثانوية، على نطاق واسع في المجتمع المتغير، أنه هنا مثل حجر تلقيه في الماء فيحدث حلقات أخذة في الاتساع إلى أن يفقد تأثيره قوة الدفع، كذلك الحال بالنسبة للتجديد، حيث يترتب عليه تأثيرات دائرية في الثقافة، تظل تتسع استدارتها إلى أن ينتهي مفعوله في المناطق التي تبعد عن مرمى هذا التأثير، ورغم أن التغيرات الثقافية تتطوي على أهمية كبيرة وفائدة اجتماعية، إلا أنها تكون مصحوبة أحياناً بنتائج غير مرغوبة من قبل أعضاء المجتمع نفسه.

6. المعتقدات السلبية

توجد صور عديدة من هذه المعتقدات التي تمرقل التغير على وجه العموم، فهي زامبيا على سبيل المثال، جالت المعتقدات هناك دون حدوث تغير يذكر في المجال الصحي والتعليم الغذائي، بسبب أحجام المرأة من تناول البيض لاعتقادها بأنه يقتل من الخضوبة (الخريجى، 1983).

الفصل السادس عشر

الدراسات عبر الحضارية في مجال التنشئة الاجتماعية

يهتم هذا الفصل بالبحوث الخاصة بالتنشئة في الحضارات المختلفة كالتي أجراها اليسون دافيز ، وأريكسون ، ولين ، وجوردون ، وحامد عمار ، وعماذ الدين إسماعيل ، ويوسف عبد الفتاح ، والمؤلف . وفيما يلي عرض لكل دراسة من هذه الدراسات .

(١) دراسة اليسون دافيز عن العلاقة بين الطبقة الاقتصادية الاجتماعية والتشئة الاجتماعية : وهذه الدراسة من أهم الدراسات التي قام بها اليسون دافيز والتي تبين العلاقة بين الطبقة الاجتماعية الاقتصادية والتشئة الاجتماعية للطفل . ويقول دافيز Davis : إنه من خلال الكثير من الدراسات الواقعية والبحوث الميدانية والتي أجريت في نيو إنجلاند New England نرى أن هناك علاقة وثيقة بين الطبقة التي ينشأ فيها الطفل وطرق التدريب التي تتميز بها هذه الطبقة الاجتماعية الاقتصادية . فأطفال الطبقة المتوسطة إذا قارناهم بأطفال الطبقة الدنيا نجد أنها (أي المتوسطة) تطبق على أطفالها نظاماً قاسياً ، مع التركيز على التوضحية بالأهداف المأجلة في سبيل الأهداف

الأجلة والبعيدة، كما يتميز أفراد هذه الطبقة بخاصية على جانب كبير من الأهمية، وهي الخوف من أن يفقوا فريسة الحرمان الذي يحيط بالطبقات الدنيا، وفي نفس الوقت فإنهم يطمحون الوصول لما وصلت إليه الطبقة العليا (٤٢).

(٢) دراسة أريكسون عن التدريب على التنشئة الاجتماعية لدى أبناء الطبقات المختلفة : حيث تزيد هذه الدراسة ما توصل إليه أليسون دافيز . فقد قام بإجراء دراسة تتبعية لـ ٢٧٤ مائتين وأربعة وسبعين طفلاً، بينهم ١٠٧ من أطفال الطبقة المتوسطة، و ١٦٧ طفلاً من أطفال الطبقة الدنيا، فوجد أن التدريب الذي خضع له أبناء الطبقة المتوسطة يتميز بما يأتي :

- ١ - النظام المبكر .
- ٢ - تدريب مبكر على طرق النظافة .
- ٣ - اتباع نظام قاس خاص بطرق التغذية .
- ٤ - القيام بمسؤوليات في أعمال المنزل (١٤٣).

(٣) دراسة أليسون دافيز Allison Davis عن نظم المكافاة في أمريكا وتنشئة الطفل (١٩٤١) : وكان هدفها توجيه الاهتمام نحو أهمية كل من العمر والجنس والأهداف التطبيقية في عملية التنشئة الاجتماعية في المجتمع الأمريكي . ويقول دافيز : إنه فيما يتعلق بالدور الذي يقوم به كل عمر فإنه من الشائع أن نلاحظ علاقته باللون في الجنوب، أو بين الأفراد في الطبقة المنخفضة أو الطبقة المرتفعة من نفس اللون، فالخدم البيض على سبيل المثال، مثل كل الزوج ينادى عليهم بأول اسم من أسمائهم من جانب أفراد الطبقة المرتفعة البيض . بل زيادة على ذلك فإن الرجل الزنوجي ينادى عليه بكلمة «ولد» Boy ، والمرأة الزنوجية ينادى عليها بكلمة «بنت» Girl من جانب البيض . وفيما يتعلق بدور الجنس، فإن الذكر يسند إليه الدور الذي لا تقوى على القيام به الأنثى، فدور الذكر أساسي، أما دور الأنثى ثانوي . وكما هو الحال في الطبقات الاجتماعية المنخفضة يسمع دور المرأة لها أن توجه درجات معينة من المدوان والاحتجاج ضد الطبقات العالية . وفيما

يتعلق بالسلوك الجنسي المناسب وغير المناسب فإن الشواهد الاكلينيكية والدراسات على الطفل تذهب إلى أن تقليد الطفل لدور الجنس يرتبط بما يلي:

- (١) التدريب التناسلي المبكر (من خلال الكلام المتعلق بذلك) .
- (٢) التعليم الخارجي لأصول عملية الزواج وتكون الأسرة .
- (٣) القوة النسبية لتقمص الوالدين سواء أكانت من نفس الجنس أم الجنس المغاير .

وأنه لمن المؤكد أن تدريب الطفل في الطبقة المتوسطة على النواحي الجنسية ما زال شيئاً محرماً، ويبدو أن درجة الشدة في ضبط الوالدين للنواحي الجنسية يحدد جزئياً توافق الطفل الجنسي . وأن أنواع عقاب الطفل على النواحي الجنسية يكون عميقاً في الأمور التي تجبر الطفل على القيام بالدور الجنسي المناسب في وقت مبكر وقيامه به كاملاً . ويقول دافيز : إن السلوك المقبول بالنسبة للممر والجنس في مجتمعنا يختلف على حسب الطبقة الاجتماعية . ففي الطبقة المنخفضة في المسيسيبي يختلف البيض والزنج في مرحلة قبل المراهقة ، فنجد النساء يأكلن ويشربن ويسب بعضهن بعضاً على الملأ دون أن يعاقبن من أسرهن أو المجموعة التي ينتمين إليها . وكذلك الأمر فإن أهداف ومطامح أفراد الطبقة المتوسطة تختلف عن مطامح وأهداف أفراد الطبقة المنخفضة (١٤٤) .

(٤) دراسة لين، وجوردون عن اتجاهات الأمهات نحو التنشئة الاجتماعية للطفل : تعتبر الدراسات الخاصة بالفروق بين الطبقات المصدر الذي يمدنا بالكثير من المتغيرات المؤثرة في عملية التنشئة الاجتماعية . ومن الممكن القول : إن عملية التنشئة الاجتماعية ترجع جزئياً للموامل الجبلية الموروثة ، وجزئياً للضغوط البيئية . وأن الأوجه العامة لعملية التنشئة في الطبقات الاجتماعية هي أن الطبقة المتوسطة تميل إلى تنشئة أطفالها تنشئة سليمة عن الطبقة العاملة ، ويتضح ذلك في كل من الولايات

المتحدة وفي إنجلترا . وأن النتائج التي توصل لها الأمريكيان في هذا المضمار هامة ، وبمفصلا كلوزن Clausen ١٩٥٧ في أن طريقة الطبقة المنخفضة في الحياة هو تشجيع الإشباع البدني ، والتعبير الحر عن العدوان ، والمشاركة في الاتفاق لدى أبنائهم ، وأما النظافة واحترام الملكية والضغط الاجتماعي ، والجنس والتعليم والتحصيل وكل القيم التي تلتزم بها الطبقة المتوسطة فهي أقل أهمية بالنسبة للطبقة المنخفضة . هذا على الرغم من أن القليل من البحوث التي عملت في إنجلترا فيما يختص بذلك قد وجدت نفس الفروق ، كما وجد الجناح Delinquency في الطبقة العاملة (بيرت ١٩٣٥) ، فضلاً عن أن هذه الطبقة أقل طموحاً في التعليم (Floud, Halsey and Martin 1956) .

ولقد قامت عدة بحوث بمحاولة لربط الفروق الطبقة في التشئة الاجتماعية بفروق في تدرجات الطفل . ولقد قام بهذه الدراسات حديثاً بروفنبرنر Brofenbrenner الذي ذهب إلى القول بأن الوالدين في الطبقة المتوسطة يميلان إلى أن يستخدموا أقل حد من العقاب البدني ، ويميلان إلى استخدام التهديد بفقد الحب والاشعار بالذنب ، وقدم بروفنبرنر الدليل على أن طريقة الطبقة المتوسطة في التشئة أكثر فاعلية .

ولعل أدل البحوث على ذلك هو الذي قام به سيرز ، وماكويي ، وليفين Sears and Maccoby and Levin عام ١٩٥٧ . ولقد وجد في هذه الدراسة بعضين مرتبطين من أبعاد اتجاهات الأم نحو العدوان وهما العقاب Punishment ، والتسامح Permissiveness . ويبدو أن حامل العقاب حامل حقيقي ، فلقد وجد أن عقاب الأمهات لعدوان أبنائهن وما يقمن به من أعمال تشير لذلك ، فيرتبط العقاب ارتباطاً موجباً بكمية العدوان التي يظهرها الطفل . وأن الأنهات في الطبقة العاملة يستخدم من العقاب بقدر أكبر لدرجة أن هذه الفروق في طرق تربية الطفل لها علاقة بالفروق في التشئة . ومن ناحية أخرى ، فلقد وجد أن التسامح غير مناسب ، وذلك لأن تسامح الأمهات قد ارتبط ارتباطاً موجباً مع عدوان الطفل ، وبالتالي فإنه من الممكن توقع أن أمهات الطبقة المنخفضة أكثر تسامحاً من أمهات الطبقة المتوسطة . وفي

الحقيقة وجد أن العكس هو الذي يحدث . وأن الفروق الطبقة في التسامح تلقى بعض الشك على نتائج سيرز وزملائه ، وقد تأيد بفشل لين Lynn (١٩٦١) في تأكيد النتائج على الأسر الإنجليزية . ويجب أن نلاحظ أن هيئة سيرز عندما انقسمت لجماعات قومية ، فإن أمهات الطبقة المتوسطة البريطانية ظهروا على أنهم أقل تسامحاً من أمهات الطبقة العاملة وهذه هي بالطبع النتيجة المتوقعة من افتراض أن التسامح يشجع على العدوان ، وإذا تأكد فإنه يؤيد الفرض أو النظرية . ولهذا يتم القيام بالبحث الحالي لتوضيح الفروق الطبقة في اتجاهات الأم نحو تدريب الطفل .

العينة : تتكون العينة من ٤٨ أمًا ، منهن ٢١ من الطبقة المتوسطة ، ٢٧ من الطبقة العاملة ، وتم الحصول عليهن من قريتين في ديفون Devon . وقد اتضحت فيهن الفروق الطبقة على النحو الذي ذكره سيرز . ولكن لا احتمال أن يكون هناك تحيز في العينة عمل بحث آخر في مدينة أكستر Exeter . ولقد أجريت المقابلات لأفراد الطبقتين المتوسطة ، والمنخفضة بواسطة القائمين بالمقابلة في المنازل . ولقد طلب من كل أمهات الأطفال والأبناء الذين تبلغ أعمارهم من ١٤ - ١٨ إكمال استبيان لقياس اتجاهاتهم نحو تدريب الطفل . وبهذه الطريقة فإن أكثر من ٢٢ أمًا بالطبقة المتوسطة ، ٢٤ أمًا بالطبقة العاملة تم الحصول عليهن لتطبيق الاستبيان ، وأن الأسلوب في اختيار هذه العينة هو نفسه الأسلوب الذي تم مع الأمهات في قرية ديفون . وبعد ذلك تم اختيار العينتين (ديفون - أكستر) . وقد قسمت عينة الأمهات لمجموعتين طبقة متوسطة ، وطبقة منخفضة على أساس مهنة الزوج .

الأداة : يتكون المقياس المستخدم من خمسة موازين قام بتقنينها سيرز وزملاؤه . والميزان على شكل علامات تقدرها الأم عن سلوك طفلها البالغ من العمر خمس سنوات ، وعن طريقها في معاملته . فمثلاً كان أول سؤال عن عقاب العدوان عبارة عن : «أمس قلب مارك عن عمد هلبة الحساء (الشوربة) على الأرض ، وقررت أن أحسن طريقة للتصرف منه هي عدم قيامه بالنزعة في الحديقة بعد الظهور . وعلى الأم أن تقرأ براءة هذه العبارة وتضع علامة على

ميزان مكون من خمس درجات يعكس اتجاهها ابتداء من الموافقة إلى شدة المعارضة على ذلك كما في الشكل رقم (٨).

شكل رقم (٨)



ولقد استخدمت في هذه الدراسة ثلاثة موازين من التي أعدها سيرز وهي عقاب المدوان، والتسامح عند الخروج على الأدب والدوق، والتسامح عن المدوان.

النتائج: يتبين في الجدول (٥٠) التالي متوسط درجات الأهمية في المهنيين المتوسطة والعامة، والعينة الأمريكية التي اختبرها سيرز وضمت من أجل المقارنة:

جدول رقم (٥٠) يبين متوسط درجات الأهمية.

٢		التسامح عند الخروج على الأدب		عقاب المدوان		التسامح للمدوان	
		٢	٣	٢	٣	٢	٣
١	الطبقة المتوسطة البريطانية	٤٨,٥٦	٧,٤٦	٤٢,٤٤	٨,٦٣	٥٣,١٣	٦,٥٩
٢	الطبقة العاملة البريطانية	٤٠,٨٨	٧,٩٩	٤٦,٦٧	٦,٩٨	٤٩,٦١	٨,٧٨
٣	مجموع الطبقتين البريطانيتين	٤٤,٥٥	٨,٦٦	٤٤,٦٥	٨,٠٧	٥١,٣٠	٨,٠٠
٤	مجموع الطبقات الأمريكية	٤٥,٦٥	٧,٠٧	٤١,٩٠	٧,٣١	٦٠,١٣	١٠,٥٧

ولقد وجد أن كل الفروق في المتوسطات بين الطبقات الاجتماعية في بريطانيا دالة إحصائياً عند مستوى ٠,٠٥ باستخدام اختبار t . كما أن المجموعتين الكلبيتين البريطانيتين والأمريكية تختلفان اختلافاً دالاً عند مستوى ٠,٠٥ على مقياس التسامح عن العدوان عند الخروج عن الأدب والتسامح عن العدوان، أما بالنسبة لمقياس عقاب العدوان فإنهما تختلفان اختلافاً دالاً عند مستوى ٠,٠١.

مناقشة النتائج : نجد في النتائج السابقة ما يلي :

(١) في إنجلترا كما في أمريكا أمهات الطبقة الوسطى أقل عقاباً لابنائهن من أمهات الطبقة العاملة . وهذه النتيجة تؤكد نظرية وجود علاقة بين عقاب الأم وعدوان الطفل .

(٢) أمهات الطبقة الوسطى البريطانية كأمهات الطبقة الوسطى الأمريكية ، في أنهن أكثر تسامحاً إزاء السلوك العدواني وهذه النتيجة تلقي شكوكاً على ما وجد سيرز عن العلاقة بين تسامح الأم وعدوان الطفل .

(٣) تميل الأمهات البريطانيات إلى أن يكن أقل تسامحاً وأقل عقاباً من الأمهات الأمريكيات . والاعتقاد أن العقاب أهم عامل فإنه من المتوقع من هذه النتيجة أن يكون الإنجليز أكثر عدواناً من الأمريكيان (١٤٥) .

(٥) دراسة أليسون داليز وروبرت هافيجهيرست عن الفروق في اللون وفي الطبقة الاجتماعية وعلاقتهما بتدريب وتنشئة الطفل الأمريكي :

الهدف : يكمن الهدف الرئيسي لهذه الدراسة في معرفة الفروق الثقافية فيما يتعلق بتدريب الأطفال الذين ينتمون لمائلات ذوي المكانة الاجتماعية والثقافية المختلفة . ولقد قامت الدراسات الكثيرة التي تهتم بتأثير الطبقات الاجتماعية على نظام التعليم في الولايات المتحدة بل على ما يتعلمه الطفل . أما فيما يتعلق بعملية التعليم وعمليات التنشئة الاجتماعية فإن الفهم التفصيلي للطبقة الاجتماعية الأمريكية ولأنماط الدوافع ضروري الآن لنواحي البحث والملاج . وهدفنا في هذا البحث هو تحديد إلى أي حد يختلف طرق

Methods، وتوقيت Timing، ودرجة التقدم لعمليات التدريب المبكرة في الطبقات الاجتماعية المختلفة. كما أننا سنحاول عمل نفس المقارنات بالنسبة لمتطلبات التدريب في الطفولة المتوسطة (ملحوظة: سيقصر عرض النتائج على الفروق الطبقية). والأسئلة التي يحاول هذا البحث الإجابة عنها هي:

- (١) ما متطلبات التدريب الخاصة بالأطفال البيض أو الزنوج في الطبقتين المنخفضة والمتوسطة في شيكاغو؟
- (٢) ما مدى الاختلاف في زمن البداية وطول التدريب وأي ظروف أخرى تحيط به؟

المينة: تم إجراء مقابلة مع أمهات الأطفال الصغار وتسجيل استجاباتهم كما تم عمل التحليلات الإحصائية لنتائج تلك المقابلات. وكل الأمهات من مدينة شيكاغو ويمشن في جنوبها. وكانت كل مجموعة من مجموعات الدراسة الأربع (بيض مجموعة من طبقة متوسطة، ومجموعة من طبقة منخفضة، وزنوج: مجموعة من طبقة متوسطة، ومجموعة من طبقة منخفضة) تتكون من خمس عشرة أمًا. ويوضح الجدول الآتي رقم (٥١) بيانات عن أعمار الآباء والأمهات وعدد الأطفال وأعمارهم.

جدول (٥١) أعمار وعدد الآباء والأمهات .

٢	المتغيرات	طبقة متوسطة		طبقة منخفضة	
		بيض	زواج	بيض	زواج
١	عدد الأمهات	٤٨	٥٠	٥٢	٥٠
٢	وسيط العمر للأمهات عند الزواج	٢٣	٢١	٢٠	١٨
٣	وسيط العمر للآباء عند الزواج	٢٥	٢٥	٢٥	٢١
٤	وسيط العمر للأم عند المقابلة	٢٣	٢٩	٢٩	٢٩
٥	وسيط العمر للآب عند المقابلة	٣٥	٣٣	٣٣	٣٢
٦	عدد الأطفال عند المقابلة	١٠٧	١٠٩	١٦٧	١٨٤
٧	عدد الأسر التي لها طفلان فقط	٣٤	٢٨	١٢	١٤
٨	عدد الأسر التي لها ثلاثة أطفال فما فوق	١١	١٤	٣٤	٣٢
٩	وسيط العمر للأطفال عند المقابلة	٤	٤	٦	٦

ولقد تم تصنيف الأسر إلى طبقات متوسطة ، ومنخفضة بناء على بيانات المقابلة (سيتم الكلام عنها في الخطوة التالية) . ولقد كانت المهنة والتعليم والملكية ، والعضوية في بعض الهيئات هي العوامل الرئيسية في التصنيف . كما تم مماثلة بيانات الزواج بالبيض ، كما تم أيضاً مراجعة بيانات الزواج بسبب تحديد الفرص عليهم في أمريكا ، فمثلاً إذا كان أحد البيض في مهنة ما ترضه في طبقة منخفضة ، فإن الزوجي الذي في هذه المهنة نفسها ترضه في الطبقة المتوسطة . ولم تستخدم الطريقة العشوائية في اختيار العينة ، بل تكونت أساساً ممن لهم أبناء في مدارس الحضانة وبعض المدارس الخاصة وبعض دور الحضانة التي تدخ من المال العام . وتكونت مجموعة من جنوب شيكاغو ممن يسكنون بالمنطقة المجاورة لأحد القائمين بالمقابلة .

الأدوات : استخدمت المقابلة التي قامت بها خمس نساء درهن تدريباً خاصاً على القيام بها عدة جلسات مع القائمين بهذه الدراسة . وكانت المقابلة طويلة تنتهي في خلال ساعتين أو ثلاث ساعات ، وعادة ما كانت تتم على

جلستين . ولقد قام اليسون داليز بعمل وتصميم وتطوير (استمارة) المقابلة على أساس ما له من خبرات سابقة في هذا المجال . ويختص القسم الأول منها بالتدريبات التي تقوم بها الأم على الطفل وبالفروق الفردية لشخصية الأطفال في الأسرة . أما القسم الثاني فيختص بتوقعات الأم فيما يختص بالمهنة والتعليم والمسؤوليات الخاصة بأبنائها ، وبرنامج الطفل فيما يختص بالأكل والنوم والفسحة وبالعلاقة بالأب . . . إلخ .

جدول (٥٢) وسيط الأعمار بالشهور بالنسبة للتغذية والتدريب .

زئج			يئ			مخرات التغية
منخفضة		متوسطة	منخفضة		متوسطة	
الوسط	المعد	الوسط	المعد	الوسط	المعد	
٩,٤	١٥٩	٨,٥	٨٨	٤,٩	١١٤	
١٢,٦	٩٩	١٢,٥	٧٤	١٢,٩	١٢٣	
١٢,٢	١٧٧	١٢,٠	١٠٤	١٢,٨	١٤٧	
التغية :						
(١) نهاية النلاء من المعدر						
(٢) نهاية النلاء من الزجاجاة						
(٣) نهاية المصن						
التدريب على النظافة :						
(١) بداية التدريب على الاخراج						
(٢) انتهاء التدريب على الاخراج						
(٣) بداية التدريب على التبول						
(٤) نهاية التدريب على التبول						
٨,٥	١٧٢	٥,٥	١٠٥	١٠,٢	١٥٨	
١٨,٦	١٦٠	١٢,٤	٩٥	١٨,٨	١٥٢	
١١,١	١٢٤	٩,٢	١٠٢	١٢,٢	١٥٦	
١٩,٠	١٤٣	١٨,٠	٧٦	٢٤,٠	١٣٩	

النتائج : وقد بين الجدول السابق رقم (٥٢) وسيط الأعمار بالشهور بالنسبة لنواحي التغذية والتدريب على النظافة .

(١) وبالنسبة للغذاء والفظام Weaning : نجد أن الأطفال الذين يتمون لطبقات منخفضة جداً يعتمدون في تغذيتهم على الصدر فقط . كما أنهم يستغرقون في الغذاء من الصدر وقتاً أطول من ثلاثة شهور (الزواج فقط) ويتنكرون عندما يريدون أي بدون موعد . كما أن الفطام يكون مبكراً بين أطفال الطبقة المتوسطة (البيض فقط) . والأطفال الذين يتمون لطبقات منخفضة يمضون لمدة أطول من ١٢ شهراً (البيض فقط) وعندهم سلاليم للمشي ومشايات Pacifier (البيض فقط) . كما أن أطفال الطبقة المتوسطة يحملون أثناء التغذية على الكتف ، ويفطم أطفال الطبقة المنخفضة نهائياً دون تردد أو تراجع (الزواج فقط) .

(٢) وبالنسبة للتدريب على النظافة : نجد أن التدريب على الإخراج يبدأ مبكراً (في المتوسط) مع أطفال الطبقة المتوسطة ، كذلك التدريب على التبول وضبط المثانة . وينتهي التدريب على الإخراج عند ستة شهور أو قبل ذلك . ويبدأ آباء الطبقة المتوسطة أيضاً التدريب على ضبط المثانة في سن ستة شهور أو قبل ذلك (الزواج فقط) وينتهي آباء الطبقة المتوسطة التدريب على الإخراج عند سن ١٢ شهراً أو قبل ذلك (الزواج فقط) . وينتهي آباء الطبقة المتوسطة التدريب على ضبط المثانة عند سن ١٨ شهراً أو قبل ذلك (البيض فقط) .

(٣) وبالنسبة للملاقة مع الأب : فإن آباء الطبقة المتوسطة يقضون معظم الوقت مع أطفالهم ، ومعظم هذا الوقت يقضونه في أنشطة تعليمية كالقراءة والتنزه ويمرود آباء الطبقة المنخفضة أطفالهم على النظام والنظافة والطاعة أكثر (الزواج فقط) .

(٤) وبالنسبة للتوقع المهني للأطفال : يتوقع آباء الطبقة المتوسطة لأبنائهم مكانة مهنية أعلى .

(٥) وبالنسبة للتوقع التعليمي : (طول التعليم) يتوقع أبناء الطبقة المتوسطة أن يذهب أبناؤهم للكلليات .

(٦) وبالنسبة لمر تحمل المسؤولية : فإن الطفل في الطبقة المتوسطة يتوقع أن يساعد في البيت منذ وقت مبكر . كما أن أبناء وبنات الطبقة المتوسطة يعبرون الشارع مبكراً (البض فقط) . وأبناء وبنات الطبقة المنخفضة يعبرون الشارع مبكراً (الزئوج فقط) . كما أن أبناء وبنات الطبقة المتوسطة يتوقع أن يذهبوا للمدينة وحدهم مبكراً . وبنات الطبقة المتوسطة يبدأن الطهي مبكراً (البض فقط) . كما تبدأ البنات في الطبقة المتوسطة (من البيض) الحياكة مبكراً . ويتوقع بنات الطبقة المتوسطة غسل الأطباق مبكراً (الزئوج فقط) . ويتوقع أن يحمل أبناء الطبقة المنخفضة على العمل بعد الدراسة مبكراً .

(٧) وبالنسبة للتعود وتعديد النظام : فإن أطفال الطبقة المتوسطة غالباً ما ينامون أثناء النهار نومة خفيفة (سنة - قيلولة Nap) ويسمح لأطفال الطبقة المنخفضة بالذهاب مبكراً إلى الخيالة أو أماكن عرض الصور المتحركة Moirca وحدهم . أما بنات وأولاد الطبقة المتوسطة فيكونون في المنزل ليلاً في وقت مبكر .

ويوضح الجدول رقم (٥٣) نسب الأطفال في كل نوع من أنواع التغذية وخبرات التدريب على النظافة .

مجدول رقم (٥٣) نسب الأطفال في كل نوع من أنواع التغذية والتدريب .

بيش			المتغيرات
متوسطة			
العدد	المجموع	%	
٥	١٠٦	٥	(١) التغذية:
٣١	١٠٠	٣١	١ - أطفال يرضعون من الصدر فقط
٦٤	٦٩	٦٣	٢ - أطفال يرضعون من الزجاجة فقط
٣٢	١٠٦	٧٦	٣ - أطفال يرضعون من الصدر والزجاجة معاً
٣٢	١٠٦	٣٤	٤ - أطفال رضعوا من الصدر شهراً أو أكثر
٢١	٩٩	٢١	٥ - أطفال رضعوا من الصدر أكثر من شهر
٣	١٠٦	٣	٦ - أطفال يحبون لأكثر من ١٢ شهراً
٢٢	١٠٧	١	٧ - أطفال يتغذون عند الجوع
٦٧	٧١	٥٣	٨ - أطفال عندهم مشايخ
٢٠	١٠١	٢٠	٩ - أطفال يمسكون عند رضاعة الصدر أو الزجاجة
٥١	١٠٥	٥٤	١٠ - أطفال يقطعون نهائياً
			١١ - أطفال يمسكون الأصابع
٤٩	٩٩	٤٨	(٢) التدريب على النظافة:
٢٨	٩١	٢٥	١ - بدء التدريب على الإخراج عند ٦ شهور أو مبكراً
١٨	٩٥	١٧	٢ - نهاية التدريب على الإخراج عند نهاية ١٢ شهر
٣٢	٨١	٢٦	٣ - التدريب على ضبط المثانة يبدأ عند ٦ شهور ومبكراً
٨٤	١٠٤	٥٦	٤ - نهاية التدريب على النظافة عند نهاية ١٨ شهراً
			٥ - عدد الأطفال الذين عندهم استثناء

زئوج								
منخله			متوسطه			منخله		
%	المجموع	العدد	%	المجموع	العدد	%	المجموع	العدد
٤٥	١٧٩	٨٠	٣٠	١٠	٣٢	١٧	١٦٣	٢٨
٢١	١٧٩	٢٠	١٨	١٠٦	١٩	٣٢	١٥٢	٤٩
٤٨	١٨٤	٨٤	٥٦	١٠٤	٥٨	٦١	١٤٧	٩٠
٩٢	١٧٩	١٦٤	٨٣	١٠٧	٩٠	٧٢	١٦٣	١١٨
٨١	١٧٩	١٤٥	٥٩	١٠٧	٦٣	٤١	١٦٣	٦٦
٢٩	١٧٧	٥١	٣١	١٠٤	٣٢	٤٠	١٤٧	٦٦
٥٠	١٧٥	٨٧	٦	١٠٨	٦	٣٥	١٥٣	٥٣
٩٩	١٧٤	١٧	٧	١٠٥	٨	١٣	١٦٧	٢٢
٥٥	١٧٩	٩٩	٧٢	١٠٨	٧٨	٤٣	١٦٦	٧١
٢١	١٨٢	٣٩	٧	١٠٥	٧	١٥	١٥٤	٢٣
٣٠	١٨٣	٥٤	٤٨	١٠٤	٥٠	١٨	١٦٦	٣٠
٢٩	١٧٢	٤٩	٨٧	١٠٥	٩١	٢٣	١٥٨	٣٩
٣٣	١٦٠	٣٧	٤٩	٩٥	٤٦	٢١	١٥٢	٣١
١٨	١٧٤	٢٣	٤٠	١٠٢	٤	١٤	١٥٧	٢٢
٢١	١٤٣	٣	٦٧	٧٦	٥١	٤٨	١٣١	٦٧
١٥	١٨٢	٢٧	٢٩	١٠٢	٣٠	١٧	١٦٢	٢٧

كما بين المجنول رقم (٥٤) تقارير الأبحاث عن نظام التدريب .
 جدول رقم (٥٤) من تقارير الأبحاث عن نظام التدريب .

رقم	بيش		ذوق		المستويات	رقم
	متوسطة	منخفضة	متوسطة	منخفضة		
١	٨٩	٥٢	٨٦	٦٣	هل يستريح الأطفال بالنوم الخفيف نهائياً؟ نعم لا أحياناً مجموع عدد المجنولين	١
٢	١٧	٣٥	٣٥	٧٠	السن التي يذهب عندها الأولاد للمشيما وحدهم ٥ - ٧ سنوات فوق ٨ سنوات لا يسمحون فلا أطفال بالمشيما مجموع عدد المجنولين	٢
	٢٣	٢٠	٢٣	٤٠		

٢	المن التي تذهب عليه البيت للميتا وحلما ٧-٥ سنوات فوق ٨ سنوات لا يسمح بالبيتا مجموع عدد المجتنبين	١٥ ٨١ مفتري ٧٨	٤٥ ٥٥ مفتري ٤٢	مفتري ٧٢ ٧٨ ٢٢	٠ ٩٥ ٢٠ ٢٧
٤	زمن حضور (أو وجود) الولد في البيت ليلاً الساعة ٦-٥ الساعة ٨-٧ الساعة ٩-١٠ حبيب رغبة لا يسمح لهم مجموع عدد المجتنبين	٥٩ ٣٢ ٠ ٤ مفتري ٢٢	٢٢ ٢٢ ٢١ ٨ مفتري ٢٩	٢١ ٢٢ مفتري ٦ مفتري ٢٢	٢ ٥٧ ٤١ مفتري مفتري ٤٤
٥	زمن وجود البيت ليلاً الساعة ٦-٥ الساعة ٨-٧ الساعة ٩-١٠ لا يسمح لهم مجموع عدد المجتنبين	٦٨ ٢٩ ٢ ٢١ مفتري ٢١	٢٢ ٢٢ ٢٢ ٢٢ مفتري ٢٩	٢٥ ٥١ مفتري ٩ مفتري ٢٤	٨ ٢٢ ٢١ ٢ ٢٨

التعليق : من النتائج التي تم عرضها في الجداول السابقة يمكن ان نستخلص ما يلي :

(١) كل الفروق لها دلالة إحصائية .

(٢) يوجد فرق دال بين الطبقة المتوسطة والطبقة المنخفضة فيما يتعلق بتدريب الطفل في المدينة الكبيرة . ونفس الفرق يوجد بين الزوج في الطبقة المتوسطة والطبقة المنخفضة .

(٣) الآباء في الطبقة المتوسطة متشددون أكثر من آباء الطبقة المنخفضة في تدريباتهم لأطفالهم على التغذية وعادات النظافة . كما أنهم يتوقعون أن يتحملوا المسؤولية بأنفسهم مبكراً عن توقع آباء أبناء الطبقة المنخفضة ، والآباء في الطبقة المتوسطة يضمنون أبناءهم تحت نظام صارم مع إحباط لدوافعهم عما يقلل آباء الطبقة المنخفضة .

(٤) يوجد فرق بين الزوج والبيض في تدريب أطفالهم ، فالزوج أكثر تسامحاً من البيض في تغذية ولفطام أبنائهم ، لكنهم أكثر تشدداً من البيض في تدريب أطفالهم على النظافة .

(٥) وهكذا نجد فروقاً ثقافية في تكوين الشخصية ، وذلك بالنسبة للطبقة المتوسطة إذا قورنت بالطبقة المنخفضة على الرغم من اللون ((أي الطبقة بصرف النظر عن اللون) وذلك بسبب تدريبهم المبكر .

(٦) وبالإضافة للفروق الثقافية بين الأفراد بسبب خبرات التدريب ، هناك فروق فردية في الشخصية بين أطفال الأسرة الواحدة ، ومن المحتمل أن يكون سبب ذلك فروق فيسيولوجية أو فروق في العلاقات الانفعالية (كالحب والكراهة) مع باقي أعضاء الأسرة (١٤٦) .

(٦) دراسة حضارية مقارنة بين الجانحين المصريين والجانحين الإنجليز بالنسبة للمعاملة الوالدية وعلاقتها بالجناس : ولقد أجريت غنايات زكي دراسة مقارنة على الجانحين في إنجلترا وفي مصر بهدف الكشف عن علاقة المعاملة الوالدية والعلاقة بين الوالدين بالجناس . ولقد كشفت

الدراسة أن نسبة الحالات التي تعكس الظروف المنزلية لديها علاقات سيئة بين الوالدين في كل من مصر وإنجلترا قريبة من بعضها فهي على التوالي ٦٥٪ لدى المصريين، ٦٠٪ لدى الإنجليز، وتمثلت هذه العلاقات السيئة في فشل الزوجية في اتباع خط واحد يسيران عليه في تنشئتهما لأبنائهم ورغبة الزوج في الاستئثار بالاتفاق على الأسرة دون أن يكون للزوجة دخل في ذلك مما يترتب على ذلك كثرة المنازعات بينهما. كما وجد أن ٦٥٪ من الآباء والأمهات في مجموعة الجانحين المصريين يتسم أسلوبهم في تنشئة أبنائهم لا لتبذد وعدم الثبات. وفي مجموعة الجانحين الإنجليز وجدت الباحثة أن هناك ارتباطاً بين القسوة في أسلوب التنشئة الاجتماعية وبين زيادة السلوك المنحرف (١٤٢).

(٧) دراسة مقارنة للاتجاهات الوالدية وأساليب تنشئة الأطفال لثلاث عينات عربية قطرية ومصرية وفلسطينية: وتهدف دراسة جابر عبد الحميد (١٩٧٨) هذه إلى معرفة أوجه التشابه في الاتجاهات الوالدية بين العينات القطرية والمصرية والفلسطينية، وكذلك نواحي الاختلاف. وقد بلغت عينة البحث ٣٠ ثلاثين قطرياً متوسطات أعمارهم ٢٢، ٢٧، ٢٧ مصرياً متوسط أعمارهم ٢٣، ٤١، ٤١، و ٣٤ فلسطينياً متوسط أعمارهم ٣٧ عاماً. وكان مستوى العينات التعليمي متقارب فمعظمهم من حملة المؤهلات العليا ويعملون بالتعليم.

وقد طبق في هذه الدراسة مقياس الاتجاهات الوالدية ويتضمن ثمانية مقاييس فرعية هي: التسلط، والحماية الزائدة والاهمال والتدليل والقوة وإثارة الألم النفسي والتبذد والفرقة. وقد أشارت النتائج إلى عدم وجود فروق دالة بين العينات الثلاث على مقاييس التسلط والتبذد والفرقة. ووجد أن هناك فرقاً دالاً بين القطريين وكل من المصريين والفلسطينيين على مقياس التدليل بما يشير إلى أن القطريين أكثر تدليلاً لأبنائهم من المصريين والفلسطينيين. وتشير النتائج كذلك إلى تشابه المصريين والقطريين في الاستجابة على جميع المقاييس ما عدا التدليل

وتشير النتائج كذلك إلى وجود فرق دال بين القطريين والفلسطينيين على مقاييس الحماية الزائدة (+ القطريين) ، والألم النفسي (+ القطريين) ، والسواء (+ الفلسطينيين) . كما وجد أن العينة المصرية والفلسطينية تختلفان اختلافاً دالاً على مقياس الإهمال (+ المصريين) والقسوة (+ المصريين) (١٧) .

(٨) دراسات حضارية مقارنة في المعاملة الوالدية بدولة الإمارات : أجرى يوسف عبد الفتاح (١٩٨٤) دراسة عن «التنشئة الاجتماعية والشخصية» دراسة مقارنة بين شخصية الأبناء من أمهات مواطنات والأبناء من أمهات أجنبيات لدى تلاميذ المرحلتين الإعدادية والثانوية لتل رسالة الدكتوراه وذلك على عينات من مجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة . وقد بلغت عينة الأبناء من أمهات مواطنات في هذه الدراسة ٢٨ طالباً ، ٣٢ طالبة بالإعدادية ، ٢٥ طالباً ، ٢٠ طالبة بالثانوي ، وبلغت عينة الأبناء من أمهات أجنبيات (هندية - إيرانية - مصرية - شامية أي سورية أو لبنانية) ٣٤ طالباً ، ٣٧ طالبة بالإعدادي ، ٢٤ طالباً ، ٢٥ طالبة بالثانوي .

وقد طبق على العينة مقياس التنشئة الاجتماعية كما يدرجها الأبناء ومقاييس أخرى عن الشخصية سبرد ذكر نتائجها في الفصل الخاص بالدراسات عبر الحضارية في مجال الشخصية .

وبالنسبة للمعاملة الوالدية وجد الباحث النتائج الآتية في دراسة :

(١) وجدت فروق دالة إحصائياً عند مستويين ٠,٠١ ، ٠,٠٠١ بين الأبناء من أمهات مواطنات ، والأبناء من أمهات أجنبيات على مقاييس التسلط والحماية الزائدة والتدليل وكان متوسط درجة الأبناء من أمهات مواطنات أعلى ، وعلى مقياس التفرقة وكان متوسط درجة الأبناء من أمهات أجنبيات أعلى .

(٢) وجود فروق دالة إحصائياً عند ٠,٠٠١ على مقاييس التسلط والحماية الزائدة والتدليل وإثارة الألم النفسي بين الأبناء من أمهات

مواطنات (إمارات) وبين الأبناء من أمهات هنديات (من الهند) وذلك في صالح الأبناء من أمهات مواطنات حيث أن متوسطائهن أعلى .

(٣) وجود فروق لها دلالة إحصائية بين الأبناء من أمهات مواطنات وبين الأبناء من أمهات إيرانيات (من إيران) عند مستوى ٠,٠٠١, ٠,٠٥ على جميع مقاييس المعاملة الوالدية وهي : التسلط، والحماية الزائدة والتدليل وإثارة الألم النفسي (في صالح الأبناء من أمهات مواطنات ، والفرقة) (في صالح الأبناء من أمهات إيرانيات) .

(٤) وجود فروق لها دلالة إحصائية بين الأبناء من أمهات مواطنات والأبناء من أمهات مصريات (من مصر) على جميع مقاييس المعاملة الوالدية السابقة وفي صالح الأبناء من أمهات مواطنات ما عدا مقياس التفرقة فهو في صالح الأبناء من أمهات مصريات .

(٥) وجود فروق لها دلالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٠١, ٠,٠٠١ بين الأبناء من أمهات مواطنات والأبناء من أمهات شاميات (سوريات - ولبنانيات) على جميع مقاييس المعاملة الوالدية وفي صالح الأبناء من أمهات مواطنات ما عدا مقياس التفرقة فلم يوجد فرق دال بين المجموعتين عليه (٩٤) .

وتعكس النتائج السابقة دور الحضارة التي تنتمي لها الأم في المعاملة الوالدية للأبناء .

(٩) دراسة مقارنة بين المراهقين بالريف والحضر والواحات في اتجاهاتهم نحو أساليب الآباء في التنشئة الاجتماعية : أجرى أحمد محمد أبو زيد (١٩٨٦) دراسة حل ٣٠٠ مراهق بالمرحلة الثانوية في ريف الوجهين بالقاهرة والواحات بالوادي الجديد . وطبق عليهم اختبار إهرل شيفار لقياس اتجاهات الأبناء نحو أساليب الآباء في التنشئة الاجتماعية . وقد توصل إلى النتائج الآتية :

(١) توجد فروق دالة إحصائية بين إناث الحضر وإناث الريف عند

الدراسات عبر الحضارية في مجال الشخصية

مقدمة : لا تعيش المجتمعات منعزلة على نفسها، ولا يستطيع أي من هذه المجتمعات أن يعتمد على نفسه مستقلاً عما يحيط به من بشر في علاقاته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية . وأن الناظر لمختلف شعوب العالم من خلال مجموعة تلك العلاقات ، ليجد اختلافاً بيناً بينها كما يجد تشابهاً كبيراً في نفس الوقت ، لكننا لا نكاد نلمس ذلك بصورة دقيقة مفصلة بالنظرة السريعة أو الملاحظة العابرة . فهذا مجتمع أخذ منذ زمن بعيد بأساليب التكنولوجيا وصارت انجازاته فيه تتجاوز كل حد ، وهذا مجتمع تقبع فيه الحضارة منذ آلاف السنين ويخطر الآن شعوائه الأولى في سهل تنمية موارده من أجل التقدم الفني ورخاء الناس . ونجد في نهاية الأمر مجموعة أخرى من الدول ما زالت تتطلع آمالها نحو التقدم .

والمجتمعات الكبيرة كالأفراد على حد سواء يحكم العلاقات بين بعضها البعض ما يحكم العلاقات بين الأفراد من معايير وقهم ومثل وأسس ،

وإن اختلفت هذه الأسس من ناحية الشكل . فتمثل تلك الأسس التي تحكم العلاقات بين المجتمعات في صورة اتفاقيات ومواثيق ومعاهدات . لكن بالنسبة للأفراد فإن المعايير والقيم تكون متمثلة في نفوسهم وعقولهم وضمائرهم بحيث تسيطر العلاقات بين بعضهم البعض على أساس المعيار الجمعي . وإذا كان اجتماع الأفراد بعضهم البعض تحكمه بعض الصيغ والخصائص المشتركة كاللغة والدين والرقعة الجغرافية والهدف الواحد والقيمة الواحدة (هذه المراحل تعمل على تماسكهم وعدم تفككهم ووقوفهم أمام أي خطر خارجي ، كما تعمل على دلمهم نحو التقدم والرخاء) ، فإن الأمر لا يختلف أيضاً عن ذلك بين الشعوب بعضها البعض . فالتعاون بينها اقتصادياً أو سياسياً أو ثقافياً لا بد أن يقوم على أسس وركائز تكمن في الإجابة على هذا السؤال : ما هي أوجه الشبه والاختلاف بين خصائص شعوب العالم المختلفة ؟ .

وأن البحث في هذه الخصائص من خلال المنهج الذي بصطنعه المتخصصون في علم النفس عبر الحضاري وهو منهج الدراسات الحضارية المقارنة ، ليمهد الطريق أمام الكثير من المؤسسات داخل تلك المجتمعات وأمام منظمات الأمم المتحدة لإرساء علاقات قائمة على أسس متينة بين الدول لو أخذت بنتائج تلك الدراسات . وأن الذي يدعو إلى إجراء المزيد من هذه الدراسات ، ما يلاحظ في مجال العلاقات الدولية من إبرام لمعاهدات ثقافية أو تجارية بين أعضاء الدول سرعان ما تنتهي أو تُلغى بانتهاء الحكومات التي أبرمتها . فكأنما إبرام هذه المعاهدات قد قام بين أشخاص هم الدين وقموا عليها وليس بين مصالح مشتركة لشعبين كان من الضروري أن تعكسها بنود الاتفاقية لو كان قد سبقها إجراء مثل تلك الدراسات .

وقد اهتم علماء النفس في الدول المتقدمة بهذه الدراسات فأقاموا لها الجمعيات وأصدروا المجلات المتخصصة في نشرها . وأن حاجتنا لإجراء الكثير من هذه البحوث لا يقل في أهميته عن الأهمية التي يسمي علماء النفس في العالم لإجرائها من أجله ، بل ويزيد على ذلك أننا في سبيلنا للاستفادة من

المناطق الريفية بكل من شمال وجنوب مصر كما تضمنت العينة الاولاد والبنات .

وقد اوضحت النتائج :

١ - أنه بالنسبة لصورة الذات وتقييم الذات لم توجد فروق بين العينة الحالية وبين ما هو معروف في الدراسات السابقة عن العينات الأمريكية والأوروبية .

٢ - وجد تداخل بين أهداف الاولاد الريفيين وأهداف الاولاد الحضريين لكنه وجد أن الاولاد الريفيين يذكرون رغبتهم في تملك الأرض وأن يتزوجوا ويكون لهم اطفال . وإنهم يستحقون أهدافهم لأن الله والديهم راضون عنهم (١٧٤) .

(٢) دراسة حضارية مقارنة على نتائج التحليل العاملي في الشخصية :

وقد قام بهذه الدراسة مصطفى سويف (١٩٦٥) ، وكان هدفها الدراسة الحضارية المقارنة لإطار إيزنك EYSENCK للشخصية . وذلك لمعرفة هل هذا الإطار في وصف سمات الشخصية يصلح لتنظيم سمات الشخصية في الظروف الاجتماعية الاقتصادية الحضارية التي تختلف عن الحضارة الانجلو الأمريكية . وقد استخدم الباحث عدة مقاييس من اختبار الشخصية المتعدد الأوجه ، ومقياس جيلفورد ، ومقياس أحمده الباحث نفسه (الاستجابات المتطرفة) على العينة المصرية . وقارن استجاباتهم على مقياس الشخصية المتعدد الأوجه باستجابات عينة الانجليز ، كما يظهر في التحليل العاملي لمعاملات الارتباط بين الاختبارات الفرعية لمقياس الشخصية . ولقد كانت المقاييس الفرعية المستخدمة من اختبار الشخصية المتعدد الأوجه هي : الانحراف السيكوباتي ، والهستيريا ، السيكاثينيا والاكتئاب ومقياس الكذب ك .

والمقاييس الفرعية المستخدمة من مقياس جيلفورد هي : الأهراض الانهباطية والتقلبات الوجدانية ، والميل إلى الانطلاق والتخفف من الأعباء .

وقد تكونت هيئة هذه الدراسة بالنسبة للإنجليز من ١٠٠ شاب، ١٠٠ شابة (١٩٥٧)، وبالنسبة لمينة المصريين بلغ العدد ١٣٦ من الشباب، ٧٩ من الراشيدات. وقد أسفرت النتائج عن وجود عوامل عامة في العنصرين وهما عاملي العصافية والانطواء. كما تبين وجود فروق جوهرية بين المصريين وبين الإنجليز. ويذهب الباحث إلى ضرورة إعادة النظر في عمليات التشخيص لانحرافات السلوك على أساس النظرة الكمية للاعراض المختلفة (٦٧).

(٣) دراسة عبر حضارية على المرضى السيکوسوماتيين :

قام جورج دي فوس Gorge De Vos (١٩٦١) بمقارنة سجل فلاح ياباني عنده قرحة بالاكشافات الأكلينيكية الحديثة على مستهدف أمريكي بالقرحة Ulcer Prone.

وقد أوضحت نتائج الاختبارات على الفلاح الياباني تاكاو Takao أنه يرى نفسه شعورياً كقائد يهتم بالتقاليد والقيم الأسرية والعائلية ويقمص تقاليد السامورا Samuria، ويشير مظهره إلى ملوك طفلي، كما يعاني من نوبات صرعية. وقد أكد الفحص السيکاتري وجود قرحة في المعدة لديه. ويشكو من تقيؤ في الرئة وصداخ وتصلب في الكتف، وهي شكاوى منتشرة بين اليابانيين وقد كان تاكاو الابن الأكبر، ولذا فقد تحمل مسؤوليات العائلة بعد والده، وتزوج وصره ٢٤ أربعة وعشرون عاماً. وقد قدم دي فوس ملخصاً لنتائج استجابات تاكاو على الروشاش كما يلي :

١ - كراهية ٤٪.

٢ - قلق ١٤٪.

٣ - انشغال بدني ٧٪.

وسمى المجموعة السابقة بالمجموعة غير السارة والتي وصل عندها إلى ٢٠٪.

٤ - اعتماد ٣٢٪.

٥ - مشاعر إيجابية ١٠٪.

ويذكر دي فوس أن الشيء البارز في محتوى سجلات تاكاو كان الاعتماد الرمزي. كما ذكر دي فوس أيضاً أنه على الرغم من أن هذا السجل لم يكن كبيراً، فإنه يتطابق مع نموذج المواد المأخوذة من المرضى الأمريكيين بالقرحة، خاصة الذين حولجوا بالمصير المهضم Pepsinogen والذين تشير حالتهم للقابلية للقرحة (Weiner 1957).

ويقول دي فوس أن النسبة المئوية الكلية لمحتوى الاعتمادية (٣٢٪) في سجل تاكاو تعتبر عالية بالمقارنة بالمعايير العادية لمحتوى الاعتمادية نظراً لشدة الحاجة إلى الاعتماد غير المحلولة في شخصية تاكاو. وفي النهاية يذهب دي فوس إلى القول بأن سجل تاكاو الياباني يتفق بجدارة مع اكتشافات المحتوى الرمزي في المجموعة الأمريكية الإكلينيكية (١٢٥).

(٤) دراسة عن التعرض لتأثير المدينة الحديثة وتسامح الآباء بحث حضاري مقارن لاتجاهات الشباب في خمسة بلاد عربية^(٥)

يهدف هذا البحث الذي قام به محمد عثمان نجاتي (١٩٦٥) إلى دراسة أثر التعرض لتأثير المدينة الحديثة على اتجاهات ومشكلات الشباب في البلاد العربية، وفي مقياس التعرض لتأثير المدينة الحديثة تم اختيار مواقف سلوكية لتكون موضوعاً لذلك القياس، فيما يلي أمثلة منها:

- ١ - التعلم في مدارس عربية.
- ٢ - كثرة الاحتكاك بأشخاص غربيين.
- ٣ - معرفة اللغات الغربية.
- ٤ - السفر إلى بلاد غربية.
- ٥ - مقدار التردد على دور السينما.
- ٦ - مستوى تعليم الأب والأم.

(٥) هذا البحث هو الذي أشرنا إليه في مقدمة الكتاب وكان نواة لفكرة إنشاء جمعية البحوث الحضارية المقارنة في مصر والتي تأسست عام ١٩٥٦.

وقد تمت صياغة عدد من الأسئلة لقياس الموضوعات السابقة، وقد تكونت وفقاً لذلك سبعة مقاييس. وإلى جانب ذلك تم إعداد مقياس تسامح الوالدين، ونختص أسئلته بحرية اختيار الأبناء لأصدقائهم والمفروج معهم وبحرية تصرفهم في مصروفهم واختيار المهنة. وقد بلغ عدد أفراد العينة في مصر ولبنان والعراق وسوريا والأردن ٢٢٢٩ ألفين ومائتين وتسعة وعشرين طالباً في المدارس الثانوية (ن = ١٤٣٤) وفي الجامعة (ن = ٧٩٥).

وقد وجدت معاملات ارتباط دالة بين مقياس تعرض الأسرة لتأثير المدينة الغربية، وبين تسامح الوالدين في العينة المصرية بالنسبة لمجموعة المسلمين والمسلمات، والمسيحيين والمسيحيات، وفي العينة اللبنانية بالنسبة لمجموعة المسيحيين، وفي العينة السورية بالنسبة لمجموعة المسلمين، وفي العينة الأردنية بالنسبة لمجموعة المسلمين والمسيحيين (٣١).

(٥) دراسة عن بعض المتغيرات المرتبطة بالتسلطية في مجموعتين حضاريتين :

فحسب هذه الدراسة التي أجراها لرفون ميليكيان (١٩٦٥) عن عدة تساؤلات هي : هل العوامل المرتبطة بالتسلطية في حضارة تسلطية تفصح عن نفسها بنفس الطريقة التي نجدها في حضارة غير تسلطية ؟ ، وهل تقل العلاقة بين التسلطية والقلق في حضارة تسلطية عن نفس العلاقة في حضارة غير تسلطية ؟ ، هل تتوقف وجهة عداوة الشخص التسلطي نحو كل من الوالدين على السلطة التي تملكها الحضارة على كل من الوالدين .

ومن أجل الإجابة على هذه التساؤلات طبق استبيان يقيس التسلطية والعداوة ونفيل الوالدين، على ٩٠ طالباً مسلماً بجامعة ستوت ، ٩٧ طالباً أمريكياً بروتستانتياً بجامعة كورنل وكوليجيت بالولايات المتحدة الأمريكية . وبالنسبة للتساؤل الأول وجدت فروق دالة بين الميتين الحضاريتين على المقاييس الثلاثة ونشير إلى أن عينة جامعة بيروت أكثر تسلطية وعداوة من

العينة الأمريكية وأقل قلقاً منها . وبالنسبة للتساؤل الثاني وجد ارتباطاً دالاً بين التسلسلية والمداوة (٠,٣٦) والقلق والمداوة (٠,٦٧) في عينة جامعة بيروت ، وبين القلق والمداوة (٠,٤٢) في العينة الأمريكية (٦٨) .

(٦) دراسة عبر حضارية بين المصريين والأمريكيين عن قلق الموت :

وضع دونالد تمبلر مقياس قلق الموت (١٩٦٧) Death Anxiety Scale DAS والسدي يدور عن جوانب من الخبرات المرتبطة بالموت كالاكتضار والدفن والجثث ومن أسئلته : (١) أخاف بشدة من أن أموت ، (٢) نادراً ما تخطر لي فكرة الموت ، (٣) أخشى أن أموت موتاً مؤلماً ، (٤) يرعيني منظر جسد ميت . وقد استخدم (بشاي ، تمبلر) هذا المقياس عام ١٩٧٨ للمقارنة بين المصريين والأمريكيين في الاتجاه نحو الموت . وفكرة الموت عند الأمريكيين أساساً تتلخص في انكار الموت ، وعدم السماح لأنفسهم بتعدي الطقوس المعهودة في التعبير عن أسهمهم ، أما فكرة الموت عند المصريين أساساً فلأنهم مشغولون بالحداد والفقدان والتأثر بالتقاليد المصرية القديمة ، ووجود الندابة وصفحة الزفيات بالصحف . وقد ترجم المقياس إلى العربية ثم أعيد ترجمته إلى الإنجليزية للتأكد من وجود نفس المعنى في العبارات وقد طبق على ٤٩ مبحوثاً أمريكياً من الذكور الذين يعملون في ميدان الصحة العامة وعلى ٤٥ مبحوثاً مصرياً يعملون في مجال الطباعة بمؤسسة دار الهلال . وقد وجد أن المصريين في هذه الدراسة أكثر قلقاً من الموت بالمقارنة بنظرائهم من الأمريكيين (١٠) .

(٧) دراسة عبر حضارية لأفكار الأطفال عن الموت :

قام كل من واس هانسلور Wass Hannelore ، ونستام كليسيجرام Wenestam Claesgorom (١٩٨٦) بدراسة النواحي الكيفية لأفكار الأطفال عن الموت من خلال المنظور عبر الحضاري ، حيث يتم التداعي عندما

يعرض على الأطفال منه يتمثل في كلمة «الموت»، ثم تتم دراسة استجاباتهم لهذا المنبه بعد ذلك .

وقد بلغت العينة ١٨٨ طفلاً تقع أعمارهم بين ١١ - ١٦ عاماً بمتوسط ١٣,٨٨ وانحراف معياري ١,٦٩ في ثلاث حضارات هي الولايات المتحدة واليونان والسويد . وقد طلب من الأطفال أن يقوموا برسم ما يظهر في ذهنهم عندما يسمعون كلمة «موت»، كما طلب منهم أن يعلقوا تعليقاً مختصراً على الرسم الذي قاموا بعمله . ولقد أجري التحليل للكشف عن الفروق الكيفية والتشابه في الرسوم . ولقد حددت خمسة أوصاف للحكم على الرسم :

أ - الموت كجزء أساسي من الحضارة .

ب - الموت موضوع في سياق ديني .

ج - الموت كتهديد .

د - الموت كنتيجة لقوى مدمرة .

هـ - ردود فعل انفعالية .

و - طبيعة الموت والوفاة .

وقد وجدت علاقة دالة بين هذه الفئات وبين القومية . ففي الفئة (د) وجد أن النداعي لدى الأوروبيين يتمثل في موضوعات وقضايا مثل الحرب والنواحي الاجتماعية ، في حين أن الموضوعات لدى الأطفال الأمريكيين كانت معالية ونختص بعوادم السيارات والاختلالات والسرقة (٢١٠) .

(٨) دراسة استطلاعية مقارنة لمشكلات الفتاة في مرحلة المراهقة في المجتمع القطري والبحريني والمصري والأمريكي :

سعت هذه الدراسة التي قامت بها صفاء الأعسر (١٩٧٨) إلى الكشف عن أوجه الشبه والاختلاف في مشكلات المراهقة لدى الفتاة في المجتمع القطري والبحريني والمصري والأمريكي . وبالنسبة للمجتمع القطري والمجتمع البحريني فقد قامت الباحثة بجمع البيانات عنهما ، وإجراء المقارنة بينهما ، من منطلق دخول التعليم في البحرين قبل قطر ونسبة توطين الوظائف

في البحرين أعلى من قطر. أما بالنسبة للعينه المصرية فقد استعانت ببيانات بحث منيرة علمي (١٩٦٥). وحصلت على بيانات العينه الأمريكية من الدراسات التي أجريت بأمريكا باستخدام قائمه موني Mooney للمشكلات وهي نفس الاداة المستخدمة في العينات الثلاث الأخرى (المصرية - القطرية - البحرينية)، وستأتي الإشارة إليها في: «دراسة المؤلف المقارنة لمشكلات المراهقة في أربع بلاد عالمية». ونستخلص من النتائج التي عرضتها الباحثة لمتوسط عدد المشكلات في مجالات قائمه موني ما يلي:

(١) إن مجال المشكلات الانفعالية لدى المراهقة المصرية والبحرينية يأخذ المرتبة الأولى في المشكلات لديهن، في حين أنه يأتي في المرحلة الثانية لدى العينه الأمريكية، وفي المرتبة الخامسة لدى العينه القطرية.

(٢) إن مجال المشكلات الدينية والأخلاقية يأتي في المرتبة الثانية لدى المراهقة المصرية والقطرية، وفي المرتبة التاسعة لدى العينه الأمريكية، وفي المرتبة الثالثة لدى العينه التجريبية.

(٣) إن المشكلات الخاصة بالمعمل المدرسي يأتي في المرتبة الأولى لدى العينه الأمريكية والقطرية، وفي المرتبة الثانية لدى العينه التجريبية، وفي المرتبة الثالثة لدى العينه المصرية.

(٤) إن المشكلات الخاصة بأوقات الفراغ تأتي في المرتبة الرابعة لدى كل من العينتين المصرية والقطرية، وفي المرتبة السادسة لدى كل من العينتين الأمريكية والبحرينية.

(٥) إن مشكلات المنهج والدراسة يبعي في المرتبة الثالثة لدى العينتين الأمريكية والقطرية، وفي المرتبة الخامسة لدى العينه المصرية، وفي المرتبة التاسعة لدى العينه التجريبية.

(٦) إن مشكلات التوجيه المهني تأتي في المرتبة السادسة لدى كل من العينتين المصرية والقطرية، وفي المرتبة الرابعة لدى العينه الأمريكية، والمرتبة الخامسة لدى العينه البحرينية.

(٧) ثاني المشكلات الصحية في مرتبة واحدة هي الثامنة لدى العييتين القطرية والبحرينية ، وتقع في المرتبة السابعة لدى العينة المصرية ، والمرتبة الثامنة لدى العينة الأمريكية .

(٨) تحتل مشكلات التوافق الاجتماعي مراتب مختلفة في العينات الأربعة : في المرتبة الرابعة لدى العينة البحرينية ، والخامسة لدى الأمريكية ، والسابعة لدى القطرية ، والثامنة لدى المصرية .

(٩) وثاني مشكلات الأسرة في العينة القطرية في المرتبة الثامنة وفي العينة المصرية في المرتبة التاسعة ، وفي العييتين الأمريكية والبحرينية تأتي في المرحلة العاشرة .

(١٠) ثاني المشكلات المالية في المرتبة العاشرة لدى العينة المصرية والقطرية وفي المرحلة السابعة لدى العينة القطرية والعينة الأمريكية (٢٩) .

(١١) ونقدم في الجدول (١٥) الآتي خلاصة ما سبق من ترتيب للمشكلات لدى كل عينة من العينات الأربع :

جدول (١٥) هن المقارنة في مشكلات المراهقة بعدة حضارات

رقم	المشكلات	مصرية	أمريكية	قطرية	بحرينية
١	الانفعالية	١	٢	٥	١
٢	الدين والأخلاق	٢	٩	٢	٣
٣	العمل المدرسي	٣	١	١	٢
٤	أوقات الفراغ	٤	٦	٤	٦
٥	المنهج والدراسة	٥	٣	٣	٩
٦	التوجيه المهني	٦	٤	٦	٥
٧	المشكلات الصحية	٧	٨	٩	٨
٨	التوافق الاجتماعي	٨	٥	٧	٤
٩	الأسرة	٩	١٠	٨	١٠
١٠	المالية	١٠	٧	١٠	٧

وقد وجد المؤلف (محمود أبو النيل) إمكانية حساب معامل الارتباط بين ترتيب هذه المشكلات في كل بلد من البلاد الأربعة والأخرى وذلك باستخدام معامل ارتباط الرتب لسبيرمان Spearman's Ranking Correlation Coefficient فكانت النتائج كما يلي:

- (أ) معامل الارتباط بين العينة المصرية والأمريكية ٠,٤٨.
- (ب) معامل الارتباط بين العينة المصرية والقطرية ٠,٨٢.
- (ج) معامل الارتباط بين العينة المصرية والبحرينية ٠,٧٠.
- (د) معامل الارتباط بين العينة الأمريكية والقطرية ٠,٤٩.
- (هـ) معامل الارتباط بين العينة الأمريكية والبحرينية ٠,٥٤.
- (و) معامل الارتباط بين العينة القطرية والبحرينية ٠,٥٨.

(١٢) وتنعكس معاملات الارتباط السابقة قوة العلاقة بين شعوب العالم العربي فأعلى معاملات الارتباط بين مصر وقطر والبحرين (٠,٨٢، ٠,٧٠، ٠,٥٨)، وأدنى هذه الارتباطات تكون بين هذه الشعوب وبين أمريكا (٠,٤٨، ٠,٤٩، ٠,٥٤).

(٩) دراسة مسحية للمخاوف الشائعة لدى هيئة من القطريين وغير القطريين من الجنسين:

أجرى هذه الدراسة جابر عبد الحميد (١٩٧٨)، ولقد هدفت البحث إلى الإجابة عن عدة تساؤلات: بهيئة منها ما يتصل بهل تختلف مخاوف الطلاب والطالبات باختلاف الثقافات العربية والفرعية القطرية وغير قطرية؟ وقد تألفت هيئة البحث من ٢٠٤ طلاب وطالبات من مدارس مدينة الدوحة الإعدادية والثانوية من القطريين وغير القطريين بالسنوات الثالثة الإعدادية والأولى الثانوية وتراوحت أعمار هيئة القطريين بين ١٢ - ١٥ عاماً، وهيئة غير القطريين بين ١٣ - ١٨ عاماً. وطبق على هذه الهيئة قائمة مسح المخاوف Fear Survey Schednel لجير I. H. Jeer (١٩٦٥) وتتكون من ٥٠ خمسين عنصراً من الأشياء المختلفة التي قد تثير الخوف لدى الإنسان وتقدم

هذه القائمة للشخص ليحدد بنفسه درجة خوفه من كل من هذه الأشياء على مقياس تقدير مكون من سبع درجات . وقد خفضت في الدراسة الحالية إلى خمس درجات ومن هذه المخاوف :

- ١ - الأشياء الجادة .
- ٢ - أن أكون مسافراً في سيارة .
- ٣ - البعث .
- ٤ - الاختناق .
- ٥ - الموت .
- ٦ - الدم .
- ٧ - العنكبوت .
- ٨ - الكلاب الغريبة .
- ٩ - فقدان العمل .
- ١٠ - حوادث السيارات .

وقد انفسح من النتائج أن متوسط درجات الطلاب القطريين في المخاوف أقل من متوسط درجات الطلاب غير القطريين وكان الفرق غير دال إحصائياً . وقد وجدت فروق دالة بين الطالبات القطريات وغير القطريات على ثمانية مخاوف ، وأن درجات غير القطريات ، أعلى على هذه المخاوف من درجات القطريات ، وهذه المخاوف هي :

الحياة بعد الموت ، أن أترك وحيداً ، الدم ، أن يتعرض من أحب للمرض أو الإصابة ، المرض العقلي ، العنكبوت العاصفة الرعنية ، الكلاب الغريبة (١٤) .

(١٠) دراسة مقارنة في الشخصية القطرية والمصرية والأمريكية :

أجراها جابر عبد الحميد (١٩٧٨) واستند في دراسته هذه إلى رأي «علي الوردي» في أن الصراع بين البداوة والحضارة يختلف في نمطه وشدة

تفاعله من قطر إلى قطر آخر في الوطن العربي ويصنف الاقطار العربية إلى ثلاثة أنواع هي :

- ١ - الأولى : توجد فيه الحضارة والبداءة جنباً إلى جنب كالعراق .
- ٢ - الثاني : تكون فيه البداءة أشد وأكبر تأثيراً من الحضارة كقطر .
- ٣ - الثالثة : تكون فيه الحضارة أقوى تأثيراً وتغلباً في الحياة الاجتماعية من البداءة كمصر .

وقد اختار الباحث إضافة إلى العينة المصرية والعراقية والقطرية عينة ثالثة هي العينة الأمريكية . وقد استهدف من وراء ذلك زيادة التباين في عينات البحث بغية التعرف على كيفية تأثير اختلاف الحضارة على السلوك الإنساني . وقد تضمنت العينة القطرية ٦٧ سبعة وستين طالباً يدرسون في الفصل الدراسي السادس والسابع عامي ٧٦ ، ١٩٧٧ ، ومتوسط أعمارهم ٢٢ ، ٥٤ . وتألفت العينة المصرية من طلاب الصف الرابع بكلية المعلمين بالقاهرة وقد بلغت ١٤٤ طالباً ومتوسط أعمارهم ١٤ ، ٧١ عاماً . وقد بلغت العينة العراقية ٩٤ أربعة وتسعين طالباً بكلية التربية جامعة بغداد وكان متوسط أعمارهم ٢١ ، ٢٢ عاماً . أما بيانات العينة الأمريكية فقد أخذت من دراسة « والترتوين » في جامعة واشنطن . وقد طبقت على عينات البحث قائمة أدواردز للتفضيل الشخصي Edwards Personal Preference Schedule والتي تهدف إلى تقدير عدد من متغيرات الشخصية السوية مستقل كل منها عن الآخر نسبياً وتستند إلى قائمة الحاجات الظاهرة التي حددها هنري موري مثل : التحصيل ، الخضوع ، النظام ، الاستمرار ، الاستقلال ، التواد ، تأمل الذات ، المعاضدة ، السيطرة ، لوم الذات ، الضطرب ، التغيير ، التحمل ، الجنسية الغيرية ، المدوان .

وقد كشفت نتائج المقارنة بين المصريين والقطريين إلى تشابههما في أربع عشرة حاجة نفسية ما عدا الحاجة إلى النظام إذ وجد فرق دال بين العينتين عليه بما يشير إلى أن العينة القطرية تميل أكثر من العينة المصرية إلى أن يرتب الفرد عمله وحياته الشخصية .

كما كشفت النتائج كذلك على أن تكوين الشخصية في العينة القطرية مشابه لتكوين الشخصية في العينة العراقية في إحدى عشرة حاجة نفسية ما عدا حاجات: الاستقلال، والمعاضدة، والسيطرة، لوم الذات. فالقطريون يميلون إلى التعبير عن الحاجة للاستقلال بصورة أكبر من العراقيين، في حين أن العراقيين يميلون إلى التعبير عن الحاجة للمعاضدة Succorance بصورة أكبر من القطريين، وبالنسبة للسيطرة نجد أن متوسط درجات القطريين أعلى من متوسط درجات العراقيين (١٥).

(١١) دراسة مقارنة من نمو المراهقة في كل من المجتمعين القطري والإنجليزي باستخدام طريقة تكميل الجمل:

قام بها جابر عبد الحميد (١٩٧٨) أيضاً. وقد هدفت هذه الدراسة إلى معرفة أوجه الشبه في نمو المراهقة بين العينة القطرية والعينة الإنجليزية. وقد تألفت العينة القطرية من ١١٥ مائة وخمسة عشر مراهقاً من الصف الثالث الإعدادي بمتوسط عمر ١٦,٠٦ عاماً، والثالث الثانوي بمتوسط عمر ١٨,٠٩ عاماً، والفصل الدراسي السابع بكلية التربية للمعلمات بجامعة قطر بمتوسط عمر ٢٠,٨ عاماً. وتتكون العينة الإنجليزية من ١٥٣ مائة وثلاث وخمسين مراهقة من السنة الأولى الإعدادي بمتوسط عمر ١١,١٠ عاماً، والسنة الثالثة الإعدادي بمتوسط عمر ١٣,٠٩ عاماً، والثالثة الثانوي بمتوسط عمر ١٦,١٧ عاماً.

وقد استخدم في هذه الدراسة اختبار تكملة الجملة Sentence Completion الذي وضعه كولمان Colman واستهدف منه أن يتناول بعض الجوانب الأساسية في علاقة المراهق بالآخرين وب نفسه، وتصنف عباراته إلى أربعة مواقف أساسية هي:

- (١) الأول: يتناول الفرد منعزلاً.
- (٢) الثاني: يتناول علاقة الفرد بآخر (شخصيان).
- (٣) الثالث: يتناول علاقة الفرد بآخرين (ثلاثة أشخاص).

الذكاء، والقدرات العقلية في إطار المحاضرة

مقدمة: يلقي تفكير الإنسان ودوافعه اهتماماً خاصاً في علم النفس اليوم. فعند محاولة عالم النفس فهم السلوك الاجتماعي للإنسان فإن هناك سؤالين لا بد من أن يجيب عنهما: السؤال الأول هو، ما الذي يحرك الناس للعمل في ذلك العالم الاجتماعي الذي يعيشون فيه؟ والسؤال الثاني، كيف يستطيعون تنظيم واعطاء معنى له؟. وأن محاولة الاجابة عن هذين السؤالين تقتضي توافر معلومات عن كيفية تكيف الإنسان مع عالمة الطبيعي، إذ أن الإنسان في تكيفه هذا يفكر ويستقرى ويدرك، ويتذكر ويتخيل ويستجيب من خلال العمليات المعرفية الأخرى Cognitive Process، وكل عملية من هذه العمليات لها خصائصها التي تتميز بها عن بعضها البعض. إلا أن هناك خصائص عامة مشتركة بين هذه العمليات جميعاً، فالموامل التي تحدد إدراكنا لموضوع ما تؤثر أيضاً في تفكيرنا وفي ذاكرتنا وفي أحكامنا. وفي مناقشتنا التالية سوف نتكلم عن الإدراك Perception من حيث خصائصه، ويكون معلوماً أن تحليلنا للإدراك ينطبق على العمليات المعرفية الأخرى.

محددات العمليات العقلية، الإدراك كمثال: من المتفق عليه عامة الآن أن تكوين المبركات لدى الإنسان ترجع لمجموعتين من المحددات: أولهما، العوامل الخاصة بالمنبه Stimulus Factors، وثانيتهما العوامل السلوكية Behavioral Factors والخاصة بالفرد. ويقصد بعوامل المنبه خصائص المنبه نفسه، وقد يكون هذا المنبه الناس الآخرين في المجتمع، وقد يكون الموقف أو المجال الاجتماعي، وقد يكون صورياً وأشكالاً وكلمات. ويقصد بالعوامل السلوكية العمليات النفسية كالقيم والاتجاهات والحاجات وخبرات الفرد الماضية. وأنه لمن المهم جداً أن نشير إلى أن وجهة النظر هذه بالنسبة للعمليات المعرفية تمكننا الاتجاه العام لدى علماء النفس الاجتماعي وعلم النفس عبر الحضاري. إذ أن ما يقوم به الناس من فعل يعتمد على العمليات النفسية لديهم، وعلى طبيعة الموقف الخارجي المتضمن في حضارة الإنسان. وأن اهتمام عالم النفس بالطريقة التي يدرك بها الناس الأشياء أدى به لاستخدام اصطلاح «الإدراك الاجتماعي Social Perception» والذي يختلف العلماء في النظر إليه (ماكلويد ١٩٥٠) فالبعض يركز على خصائص الفرد أي المحددات السلوكية التي سبق الإشارة إليها، والبعض الآخر يركز على ما هو اجتماعي وحضاري. وأن ما يستحق التأكيد هنا أن المبركات تتكون من تفاعل عوامل السلوك وعوامل المنبه. ومهما يكن ذلك فلنكتفي نفهم دور كل مجموعة من هذه المحددات في الإدراك فلا بد من بحث وتحليل كل منهما على حدة.

(أ) المحددات السلوكية: تعتبر كل من الخبرة الماضية التي يمر بها الإنسان والدوافع والمشاعر والرغبات من المحددات السلوكية. وخبرات الإنسان الماضية تعتبر محدداً هاماً في الإدراك لأنها توجهه وتعطيه معاني معينة، ليس ذلك فقط، بل توجهه لأنواع معينة من الأحداث في مجاله الاجتماعي والحضاري، ويتأثر إدراك الفرد بنوع الخبرة التي يمر بها. فالفرد الذي يكون له خبرة سارة حديثة الوقوع من المحتمل رؤيته في المناسبة التالية في حالة نفسية تختلف عن الفرد الذي تكون لديه خبرات غير سارة. كذلك

الامر فإن كلمة مثل : Capsule إذا نظر إليها على انفراد فمن المحتمل أن يكون لها عدة معان «غلاف» عند الفلكي، ومعنى «وعاء» أو «عبوة» عند الصيدلي من ناحية أخرى .

ولقد ركز بارتلت Bartlett في دراسته على الخبرة الحضارية لدى الفرد، وذلك للدور الذي تلعبه هذه الخبرة في رؤية الأفراد وأبناء الحضارة المعنية للأحداث التي يكون لها معنى خاص بالنسبة لهم . وقد قام تلاميذ بارتلت لإثبات ذلك بإعداد عناصر لقصة من حضارة أخرى في شكل يعكس بعض الجوانب الخاصة في خبراتهم الحضارية . ويرجع أثر الحضارة أو الخبرة الماضية عموماً في إدراك الأفراد أو في تذكرهم لموضوع ما أو أحداث معينة لاحتكاكهم ومخالطتهم بالناس والأحداث والأشياء . وتلك العملية الأخيرة تنتظم في ذهن الإنسان على هيئة مدركات وأفكار ومعتقدات تشبه الأبنية المعرفية والتي تؤثر في الاستجابات المعرفية التالية للإنسان وفي سلوكه الظاهر . وعلى هذا النحو فإن الخبرة الثقافية للمبحوثين الذين أجرى عليهم بارتلت تجاربه تؤثر في ذاكرتهم إذ قاموا بتبسيط وتنظيم عناصر معينة من القصص بطريقة تتسق ووجهة نظرهم الخاصة عن العالم (١٢٩) .

كذلك الأمر بالنسبة للدراسة التي قام بها المؤلف والتي بينت أن الذكاء لدى الطفل الصغير أيضاً يتأثر بالوضع الاقتصادي والمعيشي للأسرة التي ينتمي لها أي بحضارته الفرعية . فإذا أتاحت له أسرته إمكانيات واسعة وكبيرة وحديثة من أجهزة وأدوات وسيارات وتليفزيون وتليفون وصارت أشياء تحيط به ، وتستثير إدراكه ، وتلهب مشاعره وحواسه وتنمي معارفه ، وتملو به قيمياً ، كان ذكاؤه كما بينت هذه الدراسة أعلى من مستوى ذكاء الأطفال الذين نخلو بيئتهم من هذه الأشياء (٥٥) .

وفي مقابل ذلك كانت دراسة سيد خيرى التي بينت عدم وجود فروق لها دلالة إحصائية بين تلاميذ المدارس الإعدادية في القاهرة والوجهين القبلي من ناحية ، والبحري من ناحية أخرى ، وذلك بتطبيق اختبار الذكاء على عينة كبيرة منهم (١) .

والمجموعة الأخرى من المحددات السلوكية التي تؤثر في العمليات المعرفية هي دوافع الإنسان ، لـرغبات الإنسان ومشاعره توجهه لإدراك جوانب معينة في الموضوع أو في الموقف عن غيرها . والاتجاهات تعتبر أيضاً كقيم الفرد واهتماماته ، هي حالات نفسية تحرك الفرد للعمل بتأثير من دوافعه ، ونتيجة لذلك فإنها تؤثر فيما يرى ويفكر ويتذكر . وأن الأساس الذي تقوم عليه خصائص البناء النفسي للإنسان يتمثل في العلاقة المتبادلة بين الدوافع والعمليات المعرفية والفعل Action ، لأن العمليات العقلية هي التي توجه ما يقوم به الإنسان من عمل ، وهي التي تحفزه إليه في المقام الأول .

ولقد أوضح الكثير من الدراسات أيضاً تأثير الاتجاهات والقيم على التعلم الإنساني . وفي دراسة قام بها ليفين وميرفي Levine & Murphy عام ١٩٤٣ ، وجد أن الطلبة الموالين للشيوعية والمضادين لها With & Anti Communist تعلموا وحفظوا الجمل التي كانت مناسبة لاتجاهاتهم عن الجمل التي تسير ضد اتجاهاتهم .

(ب) محددات المنبه : وبالنسبة للمنبه هناك الكثير من خصائص المنبه الاجتماعي Social Stimulus مثل الشدة والحدثة ، والتضاد والتكرار والحركة والتي يمكن أن توجه إدراكنا والمثال على ذلك أن الطفل الزنجي Negre الموجود وسط مجموعة كلها من البيض يمكن رؤيته بسهولة كبيرة ، كما أن الصوت المرتفع في جماعة المناقشة يجذب الانتباه .

وهناك أيضاً الخصائص التنظيمية للمنبه والتي تؤثر في إدراكنا للموضوعات الاجتماعية وتمثل هذه الخصائص في القرب Proximity وفي التشابه ، Similarity ، وفي اللون والحجم ، ونفس الشيء الذي ينطبق على المنبه الخارج من أشياء ، وأجسام تنطبق على الأفراد الذين يمكن إدراكهم على أساس أنهم يتصلون بعضهم ببعض نظراً لتقاربهم المادي (مثل الناس الذين يعيشون في نفس المنزل) ، أو نظراً لتشابههم المادي (مثل الناس الذين يكونون متشابهين في لون الشعر) (١٢٩) .

الذكاء والقدرات العقلية في إطار الحضارة : ويرجع الاهتمام بعلاقة الذكاء والقدرات بالحضارة إلى أن المفهوم القديم للذكاء كان يركز على أن الذكاء عبارة عن شيء يتحدد عند الحمل شأنه شأن نوع المولود ذكراً كان أم أنثى ، لكن التعريف الحديث يركز على أن الذكاء هو القدرة على حل المشكلات ، وهذه القدرة ليست بسيطة ، بل عبارة عن تنظيم هرمي من قدرات اكتسبت وراء بعضها البعض بحيث تنضم الأخيرة إلى تلك التي اكتسبت قبلها . وفي نهاية الأمر نجد أن هذا التعريف يعني أن الطفل لا يوهب ذكاء جاهزاً بل يوهب قدرة عقلية وعليه أن يتعلم كيف يتعلم (Hunt, J. M.) .

ومعنى هذا أيضاً أن العوامل البيئية والسياق الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد يلعب دوراً كبيراً في تنبيه واستثارة هذه القدرة مثل الحالة الصحية والجسمية ومستوى التعليم والطبقة الاجتماعية الاقتصادية للفرد ، والجماعات الاجتماعية التي ينتمي إليها (٥٨) .

أثر سوء التغذية كعامل حضاري على السلوك : يدخل في إطار الحضارة المستويات الاجتماعية الاقتصادية والبيئة الأيكولوجية Ecology التطبيقية . وقد اهتم الكثير من البحوث بأثر سوء التغذية لدى أبناء المستويات الاجتماعية الاقتصادية الفقيرة في الذكاء والقدرات العقلية .

ويمكن تعريف سوء التغذية Malnutrition بعدم كفاية السعرات الحرارية الموجودة في الغذاء والتي تمكن الجسم من القيام بوظائفه (Kallen 1973) . وتشير التقديرات إلى أن من ٥٠ - ٨٠٪ من الأطفال في سن ما قبل المدرسة في البلاد النامية يعانون من سوء التغذية في البروتين (Edozien 1970) ويظهر ذلك في أعراض تتمثل في انحرافات في الوزن والسمنة وتغيرات في الشعر وفي الجوانب الحيوية والكيميائية للجسم (١٦٦) .

ويحتاج الإنسان يومياً ما بين ٢٤٠٠ - ٢٥٠٠ من السعرات الحرارية وذلك من تناول الأغذية المختلفة . وفي السنوات المشرقة الأخيرة (١٩٧٠ - ١٩٧٩) بلغ عدد ضحايا المجاعات ٤٥٠ مليون إنسان حيث لا يحصل الواحد

منهم إلا على ١٦٠٠ من السرعات الحرارية ويشير هذا إلى أنهم يعانون من المجاعة ، وتؤثر المجاعة بهذه الصورة على أعمارهم . وفيما يلي بيان يوضح ما يمكن أن يكون عليه عمر الإنسان في بلاد فقيرة وبلاد غنية .

أولاً : ما يمكن أن يكون عليه عمر الإنسان في بلاد فقيرة :

- | | |
|---------------------|----------|
| ١ - أفريقيا | ٤٥ عاماً |
| ٢ - آسيا | ٥٤ عاماً |
| ٣ - أمريكا الجنوبية | ٦١ عاماً |

ثانياً : ما يمكن أن يكون عليه عمر الإنسان في بلاد غنية :

- | | |
|----------------------|----------|
| ١ - الاتحاد السوفيتي | ٧٠ عاماً |
| ٢ - الولايات المتحدة | ٧١ عاماً |
| ٣ - أوروبا | ٧١ عاماً |

ومن تأثير الجوع على أطفال العالم الثالث نجد أن ٢٢ مليون طفل من بين ١٢٢ مليوناً يصابون بأمراض السعال الديكي والإسهال قبل بلوغهم السنة الأولى . وفي أفريقيا يموت $\frac{1}{7}$ الأطفال قبل بلوغ السنة الأولى . وقد أعلن تقرير ندوة التغذية برؤما أن ١٠٠ ألف طفل بالشرق الأقصى يشكون العمى لنقص فيتامين (أ) . هذا ويرجع نقص الغذاء في دول العالم الثالث إلى أن العالم الغربي يفضل البروتينات الحيوانية عن البروتينات النباتية التي تتفدى عليه الماشية لتنتج الألبان واللحوم بينما لا يجده أبناء العالم الثالث (٨٩) .

وتشير الدلائل إلى وجود علاقة بين سوء التغذية والتأخر الدراسي (Tizard 1974, Pichardison Birch, Grubie, 1972) وقد قام العديد من البحوث بدراسة أثر سوء التغذية على :

- (١) نمو المنح .
- (٢) النمو العقلي (نسبة الذكاء) .
- (٣) القدرة على التعلم .

نمو المخ : ترتبط التغذية في السنين الأولى من حياة الفرد بالتغير الفيزيقي والكيميائي والوظيفي للجهاز العصبي المركزي ، كذلك يؤثر العدد المحدود من السعرات الحرارية Caloric في تقسيم الخلايا وفي العدد الكلي لخلايا المخ . كما أن سوء التغذية بعد الفطام يؤدي إلى انخفاض حجم خلية المخ (Winick 1973) ، كذلك فإن التفسير في كيمياء المخ ، ونشاطه الكهربائي يرتبط بالتغذية المبكرة . ومع هذا لم تتضح العلاقة بين عدد خلايا المخ وبين تركيبه الكيميائي والقدرة على التعلم ، فانخفاض القدرة على التعلم والذي يتبع سوء التغذية قد يعتمد لا على التغير في كيمياء أو عدد خلايا المخ لكن على البلادة التي تصحب سوء التغذية وتحدد علاقة الطفل بالبيئة .

النمو العقلي : يرتبط سوء التغذية في الطفولة المبكرة بتأخر النمو العقلي كما تم قياسه بالاختبارات النسبية المختلفة حيث وجد أن ذكاء الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية ينخفض انخفاضاً دالاً عن الأطفال العاديين . هذا ويلكز موكنبيرج Mockenberg (1968) أن التأخر في اللغة يكون شديداً الوضوح لدى الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية . ويؤكد كرافوتو Cravotto (1970) بأنه إذا كانت اختبارات الذكاء تتأثر بالثقافة فإن أحسن مقياس للنمو العقلي يتمثل في القدرة على التأزر والتكامل بين الحواس والجهاز العصبي المركزي ، وبينت نتائج دراسات (كرافوتو ، جاونز Oeona ، وبيرشى Birch 1967) أن هذه القدرة تكون متأخرة لدى هؤلاء الأطفال خاصة التأزر بين المشبهات السمعية والبصرية ، وتلك القدرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتعلم القراءة والكتابة .

القدرة على التعلم : من الدراسات التي أجريت عن العلاقة بين القدرة على التعلم وسوء التغذية لدى الأطفال تلك التي تمت في مركز بحوث الطفولة بجامعة نيواين بنيو أورليانز تحت عنوان «تأخر الأطفال الجوع في التعلم» ، وقد تم قياس القدرة على التعلم باختبارات تعلم أدائية ووجدت علاقة دالة بين سوء التغذية والتأخر في القدرة على التعلم (1967) .

وقد قام دازن Duren, P. R. (1973) بدراسة عن النمو الحسي الحركي

وأثر المتغيرات الاجتماعية الحضارية مثل سوء التغذية على النمو المعرفي في السنتين الأوليين من الحياة. فقام بإعطاء ٥٥ طفلاً في باولي Baoulo نصف المقدار المطلوب من السعرات والوحدات الحرارية والبروتينات، وفي نفس الوقت كانت عمليات الأيض (الهدم والبناء) لديهم عادية. وطبقت عليهم اختبارات يهاجيه الحسية الحركية فوجدت اختلافات طفيفة بينهم وبين العينة الأوروبية رغمًا من الفروق الكبرى بين الحضارتين، ويشير ذلك إلى أن النمو الحسي الحركي يعتمد أساساً على تغذية المخ (١٦٨).

وقد قام داوسون Dawson, J. L. (١٩٩٧) بدراسة عن أثر النواحي الفسيولوجية والثقافية على عمليات الإدراك المكاني في جنوب أفريقيا. وكان الفرض الذي اهتم داوسون باختباره يتعلق بأثر حضارة القبيلة Tribal Culture في سيراليون، ومرض نقص البروتين على المهارات الخافضة بالإدراك المكاني. فطبق اختبارات المكعبات وإدراك الصور، واختبار منسوتا على عينات من الأفريقيين، وأيدت نتائج التحليل العاملي للارتباطات بين الاختبارات الفرض السابق طرحه (١٦٩).

وقام جوثري Guthrie (١٩٧٦) وآخرون بدراسة ٥٦ طفلاً تقع أعمارهم بين ٦ - ٣٦ شهراً في قرية جبلية بالفلبين. فوجدوا أن ١٦ طفلاً منهم مرضى لم يستطيعوا الاستجابة على الاختبار العقلي لمقاييس بيلي Bayley للنمو، وأن ١٥ خمسة عشر حصلوا على درجات منخفضة بسبب سوء التغذية. وأوضح أن الأداء المنخفض كان جزءاً من الصورة الكلية حيث بدلت جهود كبرى لمنع الأطفال من البكاء والصراخ بإعطائهم جرعات من الطعام المشبع بالسكربات، وحملهم معظم الوقت حتى يمكن ملاحظتهم واختبارهم (١٧٠).

ونشر دراسة كابلان Kaplan, B. J. (١٩٧٢) أن عدم كفاية التغذية يؤثر في كل من النمو الفسيولوجي والنفسي. إذ تعتبر شهور الحمل التسعة، والسنوات الأولى من الحياة من أخرج الفترات بالنسبة لنمو نسيج المخ، وقد أيدت هذه الدراسة علاقة سوء التغذية بالضعف العقلي (١٧١).

كما قام مونكبرج Monckeborg (١٩٧٢) وآخرون بمقارنة مجموعة من الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية في المناطق المختلفة بمجموعة من أطفال الطبقة المتوسطة فلاحظوا تأخراً في النمو الحسي الحركي لدى أطفال المناطق المختلفة والتي أرجعت لانخفاض تناول هؤلاء الأطفال للبروتين الحيواني Animal Protein وأكدت النتائج أثر سوء التغذية في النمو العقلي (١٧٢).

وقد أجرى بولت وجرانوف Pollitt, E. & Granoff D. (١٩٦٧) دراسة على ٢٧ طفلاً في المناطق الفقيرة في مستشفى للعلاج في ليما بدولة بيرو، وكان هؤلاء الأطفال يعانون من سوء التغذية ونقص سعرات البروتين فطبقوا عليهم مقياس بيلي Bayley للنمو العقلي، ومقياس بيلي للنمو الحركي، وكان مدى عمر الأطفال من ١١ - ٣٢ شهراً بمتوسط ١٩،٤ شهراً. فوجدوا في النتائج أن اثنين من الأطفال حصلوا على درجات أعلى من المستوى القاعدي للمقياس. كما وجد لدى البعض تأخراً حركياً وعقلياً رغماً عن شفائهم جسدياً، وظهر كذلك تحسناً في درجة النمو الحركي نتيجة لاستمرار وجودهم بالمستشفى (١٧٣).

وقد قام شتاين Stein, Z. (١٩٧٢) وآخرون بمقارنة الأداء العقلي لـ ١٢٥٠٠ من الذكور متوسط عمرهم ١٩ عاماً، ولدوا في الفترة من ١٩٤٤ - ١٩٤٦، ويمشون في سبع مدن مطحونة من القمح Famine - Stricken City في جنوب هولندا. قورنوا بالأداء العقلي لمجموعة من الذكور، ولدوا في نفس الفترة في مدن لم تتأثر بالقمح. وأشارت النتائج إلى وجود علاقة قوية بين الطبقة الاجتماعية والأداء العقلي (١٧٤).

الذكاء والقدرات والفقر: يحصل الأطفال والشباب الذين يأتون من طبقات اجتماعية اقتصادية منخفضة على نسب ذكاء أقل من هؤلاء الذين يمشون في طبقات متوسطة أو عالية بما يتراوح بين ٢٠ - ٣٠ درجة. ويعتقد بعض السيكولوجيين أن هذه الفروقات راجعة لعوامل خاصة بالوراثة وأن المستوى الاجتماعي الاقتصادي يكون دوره جزئياً. في حين أن العلماء

السلوكيين يؤيدون التفسير البيئي لتلك الفروق بين المجموعات . وهناك الكثير من العوامل البيئية التي تؤدي إلى الفروق في نسبة الذكاء بين الفقراء وغيرهم . كالظروف الطبيعية ، وعدم العناية الخاصة بالأم قبل ولادة الطفل أي أثناء الحمل ، وسوء التغذية وكل ما يؤدي إلى التسمم والمرض والتي تكون واضحة لدى الأسر المنخفضة الدخل عن غيرها من الأسر العالية الدخل . وأن عملية تأثير المناخ النفسي الاجتماعي للفقراء على الذكاء فتحت باب النقاش لوجهات النظر الأربعة التالية ، والتي يبدو أنها متداخلة بعض الشيء :

١ - يرتبط الفقر بالزحام والضوضاء والفوضى وظروف الشدة والمعيشة المتغيرة Changing Living Conditions . وتحت مثل هذه الظروف يكون الصغار من الفقراء أقل احتمالاً أن يتعرضوا للتعرف على معلومات جديدة مثل أقرانهم في الطبقات الأخرى ، أو أن يعرفوا النظام مثلهم ، أو أن يتعلموا أن سلوكهم له آثار ونتائج معينة . ويبدو أن تلك الأنشطة : المعلومات ، النظام ، والتعلم ذات أهمية في تنمية الذكاء .

٢ - أن الصغار الذين ينتمون لمستويات اجتماعية اقتصادية منخفضة يستمعون لكلمات وأفكار ونواحي لغوية أقل مما يؤدي ذلك إلى الحد من التفكير والذكاء .

٣ - إذا كان الوالدان غير أصحاء ، وتغذيتهم سيئة ، وكثيراً ما يتعرضون للتعب والاجتهاد في عملهم ، فإنه من غير المحتمل أن يجدوا الوقت لمساعدة أبنائهم على تنمية قدراتهم وإذا كان الوالدان لديهم الرغبة لمساعدة أبنائهم فإنهما لن يعرفا كيف يكون ذلك لأن تعليمهما محدود وقدراتهما عاجزة .

٤ - عندما يختلط الأطفال من الطبقة المنخفضة مع بعضهم بعضاً في الأسرة فإن كل طفل سيكون نصيبه قسراً ذهنياً محدوداً من جانب الراشدين وكبار الأطفال . ولذا نجد أن الأطفال الذين ينتمون لأسرة كبيرة الحجم يحصلون على درجات ذكاء أقل من الأطفال في الأسر الأصغر .

وقد وجد العالمان ريك هير Rick Heber وهوارد جاربي Howard Garbee بعد المسح الذي أجري على حي ملويكي Milwaukee للفقراء ، أن الأمهات الحاصلات على درجة ذكاء أقل من ٨٠ ونسبتهن ٤٥,٥٪ من العينة يرعين ٧٨,٢٪ من أطفال نسبة ذكائهم أقل من ٨٠. ولقد حاول هذان العالمان اقتراض إمكانية منع التأخر في الذكاء فوضعا مشروعاً سمي مشروع ملويكي M. Project شمل أربعين من الأمهات نسبة ذكائهن أقل من ٧٠. وقسموهن عشوائياً إلى مجموعتين إحداهما تجريبية والأخرى ضابطة، وعندما كانت الأم تعود من المستشفى بمولود جديد كان البرنامج العلاجي الذي يتضمنه المشروع يبدأ. فتعرضت الأمهات في المجموعة التجريبية لتدريب مهني وتدريب على الأعمال المنزلية الصحيحة، وتدريب على كيفية العناية بالرضيع. كما أن أطفالهن قد تعرضوا هم الآخرون لعمليات من التنبيه الحسي وتعلم اللغة والقدرة على التفكير. وفي خلال مرحلة عمر ما قبل المدرسة تعلم الأطفال مهارات معرفية تضمنت اللغة في جماعات صغيرة، كما وجه الانتباه والاهتمام لنواحي القوة والضعف لدى الصغار. هذا بينما ترك الأطفال في المجموعة الضابطة للظروف العادية ما عدا المواقف التي تضمنتها البرنامج العلاجي للمشروع. وفي سن الخامسة والنصف كانت الفروق بين المجموعتين مثيرة إذ وصلت نسبة ذكاء الصغار في المجموعة التجريبية ١٢٤ درجة وفي المجموعة الضابطة ٩٤ درجة بفارق ثلاثين درجة. وفي الدراسة التتبعية عند سن التاسعة وكان برنامج المجموعة التجريبية قد انتهى وجداً أن المجموعة التجريبية أصبحت أعلى بمشرين درجة من الضابطة أي أن الذكاء فيها قد انخفض لتوقف التدريب. والسؤال المطروح هو إلى أي مدى تدوم مثل هذه النتائج بانتهاء التدريب ؟

ولقد لخص بعض العلماء السلوكيين نتائج أثر البرامج التعليمية على نسبة الذكاء بقولهم إن الأطفال ذوي المستويات الاجتماعية الاقتصادية المالية يبدأون الدراسة في المدرسة ولديهم الأساس العقلي القوي إذ يكونوا قد تعلموا بعض الواجبات المدرسية الأولية مثل تذكر الأعداد والحروف

الهجائية . وتكون لديهم الفة عن كيفية التعلم كالاستماع ، والجلوس بهدوء ، واطاعة أوامر أولي السلطة ، في حين أن أطفال الطبقة المنخفضة لا يكتسبون مثل هذه المهارات فتبدو القواعد والنظم المدرسية غير واضحة بالنسبة لهم .

وفي نهاية الأمر نستطيع القول بأنه لا يمكن ارجاع الفروق في الذكاء للفروق الاقتصادية دون أن نلفت النظر إلى أن الأطفال الذين يأتون من أحياء فقيرة لا يكون موقف اختبار الذكاء نفسه مألوفاً بالنسبة لهم . فهم لا يألون التعليقات ولا المواقف التي تتضمنها الأسئلة . فمثلاً يتردد سؤال في أحد اختبارات الذكاء وهو : ماذا تفعل لو ذهبت لشراء شيء ما من محل البقالة ولم تجد هذا الشيء ؟ . إن الإجابة الطبيعية لمثل هذا السؤال هي الذهاب لمحل آخر ، لكن ما هي الإجابة عندما لا يكون في منطقة الفقراء سوى محل واحد للبقالة مثلاً والذهاب لمنطقة أخرى يعرضهم للخطر .

وقد بينت الدراسات التي أجراها ألفريد بلدوين Alfred Beldwin من جامعة نيويورك أن الأطفال الذين يعيشون في بيوت تسمح لهم بمناقشة القرارات ، تكون حصيلتهم في الذكاء أعلى من الأطفال الذين يكون أبائهم متساهلين أو غير مكترئين ، ويطلبون من أطفالهم الطاعة دون نقاش كما لو كان الأب يقول لابنه «لا تفكر» . أي أن أسلوب الوالدين في التربية والتشجيع يرتبط بذكاء وقدرات أبنائهم .

ومن الدراسات التي تزيد ما سبق تلك التي أجريت على تلاميذ مدارس حي الإمام ، وحرب اليسار (حي من الأحياء الفقيرة بمدينة القاهرة) وتبين فيها أن ٩٪ من تلاميذ هذه المدارس قد حصلوا على درجات ذكاء أقل من ٧٠ وهي درجة تشير إلى الضعف العقلي ، وتبين أيضاً علاقة هذه النتيجة بالمستوى الاجتماعي الاقتصادي لهؤلاء التلاميذ (٥٨) .

الفصل الثاني عشر

الذكاء والقدرات العقلية في إطار عبر حضاري

مقدمة : يقع الذكاء والقدرات في إطار علم النفس المعرفي المقارن Comparative Cognitive Psychology حيث يعرف كنهجستون Kingston.J.W.P. وآخرون في مقدمة كتاب «الحضارة والمعرفة : قراءات في علم النفس عبر الحضاري» اصطلاح «معرفة» Cognition بأنه يعني كل نواحي الحياة النفسية الخاصة بالإدراك والتنظيم واستخدام المعلومات المكتسبة من العالم الخارجي ويتأكد ذلك من خلال الموضوعات التالية والتي تتضمن : الثقافة والعمليات المنطقية ، والسلوك اللغوي وغير اللغوي ، والإدراك المكاني ، والذكاء ، والقدرة على التصنيف (١٨٠) .

ويذهب جورج George F.H. (١٩٦٢) في كتابه «المعرفة» Cognition إلى أن المعرفة تعني الطريقة التي بها يدرك ويتعلم بنو البشر ، والتي بها يتذكرون ويشغلون ، وبها أيضاً تعمل عقولهم في أنشطة الحياة العادية (١٧٥) .

ويذهب نيسر Neisser (١٩٦٧) إلى أن المعرفة هي العمليات التي

تمكن الفرد من استقبال المعلومات من خلال حواسه (١٧٦). أما مورجان Morgan (١٩٧٦)، فيرى أنها مجموعة العمليات العقلية كال تفكير والإدراك والتخطيط والتذكر والانتقاء (١٧٧). ويدفع فرانكن Franken (١٩٨٢) إلى أن المعرفة تشكل التفكير والاستقبال والتجريد، وكافة العمليات التي تعين الكائن على أن ينظم بين الوارد الخارجي وبين بناء شخصيته (١٧٨).

كما يعرف كنجستون أيضاً اصطلاح الحضارة بأنه ذلك النسق من السلوك المشترك للجماعة والذي ينتقل بالتعلم من جيل لجيل (١٨٠).

ولا بد في هذا المقام أن نميز بين «المعرفة والحضارة» وبين «الشخصية والحضارة» حتى نستطيع متابعة النواحي التاريخية والمنهجية. لاهتمام السيكولوجيين الحاليين بتلك الأعمال في ميدان المعرفة والحضارة والتي أهملت دراستها بعض الشيء. وفي نفس الوقت فإن ذلك يفيد في معرفة الفروق في وجهات النظر السيكولوجية والأنثروبولوجية في دراسة «المعرفة والحضارة».

المعرفة والشخصية من منظور حضاري: عزل السيكولوجيون فيما مضى مقاييس المعرفة عن اعتبارات الشخصية، رغماً من أنه لا يوجد شك في أن علماء الشخصية الأوائل (مثل البورت ١٩٣٧ وميرفي ١٩٤٧) قد تضمنت نظرياتهم الوظائف المعرفية. وقد أدى هذا إلى وجود تقسيم في علم النفس النظري خاصة في المناهج، بين دراسة الحياة الانفعالية الاجتماعية ودراسة الحياة العقلية.

وقد نظر باتسون ١٩٣٦ إلى هذا التمييز من وجهة نظر الباحث الميداني في الأنثوجرافيا Ethnographic أي علم الأعراق البشرية مقدماً اصطلاحين خاصين بهذين الجانبين:

الأول المزاج Ethos، والثاني العقل Eidos، وعرف الأول بأنه ذلك النسق المقتن حضارياً والذي يشمل غرائز وانفعالات الفرد، والثاني بأنه تلك النواحي المعرفية المقتنسة من شخصية الأفراد. وكما أشار جلاودين

Gladwin فإن الأول يدرس كثيراً من وجهة النظر عبر الحضارية في حين أن الثاني يدرس هذه الواجهة من النظر بصورة أقل من ذلك بكثير من ذلك. ويشمل تعريف باتسون Bateson للعقل تلك النواحي المعرفية المتضمنة في الشخصية بمعناها الأوسع من منظور علماء نظريات الشخصية الأول. أما والاس Wallace (١٩٧٠)، فقد نظر للتنظيم المعرفي للفرد في إطار نظريته للشخصية والحضارة كما عند هونجمان Honigman (١٩٦٧).

تلك الاتجاهات الحديثة لدى الأنثروبولوجيين للنظر لنمو السلوك في الوسط الحضاري نظرة متكاملة لا تمثل جديداً لعلماء النفس.

النواحي التاريخية : من السيكولوجيين الذين اهتموا بدراسة الذكاء والقدرات والجوانب المعرفية في إطار حضاري مكدوجل ، وودورث ، وفونديث وبارتلت. أما الأنثروبولوجيون الذين شغفوا أيضاً بالبحث في الموضوع فكان على رأسهم ريفرز Rivers ، وبواز Boas ، ونادل Nadel. وقد قام الفريقان بدراسات تشعبت بكل من الاتجاه النفسي والأنثروبولوجي. وتوجد أربع مقالات تصور لنا تلك الأعمال المبكرة هي :

١ - الأولى لكل من ريفرز ، ومكدوجل والتي اهتمت بالعمليات المعسية والإدراكية في المحيط الحضاري المدخيل أو الغريب Exotic Cultural Setting.

٢ - والثانية لبواز Boas والتي اهتمت بالمضمون الحضاري والنمو العقلي.

٣ - والثالثة لفونديث حيث قدم فيها بحثاً عن الأساس العقلي للتطور الحضاري.

٤ - والرابعة ألفها ليفي بريل Levy Brull واهتمت بالتصورات الخاصة بهوية العمليات العقلية في الجماعات البشرية.

وريفرز: وفي هذا الصدد لا بد من أن يذكر ذلك العمل الضخم الذي قام به الأستاذ هادون A.C.Haddon في جزر توريز ستريتش Torres Straits

Islands (تقع بين أستراليا ونيوزيلندا) في عام ١٨٩٩ ، والذي تمثل في قيامه بعمل ميداني في هذه الجزر ، واتصاله بالناس هناك ، وجمعه معلومات مثلت الكثير بالنسبة للسيكولوجيين في الميدان .

وقد اختير دكتور ريفرز W.H.Rivers ليكون مشغولاً عن الدراسات الفسيولوجية والسيكولوجية وعاونه فيها مايرز Myers ، ومكدوجلل Mc.Dougall ، وسليجمان Seligmann . وقد ناقش ريفرز (١٩٠١) في مقدمة مقاله كثيراً من مشكلات البحوث مثل : الإطار الحضاري ، مشاكل الاختبارات والقياس في هذا الإطار ، والتغيرات التي يتم إجراؤها في الاختبارات لتناسب الظروف المحلية ، ومشكلات العينات في المجتمعات المحلية . وقد شعر ريفرز بأنه مجبر على القيام بتقديم ملاحظتين اعتدائيتين تتعلق بهذا العمل حيث ذهب إلى القول :

١ - إنه خائف لأن الناحية الاستنباطية من التجريب النفسي كانت غالبة كلية من أعمالنا .

وقال أيضاً :

٢ - إنه من الضروري أن نذكر أن معظم ملاحظتنا على الشباب قد أجريت تحت تأثير التدخين (التوباكو) .

وقد قام فريق ريفرز بعدد كبير من الملاحظات عن الذاكرة والوظائف الإدراكية في الأبصار وفي السمع وفي الشم وحساسية الجلد . وكان هدف هذه الملاحظات إجراء المقارنات للكشف عن أي هذه الظواهر السيكلوجية الأساسية يكون مختلفاً اختلافاً كبيراً بين هؤلاء الناس غير العاديين . وقد وضعت ملاحظاتهم إلى جانب البيانات والمعلومات المستمدة من الدراسات السابقة في بريطانيا ، ومن دراسات سليجمان Seligmann المتطابقة معها ، والتي أجريت على سكان شاطئ بابوا Papua Coast شمال جزر توريز سترينس . وبعد ذلك قام ريفرز (١٩٠٥) بوضع هذه البيانات والمعلومات إلى جانب تلك التي جمعها من أعماله في جنوب الهند عن سكان تودا Toda People ،

وبهذه الصورة انضحت له الرؤية المقارنة .

وبالنظر إلى هذه البيانات مجتمعة ، يتبادر إلى الذهن سؤال هو ما الذي توصل إليه فريق ريفرز من خلالها ؟

وبالنسبة لحدّة الأبصار والذي ذهب الباحثون السابقون إلى أنه يكون أعلى لدى غير الأوربيين أشار ريفرز إلى أنه رغم تفوق البدائيين واتصاف المتحضرين بحدّة الأبصار عن الأوربيين المعاصرين ، إلا أن ذلك ليس بتوجّه بارز ملحوظ . وبسبب هذه التقارير الأولى وضع ريفرز تمييزاً بين التفوق في حدّة الأبصار وبين قوة الملاحظة المعتمدة على عادة مشاهدة وتمييز أي إشارات دقيقة صادرة من عضو الحس . كما أضاف ريفرز : « إلى أنه بالمران الطويل المستمر في مشاهدة التفاصيل الدقيقة في المحيط المألوف للفرد يكون الإنسان البدائي قادراً على أن يرى ويتعرف على الأشياء البعيدة بطريقة تبدو خارقة ، لكن به من المشكوك فيه أن تكون قوته البصرية متفوقة على تلك التي لدى الأوروبي » .

وقد أكدت الملاحظات على التوداس The Todus ما سبق حيث لا يوجد فرق في حدّة الأبصار بين البدائيين والمتحضرين .

وهكذا فعلى الرغم من أن ريفرز أشار إلى وجود تفوق ضئيل في حدّة الأبصار لدى غير الأوربيين ، فإنه قبل وجهة النظر بأنه بالمشاهدة الكثيرة للتفاصيل الدقيقة فإنهم يصيرون ذوي مهارة أكبر في الأبصار . ولم يكف ريفرز بذلك في تحليله بل ذهب إلى أن هذا التأكيد على الجانب الحسي يشير إلى غلبة العيانية Concrete في التفكير لدى غير الأوربيين ، كما يعتبر التدقيق في التفاصيل من هذا النوع لدى غير الأوربيين إعاقاً لنمو العمليات العقلية العليا .

ومن المعروف أن النمو الذهني يعتمد على ما يتم التزود به من الحواس ، ولذا قد يبدو للوهلة الأولى غريبة أن مد الجانب الحسي للحياة العقلية يكون عائقاً للنمو الذهني ، لكن لكثير من الاعتبارات لا يوجد شيء

غريب بالنسبة لهذه الحقيقة . إذ أنه إذا أنفقت أو استهلكت طاقة أكثر في الأداء في الجانب الحسي فإنه من الطبيعي أن تعاني من ذلك العمليات العقلية العليا أي يكون ذلك على حساب تلك القدرات . وقد يبدو من الممكن بالتالي أن تكون زيادة التمرن في الجانب الحسي للحياة العقلية عاملاً مساعداً في ظهور خصائص أخرى لدى العقل البدائي . ويقول ريفرز إنني أظن أن الرجل البدائي لا توجد لديه اهتمامات جمالية بما حوله في الطبيعة مثلما لدى الرجل المتحضر ، فالخبرة تشير إلى أن الاهتمام المسبق لدى البدائي نحو الأشياء الميانية تفوق نمو العمليات العقلية لديه . وقد أشار ورنر (١٩٤٠) ، وبراييس ، ويليامز (١٩٦٢) إلى ذلك بين الجماعات الحضارية . إلا أن هذه الحقيقة رفضها تشنر (١٩١٦) لعدم كفاية الاختبارات من حيث أهدافها ، ودأى ضرورة قيام تعاون بين البحوث المعملية والميدانية . ومن الضروري في الاختبارات التي نستخدم في هذه البحوث أن تكون قادرة على الأداء في وقت قصير نسبياً وأن تكون الأجهزة سليمة ودقيقة وتكون بسيطة التداول ووخيفة الثمن .

بوان: أهتم بواز Boas ببلورة آرائه السيكولوجية في كتابه (١٩١١) عن «عقل الإنسان البدائي» حيث تناول فيه موضوعات مثل : السمات العقلية للرجل البدائي ، والرجل المتحضر ، وبعض سمات حضارة البدائي .

وقد أكد لي آرائه تلك على : خاصية امتلاك اللغة ، واستخدام الأدوات ، والقدرة على الاستنتاج والتي تميز الإنسان عن باقي الحيوانات ، وتلك الخاصية تكمن في قدراته المعرفية أكثر من حياته الانفعالية والدافعية .

ومن كيفية اختلاف الرجل البدائي بالنسبة للرجل المتحضر يقول بواز : إن التفكير وأعمال الرجل المتحضر ، كذلك ما نجده لدى أكثر صور المجتمعات بدائية يشير إلى أن العقل في مختلف الجماعات يختلف في استجاباته عندما يتعرض لنفس الأحوال والظروف .

وفي هذا الصدد فإن أهم ما يميز استجابات البدائي النقص في

العمليات المنطقية ، وفي القدرة على ضبط الإرادة ، وكذلك الأمر بالنسبة لتكوين الآراء والمعتقدات فإنه ينقصهما الأساس المنطقي وذلك لتشبع الآراء لديهم بالعامل الاتقالي والذي يكون المحرك الرئيسي للعقل .

ويذهب بواز إلى أن هذا الاختلاف يكون في المستوى Content وليس في العملية Process . إذ من المعلوم أن هناك تفسيرين للمظاهر المختلفة لعقل الإنسان . فقد تظهر العقول التي تنتمي لسلالات مختلفة فروقاً في التنظيم ، أي أن قوانين النشاط العقلي ليست هي نفس الشيء بالنسبة لكل العقول . لكن قد يتشابه أيضاً تنظيم العقل عملياً لدى كل سلالات الإنسان ، أي أن النشاط العقلي يتبع نفس القوانين في كل مكان ، لكن مظاهره تعتمد على خبرة شخصية الفرد والتي تخضع لفعل هذه القوانين .

فونددت : أضاف فونددت Wundt إلى إسهاماته في علم النفس التجريبي والفسولوجي فيما بين أعوام ١٩١٢ - ١٩٢١ عشر مجلدات في علم نفس الجماهير Folk Psychology . ولم يكن الأمر لدى فونددت كما كان لدى بواز الذي أكد على سياق ومحتوى النمو العقلي ، بل إن فونددت أكد على الأساس العقلي للنمو والارتقاء الحضاري .

فذهب فونددت إلى وجود تفسيرين كبدايتل بالنسبة للقدرة العقلية المنخفضة . الأول يختص بالطبيعة المحدودة للرغبات والحاجات ، فالرجل البدائي يعيش في غابة مليئة بالطعام والفاكهة ليأكل ، وبالمواد الخام ليعد ملابس ويبنى كوخه . ومن ثم فإنه يفتقر للدافع للكفاح من أجل أشياء أخرى إلا هذه الوسائل البسيطة لإرضاء رغباته . فهو لا يبحث عن شيء أكثر من ذلك ، فهو إما يجد كل ما يحتاجه في بيئته أو أنه يعرف إنتاج هذه الحاجات من المواد الخام المتاحة له . والبديل الثاني في نظر فونددت يتمثل في نبات الظروف لطول العزلة . وقد ذهب فونددت مثل بواز إلى اعتبار هذه النواحي نقصاً ذهنياً . وأشار إلى أن ما يمتلكه الرجل البدائي من النواحي الذهنية مساو تقريباً لما يمتلكه الرجل المتحضر ، لكن الرجل البدائي يدرّب قدراته في حدود ضيقة ، وبالتالي فإن أفقه ضيق نتيجة وجوده تحت هذه الظروف .

وبهذا فإن فوندت يتفق مع بواز في أن السياق الحضاري والبيئي ومحتوى
الذهن يعطي أساساً كافياً لاختلاف الفرد وسلوك الجماعة .

ليفى بريل : وجاء ليفى بريل Lucien Levy-Bruhl ليتناول ما تناوله بواز
وفوندت في كتابه : كيف يفكر الناس عام ١٩١٠ ، والعقلية البدائية (١) عام
١٩٢٣ . ويذهب ليفى بريل في أفكاره إلى أن : العمليات العقلية لدى
البدائيين لا تتطابق مع تلك لدى المتحضرين .

ويضيف ليفى بريل إلى أن البدائيين لا يدركون بنفس الطريقة التي
ندرك بها . فالوسط الاجتماعي الذي يحيط بهم يختلف عن ذلك المحيط بنا ،
ونظراً لذلك فإن العالم الخارجي الذي يدركونه يختلف عن عالمنا . ومما لا
شك فيه فإنهم لديهم نفس الحواس التي لدينا بل إن حواسهم أكثر حدة من
حواسنا ، كما أن لديهم نفس الجهاز العصبي . ومهما كانت الأشياء التي
تعرض أمام عقولهم ، فإن المحتوى المتضمن فيها محتوى عيني خرافي كلية .

وبالنسبة للعمليات العقلية ذهب ليفى بريل إلى أن تفكير «البدائي»
تفكير «قبينطقي» Prelogien ولم يعتبره تفكيراً غير منطقي Antilogical ، فهو
يختلف فقط عن قوانين تفكيرنا المنطقي .

الموضوعات الكبرى في بحوث الحضارة والمعرفة : مرت الأعمال
المبكرة لمشكلات الحضارة والمعرفة (العمليات المصرفية) بالاهتمام أولاً
بالعمليات المصية والإدراكية ، ثم مناقشة العمليات الحياتية والمجردة والتفكير
«القبينطقي» . أما الموضوعات الكبرى التي تعكس الأعمال المستمرة
للباحثين فهي تتطور من خلال التساؤلات التالية :

أولاً : هل طبيعة الخبرة الحضارية تعبر أو تشكل العمليات المعرفية ،
أي هل الأشخاص الذين يعيشون في مجتمعات مختلفة يمتلكون عمليات
معرفية تتناسب مع وسطهم الحضاري ؟ . ويتصل بذلك تساؤل آخر هو : ما

(٥) ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور محمد الناصر وراجعه الدكتور حسن الساعاتي .
قسم الترجمة بالإدارة العامة للتقانة - وزارة التربية والتعليم ، مكتبة مصر بالقاهرة .

هي العلاقة بين النواحي الغالبية والسائدة من العمليات المعرفية لدى فرد ما وبين النواحي الحضارية المفضلة^(٩٠). ورغم أن أنه لا توجد فروق في العمليات المعرفية الممكن استخدامها فإن عمليات معينة تستخدم فعلاً (باستثناء الأخرى)، وهذا يعني ظهور فروق كيفية واضحة في العمليات المعرفية.

ثانياً: هل توجد فروق كمية في العمليات المعرفية لدى الجماعات الحضارية المختلفة؟ هل بعض الجماعات تكون أكثر مقدرة، وأكثر كفاءة فيما لديهم من عمليات معرفية؟

ومهم جداً أن نتساءل: يكونون أكثر مقدرة في ماذا؟ وأكثر كفاءة في ماذا؟، وأكثر ذكاء في ماذا؟.

وهنا تظهر الأسئلة التي تعكس النواحي الحضارية والعرقية (السلالات): هل التفكير المنطقي والمجرد^(٩١) أحسن من التفكير القيمي المنطقي والقيمي؟ وهل توجد مقاييس نقية حضارياً أي لا تتأثر بحضارة ما لقياس العمليات المعرفية والذاكرة وغيرها؟

ثالثاً: هل خصائص نمو العمليات المعرفية كمية كانت أو كيفية متشابهة لدى كل الجماعات الحضارية فإذا كانت نخضع لعمليات التضييق فلأننا نتوقع وجود اختلافات عبر حضارية قليلة، أما إذا كانت نتيجة للنواحي الحضارية فلأننا نتوقع وجود أوجه شبه قليلة عبر الحضارات.

وهذه الأسئلة الثلاثة السابقة لا زالت تواجه السيكولوجيين حتى اليوم، وهي تتضمن موضوعات أكثر تعقيداً مما يصوره العرض السابق لها. وما يشير لذلك أن الكثير من البحوث قد حاولت الإجابة عن الأسئلة السابقة إلا أن الإجابات المقدمة كانت إجابات غير واضحة.

(٩٠) أي هل تفصيل الفرد لسراج مينة في حفارته (كالصيد أو القراءة - أو الفروسة - أو التجارة - أو السياسة) يرتبط بوجود عمليات معرفية مرفوعة ومألدة لديه.

(٩١) كذلك الذي يتضح في اختبار التشابهات في مقياس وكسلر بلفرو للذكاء.

النواحي المنهجية في دراسة المعرفة والحضارة: يطرح السؤال الآتي نفسه منذ بداية الكلام عن النواحي المنهجية الخاصة بالعمليات المعرفية في إطار حضاري وهو: لماذا يهتم السيكولوجيون بدراسة الوظائف المعرفية في مواقف حضارية مختلفة؟ وتوضح الإجابة في أن الدراسات النفسية المعرفية المقارنة لا تهدف إلى الكشف عن أي الأشخاص يكون ماهراً، وأيهم يكون أنيقاً أو ذكياً وأيهم لا يكون كذلك، وأن الأهداف التي تسعى الدراسات المعرفية المقارنة التوصل إليها هي:

(١) يحاول علم النفس المعرفي المقارن Comparative Cognitive Psychology فهم العمليات المعرفية، ومداها، والفسوق فيها كنتيجة للمتغيرات الحضارية.

(٢) كذلك يحاول علم النفس المعرفي المقارن فهم التشابه والتماثل في العمليات المعرفية عبر الحضارات. حتى يكون التعميم صادقاً.

(٣) محاولة اختبار الفروض والقوانين التي تم التحقق منها في أحد الحضارات، في حضارات أخرى للكشف عن مدى تطبيقها وعموميتها.

الأدوات: وللتوصل للأهداف السابقة يجب أن يتبنى السيكولوجيون استراتيجية للبحث، ومجموعة من طرائقه، خاصة تلك الأدوات والتي تشار حولها ثلاثة أسئلة من أجل تحقيق الأهداف السابقة، وهذه الأسئلة هي:

(١) متى نقارن؟

(٢) ما العدد الذي يقارن؟

(٣) كيف نقارن؟

وقد أجاب على السؤال الأول كل من ديوجكر Duijker وفريجيدا Frijda (١٩٦٠)، جامودا Jahoda (١٩٦٦) إذ قالوا إن المقارنة تكون ممكنة فقط عندما يكون هناك تماثل في الأبعاد Dimensional Identity أي أنه عندما يقع سلوكان على بعد واحد فإنه يمكن ربطهما ببعض من أجل المقارنة مثلما نقارن البرتقال بالفاح. وأضاف كامبيل Campbell (١٩٦٤) إلى أنه

عندما يوجد التماثل أو التشابه الإدراكي Perceptual Similarities فإن الفروق في الإدراك بين الجماعات يكون لها معنى ويمكن تفسيرها، لأنه من غير الممكن أساساً أن تكون المقارنة صادقة إذا كان هناك العديد من التفسيرات البديلة (مثل عدم الكفاية الحسية أو فشل الاتصال) التي لا يمكن أن تكون واردة في البحث. وبعد ذلك فإن المقارنة على أساس عملي للوظائف المعرفية بين الحضارات تعتبر قاعدة عامة شملت المنه، والكائن الحي، (البعد الواحد) والتفاعل بينهما.

وقد كانت هذه القاعدة العامة أي البعد الواحد أساس البحث أيضاً في الجانب البيولوجي للوحدة النفسية لبني البشر (كروبر ١٩٤٨، والاس ١٩٦١)، وفي إثبات عالمية الحضارات وبصرف النظر عن أصلها أو أصولها فإن البعد الواحد يكون أساسياً، لأن المقارنة الصادقة تتم فقط عندما توجد مثل هذه الاستمرارية.

أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني الخاص بعدد العناصر التي يجب أن تكون في المقارنة فإنها لاقت في العادة اهتماماً ضئيلاً من السيكلوجيين. إذ تضمنت المقارنات النموذجية عنصرين فقط، واللذان يكونان في الغالب جماعة حضارية غربية وأخرى غير غربية.

وفيما يتعلق بالسؤال الثالث الخاص بنية أو نظام إجراء المقارنات السلوكية عبر الحضارات (أي كيف نقارن كما جاء في السؤال الثالث) فقد صالغ بري Berry (١٩٦٩) هذا الموضوع، كما اقترح العديد من المحركات والأدوات الناجمة،

(١) التماثل في الوظيفة.

(٢) التماثل في المفاهيم.

(٣) التماثل في القياس.

وكل منها يتم ضبطه وتطويره وفق سياق ونظام المقارنة وقد ذهب جولد شميدت Gold Schmidt (١٩٦٦) إلى أن مقارنة خواص الحضارة المختلفة

تتم عندما تكون متعلقة بمشكلات متماثلة وظيفياً ، بمعنى أن المقارنة الصادقة تكون بين مؤسستين في نظامين حضاريين اجتماعيين يواجه كل منهما مشكلات متماثلة يحاول إيجاد حلول لها .

وبالنسبة للسيكولوجي الذي يهتم بإجراء المقارنات السلوكية عبر الأنظمة الحضارية الاجتماعية المختلفة لا بد له من أن يتأكد من وجود تماثل وظيفي Functional Equivalence قبل المقارنة حتى لا يواجه بأشكال سلوكية مرتبطة ببعضها^(١) ، أو بأهداف لا علاقة بين بعضها البعض .

ويتم تحديد التماثل الوظيفي من خلال الكشف عن هدف السلوك الذي تتم دراسته ، ومن خلال أسلوب المقارنة المستخدم (بيرى ١٩٦٩) والذي يتفق مع الأهداف الأساسية الثلاثة التي سبقت الإشارة إليها وهي :

- ١ - نقل واختبار الفروض الحالية الموجودة فعلاً .
- ٢ - الكشف عن أية اختلافات جديدة .
- ٣ - المقارنة من أجل التوصل لفروض أو قوانين عالمية .

وكان بايك Pike (١٩٦٦) أول من درس الفروق الأساسية التي تتفق وهذا الإطار وطوره فرنش French (١٩٦٣) . ويختص هذا (أي دراسة الفروق) بالتمييز بين الصوتيات Phonetics ، أي ما يتعلق بالأصوات الكلامية المنطوقة ، فالأصوات عند المتحدث تتكون من منطقة الجهاز الصوتي وما يتضمنه من الوترين الصوتيين واللسان والشففتين ، وبين الوحدات الصوتية Phonemics أي دراسة اللغة باعتبارها رموزاً صوتية فحرف السين وحدة صوتية ، وحرف الصاد وحدة صوتية ، وتعتبر كل من هاتين الوحدتين الصوتيتين

(٥) تطوّر الاحتفال بولاء النيل مثلاً لا يمكن مقارنتها مع ثقافة أخرى لأنها لا تحدث إلا في مصر . وثقافة الاحتفال بالمولد النبوي لا يمكن مقارنتها إلا بثقافة عربية تحتفل به وليس بثقافة أمريكية أو هندية . وكذلك فإنه من المعروف أن مصر تختلف عن بريطانيا في النظام الاقتصادي ، وإذا كان بيع اللطاع العام في بريطانيا يمثل تجربة ناجحة فإنه لا يعني ذلك بالنسبة له مصر فلا يصح المقارنة بينهما في هذه الناحية .

(ص ، ص) ومزيج مختلفين في العربية لو تم وضع كل منهما مكان الآخر في الكلمتين الآتين مثلاً لا يختلف المعنى : سائر ، صائر رغمًا من اتفاق الكلمتين في باقي الحروف . وقد قدم بايك صياغة مبتكرة لهذين الاصطلاحين^(٥) فسمى الصوتيات بالحروف الأربعة الأخيرة منها وهي Elic ، وسمى الوحدات الصوتية بالحروف الأربعة الأخيرة منها وهي Emic . وتتضمن دراسة الوحدات الصوتية Emic البحث عن الأصوات المستخدمة في لغة ما ، في حين أن البحث في الصوتيات Elic يحاول التعميم من دراسة الوحدات الصوتية في لغة الفرد إلى عالم عالمي Universal Science يغطي كل اللغات . أي أن الوحدات الصوتية تكون خاصة بمجتمع معين ، في حين أن الصوتيات عالمية ولا تختص بحضارة أو مجتمع معين .

وقد تم جمع القائمة الآتية من تعليقات وملاحظات بايك (١٩٦٦) والتي توضح التمييز بين الصوتيات Elic والوحدات الصوتية Emic .

أولاً : الوحدات الصوتية (الخصوصية) ، Elic :

- ١ - تدرس السلوك داخل النسق .
- ٢ - تدرس حضارة واحدة .
- ٣ - تكتشف البنية بواسطة المحلل .
- ٤ - المحركات تتعلق بنواح داخلية .

ثانياً : الصوتيات (العمومية) ، Emic :

- ١ - تدرس السلوك خارج النسق .
- ٢ - تدرس عدة حضارات وتفاوتها ببعض .
- ٣ - البنية من إبداع وخلق المحلل .
- ٤ - المحركات مطلقة أو عالمية .

وتشبه وجهة نظر ستيرفانتس Sturtevant (١٩٦٦) الخاصة بفلم

(٥) جاء ذكر هذين الاصطلاحين في أكثر من مكان بالكتاب لتأكيد ارتباطهما بالموضوعات التي طرحت في كل مكان .

الأعراق البشرية Ethnoscience وصف السلوك أو الثقافة بوصف الخصوصية
Emic

والمشكلة تتركز في كيفية وصف السلوك بلغة تكون مفهومة بالنسبة
للأفراد في حضارة ما (النظرة الخاصة بـ Emic والمتعلقة بالهدف الثاني)
وفي نفس الوقت يمكن إجراء المقارنة الصادقة للسلوك في هذه الحضارة مع
حضارة أخرى أو أي عدد آخر من الحضارات (الهدف الخاص بـ
Etic والمتعلق بالهدف الثالث). والحل المقترح (بيزي ١٩٦٩) لذلك يتضمن
التطبيق الأساسي للفروض الخاصة بالسلوك بتناول مشكلة من مشاكل
البحوث من بعض الجوانب، ويكون الجانب التقليدي مشابهاً للهدف الأول
من الأهداف الثلاثة السابقة: وتسمى هذه بوجهة النظر الداخلية (داخل
الحضارة) الموضوعة (المفروضة) Imposedetic Approach. وعند القيام
بذلك لا بد من التعرف على الأصول الحضارية الخاصة (وربما الأصول
السلالية) بوجهة نظرنا، مع الإدراك والتضمن الكافي والتدقيق في أي بيانات
مختلفة أو جديدة. وإذا تناولنا أي جانب من جوانب السلوك في حضارة
أخرى ونعرف أن مدخلنا هذا (خارجي موضوع - عبر الحضارة) من المحتمل
أن يمثل تقديراً يفتقر لفهم السلوك في ذلك النسق، فإننا نكون قد تجاوزنا
للعقبة الكبرى.

التماثل في المفاهيم: قدم سيرز Sears (١٩٦٢) موضوع التماثل في
المفاهيم والذي يتضمن التأكيد على أن أدوات البحث (المفاهيم -
الاختبارات - الأجهزة) يجب أن يكون لها نفس المعنى لدى مجموعات
المقارنة. وللتوصل لذلك لا بد من ترجمة المفاهيم والأدوات إلى لغات
جماعات المقارنة، والإستعانة بمفسر مستقل، فإذا تطابقت الترجمة مع
الأصل أو كانت قريبة منها فإن ذلك يشير إلى التماثل بينهما، وإن وجه لها نقد
من حيث وجود تفسيرات بديلة.

التماثل في القياس: ويتعلق ذلك بمقارنة النتائج بين الجماعات
الحضارية المختلفة، وقد وجد أن المقارنة على أساس متوسط الدرجات غير

كأنه للتوصل لمقارنات سلوكية. صلاته بين الحضارات. وتوجد في هذا الصدد صورتان من صور التماثل في القياس استخدمتا في المقارنات الحضارية الأولى: صدق النسق الفرعي (Subsystem Validation)، والثاني: الصدق العاملي. وفي الأول يتم اختبار الفروض داخل الحضارة، وفي الثاني عبر الحضارات. وبهذا يتم اختبار المتغيرات على مستويين. والمثال على ذلك ما قام به بري Berry (١٩٦٦ ب) حيث اختبر العلاقة بين الشدة في التنشئة الاجتماعية ولمو المهارة المكانية في وبين عينات التيممين Temne والاسكيمو Eskimo. وفي الثانية يتم معرفة التماثل بالنسبة لصعوبة الوحدات والمصفوفات الارتباطية والبناء العاملي بين عينات المقارنة.

دور المعامل وبحث الميدان: يعتبر تيتشنر Titchener أول من أشار إلى التعاون، والعلاقة المتبادلة بين المعامل وبحث الميدان إذ ينظر إليهما على أنهما «مواقف بحث حضاري فرعي» Subcultural Research Settings ويمكن القول إن المشكلات الخاصة بالمقارنة وترجمة المفاهيم وأدوات البحث تكون موجودة كما هو الحال في المقارنات عبر الحضارية وبالنسبة لهاتين الاستراتيجيتين يوجد العديد من النواحي المنهجية أهمها: ضبط المتغيرات وتعميم النتائج.

وفي حين نجد أن ضبط المتغيرات يكون في حده الأدنى في بحوث الميدان، فإنه يكون في أقصاه في الموقف المعملية. ومن هذا المنطلق تعتبر الحضارات معامل طبيعية Natural Laboratory للدراسة المقارنة للسلوك إلا أنه ليس من الممكن تحديد المتغيرات «المستقلة» Independent والمتغيرات المعتمدة Dependent في مثل هذه المعامل الطبيعية فما هو مستقل في دراسة قد يكون معتمداً في دراسة أخرى.

وبالنسبة لتعميم النتائج أيضاً فإنه لا يمكن أن تعميم النتائج المعملية على الحضارة، بل تعتبر مفيدة في توجيهه البحوث الأخرى (١١٩).

الدراسات عبر الحضارية في مجال الاتجاهات وتنظيم الأسرة

(١) دراسة هوايتيل المقارنة بين الأمريكيين واليابانيين في الاتجاهات
لدى العمال :

مقدمة : ركزت الدراسات التقليدية عن دوافع العمال على نواح مثل
البناء التنظيمي ، وطبيعة الاشراف ، والعلاقات الاجتماعية ، والاجور . إلا
انه مع توافر هذه النواحي للعمال بشكل «ملائم» فإن دوافع العمال تظل
منخفضة في بعض المواقف . وفي مواقف أخرى لا تكون هذه النواحي
متوافرة بشكل «غير ملائم» فإن دوافع العمال - على الرغم من ذلك - تكون
عالية . والدليل على ذلك المثال الأخير - وذلك من وجهة نظر الباحثين
الغربيين - هو الرغبة في العمل الملفتة للنظر لدى الموظفين اليابانيين دون
وجود حوافز عمل أو سياسات خاصة بذلك تتعلق بطرق القيادة والتي تعتبر
أساسية في الولايات المتحدة لزيادة دوافع العمل لدى العمال . ولقد طبق
البحث الحالي في اليابان والولايات المتحدة الأمريكية . ونتائج تلقي ضوءاً
جديداً على بعد هام طالما أهمل في نظرية الدوافع وهو أثر القيم الحضارية

على اتجاهات العمال وهذا هو هدف البحث . أما أساس البحث النظري فيعتمد على «نظرية توقع تطابق الدور Theory Reclaprocal role Expectations» أي كيف أن ما يفكر فيه الإنسان وما يفعله في مرقف ما يتأثر بما يظن أنه مناسب وصحيح ومتوقع منه من جانب الآخرين . ومهما يكن وسواء تطابق سلوك الفرد أم لم يتطابق مع هذا الدور ، والمتوقع منه فإن سلوكه يعتمد إلى حد كبير على تحقيق الذين يتعامل معهم لمفهومه عن دورهم الصحيح ، أي كيف يبدو «بالضبط» سلوكهم معه . وباختصار فإن اتخاذ القرارات السلوكية يكون على أساس ما نشعر أنه متوقع منا وعلى أساس تحقيق الآخرين لتوقعنا منهم . وإن أهم نقطة في ذلك الإطار النظري للبحث هو أن طبيعة هذه التوقعات تتأثر بالبيئة التي تصاغ فيها ، كما تتأثر من حضارة لأخرى . ولهذا فنحن في حاجة لفهم أثر القوى الحضارية في العمل .

العينة : وفي محاولة للدراسة أثر القيم الحضارية على سلوك العمال والإدارة قام الباحث وزميل له ياباني يدعى شن - إيشي تيكزاوا Shin - Ichi Takezawa في جامعة بكيو Pikkyo بطوكيو بهذه الدراسة والتي تعتبر الأولى من نوعها . كما تمت دراسة ٢,٠٠٠ ألفين من عمال الإنتاج نصفهم يابانيون ونصفهم أمريكيان ويمثلون في أربع شركات في كل من البلدين . وسنستعرض فيما يلي بعض الأمثلة التي توضح وجهة نظر البحث . وتعتمد هذه الأمثلة أساساً على مجموعة من أسئلة الاتجاهات الخاصة بعدد من الجوانب مثل : الاستمرار في العمل ، والجانب الاقتصادي ، والنواحي الشخصية ، والتوحد مع المؤسسة ، والمكانة في العمل ، ومصادر اللواحق .

(١) الاستمرار في العمل : ويمثل دوام العمل بالنسبة للفرد عاملاً من عوامل الأمن الأساسية وهذا العامل يختلف من ثقافة لأخرى . ومن ثم فإن توقعات العمال الخاصة بالاستمرار في العمل لسنوات تختلف في المجتمعات الصناعية المختلفة . وفيما يلي الأسئلة التي أجاب عنها العمال اليابانيون والأمريكيون والنسب المئوية لاستجاباتهم في الجدول رقم (٦٤) .

جدول (٦٤) الأسئلة والنسب المئوية لجانب الاستمرار
في العمل

الولايات المتحدة	السؤال : إذا كان العامل على الرغم من أنه راضٍ عن عمله غير كفء في عمله فإن الإدارة تشر بالمسئولية :
%٥٥	%٢٣
%٢٣	%١٩
%١٨	%٣٨
%٤	%٢٠

وأنه لمن الواضح أن توقعات اليابانيين الخاصة بالإدارة المفيدة فيما يتعلق باستمرار العامل في عمله صحيحة عن توقعات الأمريكيين . وحتى لو لم يكن العامل راضياً فإن أكثر من نصف اليابانيين يشعرون أن الإدارة ستجعلهم يستمرون في العمل بغير حدود .

٢ - الجانب الاقتصادي : وأن الحديث عن الاتجاهات المتعلقة بالجانب الاقتصادي في حياة الموظفين والعمال لا ترتبط مباشرة بعملهم . إذ وجد اختلاف وتباعد بين المفحوصين عندما مثلوا فيما يختص بمساعدة الإدارة في الإسكان وبين الجدول رقم (٦٥) نتائج العنيتين فيما يتعلق بذلك .

جدول (٦٥) الأسئلة والنسب المئوية للجانب الاقتصادي .

السؤال : فيما يتعلق بمساكن العمال يجب على الإدارة	الولايات المتحدة	اليابان
١ - إقامة مساكن في الشركة بدون مقابل	٢٪	٢٩٪
٢ - إقامة مسكن بالشركة بإيجار منخفض	٨٪	٣٩٪
٣ - إعطاء قروض منخفضة القوائد لمساعدة العمال على تملك بيوتهم	٢٦٪	٢٩٪
٤ - تجنب تقديم المساعدة الاقتصادية المباشرة في الإسكان	٣٤٪	٣٪

وإننا نرى في الجدول السابق أن ثلثي اليابانيين (٢٩٪ ، ٣٩٪) بمقارنتهم بنشر الأمريكيين (٢٪ ، ٨٪) يشعرون أن الإدارة هي التي تقدم تسهيلات للإسكان ، وتجعلها في متناول العمال بالمجان أو بإيجار منخفض .

٣ - النواحي الخاصة : وسوف يتضح فيما يلي الفروق الثقافية عند تناول موضوع خاص كالزواج بالجدول رقم (٦٦) .

جدول (٦٦) الأسئلة والنسب المئوية للنواحي الخاصة .

السؤال : عندما يرغب عامل في الزواج اعتقد ان رئيسه في العمل يجب عليه أن :	الولايات المتحدة	اليابان
١ - يساعد في اختيار شريكة الحياة	٢٪	٠٦٪
٢ - يقدم النصيحة للعامل إذا طلب منه	٢٩٪	٧٠٪
٣ - يقدم هدية صغيرة من جانب الشركة	٠٩٪	٦٩٪
٤ - لا يتدخل في مثل هذه الموضوعات الشخصية	٦٠٪	٠٥٪

وهكذا يتضح أنه لكي يحقق المدير توقعات العمال فإن عليه أن يفهم

المجال الثقافي الذي تتكون ونصاغ فيه هذه التوقعات .

٤ - التوحد مع الشركة : ويظهر توحد الموظفين مع الشركة في ولائهم للمؤسسة التي يعملون بها :

جدول (٦٧) الأسئلة والنسب المئوية للتوحد مع الشركة أكثر

السؤال : اعتقد ان شركتي	الولايات المتحدة	اليابان
١ - اهم شئ في حياتي بل اهم من حياتي الخاصة	%١	%٩
٢ - جزء من حياتي وعلى الاقل تنساري في الاهدية مع حياتي الشخصية	%٢٣	%٥٧
٣ - مكان للفضل احقق فيه اهدافي	%٥٤	%٢٦
٤ - مكان العمل لا علاقة له بحياتي الخاصة	%٦	%٢٣

ويتضح فيما سبق ان اليابانيين يتوحدون مع الشركة اكثر من الامريكانيين فاكتر من ثلثي العمال اليابانيين تتطابق حياتهم في العمل مع حياتهم الخاصة والعكس صحيح بالنسبة للامريكان .

٥ - انتقال المكانة : صمم سؤال ليكشف عن اتجاهات العمال في الثقافتين فيما يتعلق بالمكانة في العمل .

جدول (٦٨) الأسئلة والنسب المئوية لجانب انتقال الملكية .

السؤال : إذا دخل رئيسك الحالي عربة مزودة أركب فيها ، لأنني :	الولايات المتحدة	اليابان
١ - أعطيه مقعدي إذا كان رايسي	%٢	%١٠
٢ - أعطيه مقعدي إذا كنت أشعر بالرضا	%٢	%٤٤
٣ - ابقي جالساً وأخذ منه أي حقائب يعملها	%٣٣	%٤١
٤ - ابقي جالساً ما دامت القاعدة : من يحضر أولاً يجلس أولاً	%٦٣	%٥

٦ - مصدر الدوافع : الاختلاف في الاتجاهات فيما يتعلق بمصادر الدوافع للقيام بعمل يومي مفيد في مقابل أجر مناسب . فما نوع المسئوليات إذا التي يشعر بها الموظفون للقيام بالعمل ؟ فما أهمية الأجور إذا كمصدر لدوافع العمال ؟ ويكشف السؤال الآتي عن بعض الفروق الدالة في هذه الموضوعات بين المفحوصين الأمريكيين واليابانيين .

جدول (٦٩) عن مصدر الدوافع .

اليابان	الولايات المتحدة	السؤال : اعتقد أن العمال يرضون القيام بالعمل الشاق لأنهم
%٤١	%١٠	١ - لأنهم يريدون مستوى معيشة عال كما تتوقع منهم الأسرة والأصدقاء .
%٣٧	%٦١	٢ - يشعرون بأنها مسئوليتهم نحو الشركة نحو ما هو مطلوب منهم
%١١	%٩	٣ - كلما عملوا واجتهدوا كلما ترقوا الوظائف ذات مسئولية
%١١	%٢٠	٤ - كلما عملوا واجتهدوا كلما حصلوا على نفود

ويؤخذ على الدراسة السابقة (١٣٢) اكتمالها بالنسبة المثوية في عرض النتائج وكان من الضروري حساب دلالة هذه النسب .

(٢) دراسة دافيللا Davilla (١٩٥٦) عن الاتجاهات المكسيكيين نحو الأمريكيين : وهي من الدراسات عبر الحضارية ، والتي تعكس اتجاهات المواطنين في دولة ما نحو المواطنين في دولة أخرى .

ولقد قام فريق من الباحثين بهذه الدراسة واستخدموا فيها كلاً من أساليب الاتجاهات المباشرة والأساليب الإسقاطية وكان هدف الدراسة الكشف عن اتجاهات جماعة من المكسيكيين في فترتي المراهقة وما قبل المراهقة نحو المواطنين الأمريكيين . وعندما سئل الأطفال السؤال الآتي :

إذا لم تكن مكسيكياً فمن نود أن تكون ؟

وقد كانت الإجابة العامة الغالبة هي أنهم يودون أن يكونوا أمريكيين . كما أنه في الإجابة عن سؤال آخر أجاب ثلثا (٦٧٪) الأطفال بأنهم يرغبون في أن يكونوا أمريكيين . أما عندما أجاب الأطفال على أحد الاختبارات الاسقاطية التي تكشف عن مشاعرهم الداخلية نحو الأمريكيين فقد ظهر واضحاً أنه على الرغم من أنهم شعروا أن الأمريكيين يمتازون على المكسيكيين في النواحي الاجتماعية والصحية فإنهم شعروا أن الأمريكيين أقل في النواحي العقلية والأخلاقية .

ولقد علق الباحثون على هذه النتائج بأن المكسيكيين ينظرون لا شعورياً إلى الأمريكيين على أنهم صورة للسلطة وهي غير مقبولة . وهذا الاتجاه يؤدي إلى مشاعر الكراهية التي تظهر في شكل نكت ونقد للقيم التي لدى الأمريكيين (١٢٢) .

(٣) دراسة عبر حضارية بين المديرين المصريين والأمريكيين عن الاتجاه نحو الإنسان العربي : نبعت لفكرة البحث من ملاحظات نجيب إسكندر إبراهيم (١٩٨٥) أثناء قيامه بإعداد برامج تدريبية على المديرين العرب إذ وجد اتجاهات سلبية من جانب هؤلاء المديرين نحو خصائص المواطن العربي المصادي ، وهذا الاتجاه يؤثر بدوره على تقييمهم لإمكاناتهم على العمل وفي تحقيق أهداف عملهم . ولتحقيق ذلك وضع الباحث استبياناً من سبع نقاط على نسق التمييز السيمانتسي ويتكون من ٣٧ اثنين وثلاثين بعداً كل بعد وضده : كال تعاون والكرم وحب الناس وتحمل المسؤولية والمحسم والمرونة والتنظيم . . . إلخ ، ويحدد المبحوث أمام كل بعد موقفه منه على نقاط الاستبيان السبع . وقد طلب من المبحوثين أن يقدروا أنفسهم مرة على هذه الأبعاد ، ثم يقدرون الناس في مجتمعهم ، ثم يقدرون الناس العاديين في مجتمع متقدم كالمجتمع الأمريكي . وقد تكونت العينة من طالبات بنات عين شمس ، ومديرين إشرافيين بالقطاع العام بمصر ، ومديرين إشرافيين من العراق ، ومديرين بالإدارة الوسطى من القطاع العام



بمصر للمقارنة بين تقديرات المدير لأفراد مجتمعه والمجتمع الأمريكي بنفسه .

وقد أوضحت النتائج تفوق صورة الإنسان الأمريكي عند المدير العربي بالنسبة لصفات الاستبيان ما هذا صفتي الكرم والتمسك الاجتماعي تتفوق ليهما صورة الإنسان العربي (٨٩) .

(٤) دراسة عبر حضارية عن اتجاهات الأردنيين والأتراك نحو بعضهما البعض : أجرى بلبل رمزي Bulbul Remzi (١٩٨٦) دراسة عبر حضارية عن اتجاهات الأردنيين والأتراك نحو بعضهما البعض . وتتبع هذه الدراسة مما يراه الباحث من أهمية اتجاهات وآراء الناس في العلاقات العامة الدولية ولذا فإن الدراسة الحالية تحاول بحث اتجاهات الأتراك والأردنيين نحو بعضهم البعض . وقد شملت العينة ١١٦٣ ألفاً ومائة وثلاثة وستين مبحوثاً من كل من تركيا والأردن ونُفِضَت كل عينة طلاباً جامعيين ، وطلاب دراسات عليا ، ومدرسين ، وموظفين حكوميين ، وعمال . ولقد تم قياس الاتجاهات بواسطة القائم بهذه الدراسة (بلبل رمزي) والذي يعمل بكلية التربية جامعة اليرموك بإربد بالأردن . ولقد أظهرت العينتان اتجاهات إيجابية نحو بعضهما البعض لكن كان متوسط اتجاهات الأردنيين نحو الأتراك أعلى من اتجاهات الأتراك نحو الأردنيين .

وفي مقارنة المجموعات ببعضها وجد أن متوسط اتجاهات طلاب المدارس العليا نحو الأتراك كان أقل الدرجات في حين أن متوسط درجات اتجاه طلاب المدارس العليا الأتراك نحو الأردنيين كان ثاني أعلى المتوسطات والسبب في أن متوسط درجات اتجاه طلاب المدارس العليا بالأردن كان أقل نحو الأتراك يرجع لتأثير كتب التاريخ المستخدمة بمدارس الأردن (٢٠٠) إلا أن هذا التفسير يشيع من خلفية الباحث التربوي ، والبحث في تفاصيل البيانات المجموعة لا بد أن يكشف عن أن السبب يكمن في العوامل الحضارية .

الفصل السادس

الحضارة والشخصية^(٥)

إطار نظري^(٥٥)

مقدمة:

فيما يلي عدد من تعريفات الثقافة (أو الحضارة^(١)) كما وردت عند بعض علماء الأنثروبولوجيا الحضارية.

فقد ورد عند كروبر Kroeber وكلوكهون Kluckhohn (١٩٥٢) التعريف الآتي: «تتكون الحضارة من أنماط صريحة وضمنية، الصريحة أنماط سلوكية، والضمنية أنماط لتنظيم السلوك. هذه الأنماط تكتسب وتنقل عبر مجموعة من الرموز، بما في ذلك تمسيد هذه الرموز في الأدوات المادية الشائعة الاستعمال». ويتألف الجزء الجوهرى من أى حضارة من مجموعة الأفكار التقليدية (المقطرة تاريخياً)، ومن القيم اللصيقة بها.

وتبدو الأنماط الثقافية، من زاوية معينة، نتاج أفعال ماضية.

وتبدو، من زاوية أخرى، عناصر هامة لتشكيل ما يصدر من أفعال في المستقبل (Kluckhohn 1954).

ويعرف جيرتس Goerts الحضارة، بأنها: نمط من المعاني المتضمنة في رموز، وهذا النمط يورث تاريخياً. أو بأنها نسق من التصورات الموروثة، يعبر عنها في

(٥) النحلة الاجتماعية القومية، ١٩٨٥.

(٥٥) لا ولنا نوقع لهذا الإطار الكثير من المراجعة والتعديل. كما إن أجزاء هامة منه لا زلنا الآن كثر ونسحح حجة لتتغير المتعلق المكاني من صلتها.

(١) في هذا المقال نستخدم كلمة الثقافة والحضارة باعتبارهما مترادفين. وكلاهما تصلح لترجمة للكلمة الإنجليزية Culture

قوالب رمزية، بواسطتها يتواصل الأشخاص، فيرسخون وينمون، معرفتهم حول، واتجاهاتهم نحو، الحياة. (Brislin 1983).

ويعرف هيرسكوفس Herskovis الحضارة بأنها: الجزء الذي صنعه الإنسان من بيئته البشرية. أو الجزء من بيئة الحياة البشرية الذي صنعه الإنسان (Ibid).

وأهم ما ينطوي عليه تعريف الحضارة عند ترياندر Triandis التفرقة بين مكونين أحدهما يسميه الجزء المادي، ويشير به إلى المصنوعات الإنسانية كالبيوت والآلات والطرق... الخ. والثاني ويسميه الجزء الذاتي subjective وهو يضم استجابات الإنسان لهذه الموضوعات. مثل القيم، والأدوار، والاتجاهات.

وعلى ضوء هذه التعريفات وغيرها، يبدو أن هناك عددا من المكونات الجوهرية التي لا بد من إفعالها في مفهوم الحضارة. هذه المكونات هي:

أولاً: أن الحضارة نمط، أو نسق، أو تنظيم.

ثانياً: أن عناصر هذا التنظيم شقان: أحدهما مادي، والآخر معنوي.

ثالثاً: أن ما في هذه الأنماط من سلوكيات (كاللغة، أو القيم، أو الرموز... الخ) يكتسبه الفرد في فترات مختلفة من العمر.

رابعاً: أن هذه الأنماط تورث عبر الأجيال.

تلك هي المكونات الرئيسية لمفهوم الحضارة. وسنلتزم بها في هذا المقال.

لإذا انتقلنا من مفهوم الحضارة إلى مفهوم الشخصية، وجدنا كذلك تعريفات متعددة للشخصية. وكمثال على ذلك يمكن الرجوع إلى قاموس المجلس حيث يجد القارئ ستة تعريفات رئيسية، يتفرع من كل منها عدد من التعريفات الصغرى أو الثانوية (English & English 1958).

والتعريف الذي سنلتزم به في هذا المقال يمكن تقديمه في الصيغة الموجزة الآتية: الشخصية هي نمط تنظيم السمات المزاجية، والعقلية، والحركية لدى الفرد. وهو تنظيم على درجة عالية من الاستقرار عبر الزمن.

وهذا التعريف تستند إليه (صراحة أو ضمنا) بحوث الكثيرين من أئمة علماء النفس المعاصرين، وفي مقدمتهم أيزنك Eysenck في بريطانيا، وجيلفورد Guilford، وكاتل Cattell في الولايات المتحدة الأمريكية. (انظر Eysenck & By-senck 1969).

الحضارة والشخصية:

وقد أجريت بحوث متعددة في موضوع الصلة بين الحضارة والشخصية، قام بهذه البحوث أحيانا علماء متخصصون في دراسة الحضارات، وأحيانا أخرى كان الباحثون من علماء النفس. وتبعاً لذلك كانت الصورة التي يخرج بها القارىء صورة يغلب عليها الطابع الحضارى أحيانا، كما في دراسات كلوكهون (1904) ومارجريت ميد (Mead 1949)، وأحيانا أخرى يغلب عليها الطابع السيكولوجي. كما في دراسات بارتلت. (Bartlett 1932, 1937) وهوابتنج (Whiting & Child 1953).

وقد اتجهت هذه الدراسات في مجموعها وجهتين: الأولى استمدت مادتها الرئيسية من المجتمعات البدائية أو شبه البدائية، كمجتمعات الهنود الحمر، والاسكيمو، والقبائل التي تعيش في عدد من جزر المحيط الهادى (Mead 1946, 1947, 1949) أما الدراسات التي اتجهت الوجهة الثانية فقد استمدت عناصرها من المجتمعات الحديثة، وهي أقرب ما تكون إلى ما نسميه ببحوث الطابع القومى للشخصية^(١). (Inkeles & Levinson 1954).

وقد ظهرت دراسات قليلة من هذا الطراز الأخير عن الطابع القومى للشخصية المصرية، نذكر من بينها جهود حامد عمار، وسيد هويس، ومفيد ياسين. غير أن هذه المحاولات كانت في جملتها اجتهادات انطباعية، ولم تقدم إطارا واضح المعالم من الناحية المنهجية، لينسنى له أن يفرد جهود الباحثين، ويساعد في تفسير النتائج التي يخرجون بها في المستقبل.

(1) national character

وهذا ما سنحاول أن نقدمه لى بحثنا الراهن .

نوهان من العمليات :

بداءة، يحسن التفرقة بين نوعين من العمليات، تنفذ من خلالهما بعض مكونات الحضارة، فتسهم فى تشكيل الشخصية :

النوع الاول : نسميه العمليات الشكلية، وهذه غالبا عمليات إنسانية عامة، لا تختلف من حيث نواحيها من مجتمع إلى مجتمع، ولكن قد تختلف من حيث النسب التى تدخل بها فى التشكيل، ولا يقتصر التباين هنا على أن يكون تباينا بين المجتمعات، بل يمتد ليكون تباينا بين الشرائع الاجتماعية المختلفة داخل المجتمع الواحد، بل وتباينا بين الافراد المنتمين إلى شريحة اجتماعية واحدة.

وأهم هذه العمليات هى :

أ - الخت (١)، والإثابة، والعقاب، والتفاضى : ويتركز أثر هذه العمليات غالبا فى تشكيل الافعال.

ب - عرض النموذج / القدوة (Bandura 197).

ج - اللغة : أساسا كأداة لتشكيل الإدراك والتفكير، وبالتالي لتشكيل التخطيط للمفعل.

النوع الثانى : نسميه العمليات الخاصة بالمضمون، وهذه تتعلق بمضامين محددة، وبالتالي يتعدى تصور قوالب لها منفصلة عن المضمون، وهى تختلف من مجتمع إلى آخر. وفيما يلى بيان بهذه العمليات.

أ - تدريبات المراحل العمرية المختلفة :

ب - تدريبات الطفولة المبكرة : الإطعام، الإخراج.

ج - تدريبات الطفولة المتأخرة : تنقسم الأدوار حسب الجنس. (عصابات الأطفال)، تنقسم الأدوار حسب العمل. (المدرسة).

(1) prodding

- تدريبات المراقبة: التدريب على العلاقات الإنسانية المتباينة.

- تدريبات الرشد.

ب - نمط الشخصية المعيارية كما تقدمه الحضارة:

- القدوة الخيالية (ما يقدم في الدروس التاريخية - والمواظ - والسير الشعبية).

- القدوة الواقعية. (عرض النموذج / القدوة).

ج - طراز القيم الذي يذيعه المجتمع ويحبه، من خلال القيم المرددة.

(الحكم، والأمثال، وقصص الموعظة) والممارسات القانونية.

ملحوظة: نلاحظ هنا أن النوعين من العمليات يتداخلان، في مواقف الحياة المختلفة، ومن ثم فإن الفصل بينهما بالصورة التي نوردتها، إنما يقصد بها التوضيح، وتيسير الدراسة.

الوظيفة الحضارية للشخصية: أو كيف تؤثر الشخصية في الحضارة:

إحدى المسلمات التي نبدأ بها في موضوعنا الراهن، القول بأن العلاقة الأساسية بين الشخصية والإطار الحضاري الذي بكتنفها علاقة تفاعلية.

ومن خلال هذا المنظور يبدو أن للشخصية وظيفة حضارية، أي وظيفة ينصب أثرها على الحضارة.

والقصود بمفهوم الوظيفة هنا المعنيان الشائعان لهذا المصطلح، وهما: المعنى البيولوجي الذي يشير إلى نشاط نوصي يقوم به نسيج أو عضو أو جهاز داخل جسم الكائن المتكامل، كأن نتحدث عن وظيفة الدم، أو وظيفة العين، أو وظيفة الجهاز العصبي. والمعنى الآخر هو المعنى الرياضي للدالة، الذي يشير إلى العلاقة المنتظمة بين متغيرين، كأن نتحدث عن أن نصف قطر الدائرة دالة لمحيطها. وجدد بالذكر أن هذين المعنيين لمفهوم الوظيفة لا علاقة لهما بما نشتهي أن يحدث أو بما نتصور أنه يجب أن يحدث.

أما عن طبيعة الوظيفة الحضارية للشخصية فيبدو أنها تتذبذب بين قطبين، هما:

أ - قطب الدسم: وكان شخصيات الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع حامل هذه الحضارة، تمثل جميع الزوايا الممكنة لرؤية هذه الحضارة لمشكلات الحياة المختلفة. (وهي زوايا متعددة بتعدد الخصائص البيولوجية التي تميز فردية كل فرد من الآخر). فإذا حرصنا على أن ننظر إلى هذه الشخصيات لنكتشف ما بينها من مقام مشترك فنحن نكتشف هنا عن قطب التدعيم في الوظيفة الحضارية للشخصية. كذلك يمكن التحدث عن مهام تدعيمية تقوم بها الشخصية (في مواقف بعينها) نحو الحضارة. وتتم معظم هذه المهام التدعيمية من خلال لعب الأدوار. وبخاصة إذا كانت أدوارا مؤثرة، (سواء تم التأثير من خلال اتساع شبكة قنوات التأثير المتاحة، أو تم من خلال شغل «مركز سلطة Power status» وتتم المهام التدعيمية للشخصية بصورة أفضل كلما كان هناك توافق بين «نمط الشخصية» وبين المقتضيات التي ترسمها الحضارة لمعالم الدور. أو بعبارة أوضح كلما كانت المتطلبات المقتننة اجتماعيا للقيام بالدور ترضى دواع أكثر تشبها في بناء الشخصية.

ويمكن استكشاف مواصفات الأدوار الرئيسية في الحياة الاجتماعية بطرق متعددة. ولكن أفضل هذه الطرق ما اعتمد على دراسة واقعية⁽¹⁾ لعينات ممثلة من جميع الأطراف المشاركة فيما يسمى «بأجهزة الفاعلية الاجتماعية Systems of social action» مثال ذلك: أن نستكشف مكونات دور الأهوية بأجراء دراسات ميدانية على «آباء وأبناء ومشاهدين».

ب - قطب التغيير: وعنده يبدو أن الشخصية تقوم بدور لرون الاستشعار للبناء الحضاري، فتكون بمثابة الجبهة التي تواجه في وقت مبكر مقتضيات التغيير الموضوعية، أي التي تنطوي عليها مواقف معينة في الحياة وتستجيب (أي تتنبه وتستجيب) لبعض هذه المقتضيات. وتبدو هذه الحقيقة من خلال انحرافات

(1) empirical

الشخصية عن معايير الأداء (خاصة أداء الأدوار) المدعمة حضاريا. ولا يعنى ذلك أن جميع الانحرافات الشخصية تدخل فى هذا الباب. وبقدر ما فى مقتضيات التغيير من شيوع واستقرار تكون قللة الانحرافات الناجمة عنها على الشيوع فى أعداد متزايدة من أعضاء المجتمع ويكون ترسيها عبر الأجيال.

كيف تؤثر الحضارة فى الشخصية: الأبعاد المنظمة للتأثير:

يبدو أن تأثيرات البناء الحضارى فى الشخصية، رغم تعددها وتنوعها، فإنها تنظم من خلال محورين رئيسيين: الأول يمتد من الإنحياز إلى الفشل، والثانى يمتد من التقبل إلى الرفض. كما يبدو أن هذين المحورين لا علاقة بينهما، أى أنهما متعامدان أحدهما على الآخر. ومعنى ذلك أن تأثيرات الحضارة يمكن أن تنقل إلى الشخصية من خلال كونها فى موقع الإنحياز مع تقبل لهذه الحضارة على علاقاتها، أو تنقل إليها من خلال كونها فى موقع الفشل مع تقبل أيضا لهذه الحضارة على علاقاتها، أو تنقل إليها من خلال كونها فى موقع الإنحياز مع درجة عالية من الرفض لهذه الحضارة، أو فى موقع الفشل مع درجة عالية كذلك من الرفض. ويترتب على ذلك أن محورى «الإنحياز - الفشل» و«التقبل - الرفض» يتقاطعان متعامدين، فيكونان إطارا مرجعيا يمكن على أساسه فهم، أو الربط بشكل معقول بين جميع الأشكال التى تظهر بها تأثيرات الحضارة فى شخصيات أبناء المجتمع. وقبل أن نتقل إلى نقطة جديدة فى موضوعنا نبادر لنبينه إلى أن هذا الإطار ليس من وظائفه تفسير الكيفية التى يتم بها تأثير البناء الحضارى فى الشخصية، ولا السبب الذى يتم به على هذا النحو. إنما الوظيفة الرئيسية لهذا الإطار مشابهة لوظيفة خطوط الطول والعرض بالنسبة للحقائق الجغرافية، فهذه الخطوط لا تفسر حقائق الجغرافيا، ولكنها تستوعبها فى نظام عقلائى، وبالتالي ييسر فهم الكثير من جوانبها والربط بينها. كذلك الحال بالنسبة للإطار المرجعى الذى نحن بصدده فيما يتعلق بالحضارة والشخصية.

الأنماط الرئيسية للشخصية المصرية:

فى ضوء محورى «الإتجار - الفشل» و «التقبل - الرفض» لتأثير الإطار الحضارى فى الشخصية، فى المجتمع المصرى المعاصر، يمكن توقع وجود أربعة أنماط رئيسية للشخصية، وذلك على النحو الآتى (٥):

أ - النمط متضخم الذات، أو النمط مركزى الذات

The ego - centric type

The cynical type

ب - النمط الساخر

The parasitic type

ج - النمط الطفيلى

د - النمط الاكتئابى أو المنهار

The depressive type (or the helpless)

وفى الفقرات التالية نورد شرحاً مختصراً لكل من هذه الأنماط. (انظر شكل ١).

أ - بالنظر فى الشكل رقم ١ نبين أن النمط المتضخم للذات يقع فى الربع الأعلى الأيمن، وهو الجزء من الإطار المرجعى المحصور بين قطبى «الإتجار» و «التقبل» وهو بذلك يمثل التقاء لعدد من العناصر التى ترجع إلى مجال المنخفض فى تحقيق عدد من الإتجاهات التى تتفق وسلم القيم الذى تقدمه الثقافة السائدة مع عدد من العناصر التى يعنى تقبله العميق لهذه القيم ومن أهم الصفات التى تميز هذه الشخصية الطموح الشديد، والتوتر المرتفع، والتأكد من الذات إلى درجة تقرب من العدوانية، والنظر إلى أى موضوع من الزاوية التى تقف الذات فيها، وتصل هذه الحالة إلى درجة تبلغ حد العجز أحياناً عن إدراك وجهة نظر الغير. النتيجة الحتمية للجمع بين الطموح الشديد والتوتر المرتفع مع التمرکز فى الذات المعرفى

(٥) نلاحظ أننا نتحدث عن أنماط قطبية، أى أن كل نمط يتبع عن التقاء وضمن عند قطبى المحورين، بمثابة اعتراف أن هذه الأنماط تمثل التقاء بين أعلى الدرجات على البعدين المعنويين. ومعنى ذلك إن الشخصيات المتطرفة فى الواقع تطارت فيما بينها قرباً وبعداً من هذه الأنماط.

والوجداني فإنه لا يتقبل مفهوم «العقبة» أو مفهوم «الإعباط»، ويكون رد الفعل لديه غالباً عدوانياً، هدفه إزالة العقبة في أقصر وقت ممكن، ولا يكاد يفكر في مراجعة النفس ولا في إعادة النظر في الخطوات أو الخطط السابقة بنظرة نقدية هذا المستوى من الإدراك ومن الانفعال مستوى طفولي بالمعنى السائد عند بياجيه. ويمثل الشخص فعلاً صورة الطفل الطاغية، وهو طفل في ثياب راشد. ومن اللافت للنظر حقاً أن الأشخاص من هذا الطراز يتجهون في أسلوب تنشئة أبنائهم إلى تجسيد هذا النموذج فيهم منذ الصغر، وكأنما يعلنون بذلك رضاهم التام عن النمط الذي تمثله شخصياتهم.

ب - أما الطراز الثاني، وهو الطراز الساخر، فيقع في الربيع الأدنى الأيمن من الإطار. وهو يقوم على الجمع بين عناصر الرفض لقيم الحضارة السائدة، رغم الإنجاز فيها بناء على معاييرها. وهو يواجه هذا التناقض بوجهين، أحدهما يبدو به أحكام الحكماء، لأنه وجه ناقد، ينصب نقده على الآخرين وعلى الذات، والوجه الآخر يبدو به أجهل الجهلاء، لأنه يجهل أو يتجاهل كثيراً من حقائق التناقض الذي تنطوي عليه مواقفه واتجاهاته. وربما كانت أوضح سمة فيه هي العجز عن الشعور بالانتماء، والعجز عن الحماس، وبوجه عام يبدو عاجزاً عن ممارسة معظم الخبرات التي تقتضي درجة عالية من اندماج الذات. وهو مثال لأدواج الشخصية في مجال التوجه الاجتماعي: جزء من عقله يفهم لكنه «لا يفعل» ما يقتضيه هذا الفهم، والجزء الآخر «يفعل»، لكنه لا يفهم ما ينطوي عليه هذا الفعل. هذا مثال للتخطيط قصير المدى، أو لقصر النظر الإرادي.

ج - أما النمط الثالث فهو النمط الطفيلي. ويقع في إطارنا في الربيع الأسفل الأيمن. وهو يعتمد على الجمع بين تقبل المسلمات الكبرى للحضارة السائدة وبين الفشل في تحقيق الإنجازات التي تدهو إليها هذه المسلمات. على كفة هذا النمط يقف المجرمون النموذجيون، أي المجرمون الذين تشكل جرائمهم في قالب المناسب لمطالب الحضارة السائدة. ولكن يتضح مفهوم الجريمة النموذجية الذي نقصده في هذا السياق يمكن المقارنة بين الجرائم التقليدية في مجتمعنا المصري

وهي هذه الجرائم التي نسميها نموذجية. فمن أمثلة الجرائم التقليدية ما يأتي: القتل أخذاً بالثأر، والقتل دفاعاً عن العرض. في مقابل ذلك نجد من الأمثلة البارزة على الجرائم النموذجية: العدوان على المال العام، تشييد العمائر الآيلة للسقوط، النصب والاحتيال في عمليات البيع والإيجار للمقارنات الزراعية والسكنية، بيع الأطعمة الفاسدة، جرائم الشرائع الاجتماعية الداخلة حديثاً في تجارة المخدرات، وجرائم السرقات العلمية. هذه الجرائم النموذجية يجمع بينها أنها تهدف إلى تحقيق شكل الإلحاق (وهو هنا تحقيق أكبر قدر من «الثروة» المادية أو المعنوية) بغض النظر عن القنوات المؤدية إليه (١).

د - وأخيراً، نأتي إلى النمط الرابع، وهو النمط الاكتسابي، وهو يجمع بين رفض الحضارة القائمة والفشل في تحقيق الإنجازات التي تنادي بها.

وأوضح ما يميز هذا الطراز الشهور بالمعجز عن ممارسة أية فاعلية، والشهور (في الوقت نفسه) بأن كل شيء (عما يملك أو بما يمكن أن يملك) أصبح مهتر القيمة، كل شيء مادياً كان أو معنوياً. وهو يتعلم كيف يعيش في ظل هذا المعجز المتكامل، ويصل في النهاية إلى بلورة فلسفة تشاؤمية، أو عدمية، مسجورها أنه هو نفسه مهتر القيمة.

تعليق هام:

هذه هي الأنماط الرئيسية التي نجدها في مجتمعاتنا المعاصرة بينية الحضارية الراهلة. ولابد من التنبيه إلى أن هذه الأنماط - بالصورة التي قدمناها، تبدو مركزة أو نقية. أما ما نجده في الواقع فشخصيات أقل تركيزاً أو أقل نقاوة من ذلك بدوجات متفاوتة. لكن هذا النوع من الاختلاف بين الأنماط يشكلها الذي تقدمه وبين الشخصيات كما نشاهدها في الواقع لا يقلل من قيمة الإطار المرجعي الذي نقيمه كأداة تحليلية على تنظيم المادة التي نواجهها، وبالتالي على فهمها.

(١) ويرتبط ذلك بأن من بين خصائص البناء الحضاري الرامن في مصر تأكيد قيمة «الطاقة النهائية» أو الطاقة الطرفية *end point* دون ربط بينها وبين القنوات المؤدية إليها. وتعتبر هذه الحقيقة إحدى النتائج السيكولوجية المترتبة على الإعلان التجاري، وكل أشكال تأكيد قيم السلوك الاستهلاكي.

ولابد من التنبيه كذلك إلى أن الفروق بين الانحاط الأربعة فروق في الدرجة، وهو ما ييسر تحقيق خطوات تالية في السبيل إلى مزيد من الدراسة العلمية لهذه المادة. ومع ذلك، فالقول بأن ما نحن بصدد ليس سوى فروق في الدرجة لا يعنى بالضرورة أنها فروق أحادية البعد، فالواقع أننا هنا بصدد فروق مركبة، إذ أنها تقوم على بعدين، لا على بعد واحد.

والتعقيب الأخير والهام هنا هو أن الميزة الرئيسية للمحاولة التي نقدمها هي أنها قابلة للتحقيق العلمي الميداني. فمن الممكن تحويلها إلى مشروع بحثي للكشف عن طرز الشخصية الشائعة في المجتمع المصري في الفترة التاريخية الراهنة.

ومن الجائز أن نجد ما يؤيدها، ومن الجائز أن يكشف البحث الميداني عن ضرورة إدخال تعديلات كثيرة عليها، من هذا القبيل إضافة محور ثالث لأن المحورين المذكورين لا يكفيان لاستيعاب التباين القائم في المجال، ومن هذا القبيل أيضا الكشف عن أن هذه المحاولة لها من القابلية للتعميم ما يسمح باختبار جدواها في مجتمعات تعيش في ظل أطر حضارية أخرى، وبالتالي يمكن إجراء دراسات مقارنة.

تلخيص:

قدمنا في هذه الدراسة محاولة نظرية لفهم تأثير الحضارة في الشخصية. وقد بدأنا برصد نوعين من العمليات ينشأ من خلالهما البناء الحضاري للتأثير في الشخصية: النوع الأول أسميناه عمليات شكلية والنوع الثاني عمليات تتعلق بالمضمون. ثم تحدثنا عن العلاقة التفاعلية بين الشخصية والحضارة. وأخيرا انتقلنا إلى تقديم إطار مرجعي لفهم التشكيلات الحضارية التي تقع على الشخصية في مجتمعنا المصري في الفترة التاريخية الراهنة.

المضاربة والمعالج النفسي نظرة سلوكية في إطار هويي

عبدالمستار إبراهيم
وحموى إبراهيم
كلية الطب والعلوم الطبية - جامعة الملك فيصل - السعودية

لاحظت المعالج السلوكي والباحث النفسي المعروف «كيسلر» Kessler - منذ أكثر من عقدين - أن غالبية الباحثين والمعالجين السلوكيين عادة ما يعتمدون في بحوثهم وممارساتهم على فرضية خاطئة أطلق عليها «خرافة التجانس» myth of uniformity. كان ذلك من خلال دراسته للعوامل المرتبطة بممارسة العلاج السلوكي، وكان يقصد من هذا الإشارة إلى أن من الخطأ أن نعامل المرضى النفسيين على أنهم يمثلون مجموعة متجانسة من المرضى يصلح لأحدهم ما يصلح للآخر من أساليب علاجية (Kessler, 1988). إن لغة كبيرة من الممارسين للصحة النفسية - بسبب هذا المنطلق الخاطيء - أصبحت تمارس نشاطاتها دون محاولات جادة تذكر، لتكييف الأساليب السلوكية الشائعة للفروق بين الأفراد أو الفروق بين الجماعات والحضارات الإنسانية.

إن أحد الأهداف الرئيسة لهذا البحث هو أن نُحلل - مع كيسلر - من الاعتماد على تلك الفرضية الخاطئة؛ وهي أن هناك أساليب معينة من العلاج السلوكي أو النفسي أفضل من غيرها، في كل الأوقات، ومع كل الأشخاص، وفي كل الظروف. فمن الخطأ أن نتعامل مع بعض الفنيات العلاجية التي ثبت نجاحها في الغرب لعلاج مشكلة معينة - كالقلق، مثلاً - على أنها مستحققة نفس النجاح، وتحقق نفس الفاعلية إذا ما استخدمناها في بيئة عربية، أو في ظل ظروف شخصية معينة.

والمعكس صحيح أيضاً، فقد نكتشف أساليب عربية تصلح لمعالجة بعض المشكلات الشائعة في الوطن العربي دون أن تحقق بالضرورة نفس النجاح إذا ما استخدمناها في أمريكا أو اليابان، مثلاً. ولا شك أن مجرد أن ينطلق ممارس الصحة العقلية في العالم العربي من هذه الحقيقة البسيطة، وهي أن بإمكانه أن يكتشف أساليب علاجية تلائم المجتمعات العربية أكثر من غيرها، مستفيداً أمامه بأبواب واسعة من الإبداع والابتكار في أساليب العلاج النفسي/ السلوكي، وهو مجال من الدراسة لا زال - بالرغم من أهميته لخبراء الصحة العقلية في العالم العربي - يلقى من الباحثين اهتماماً شبه منعدم.

المسألة الأخرى التي نعتد عليها في مناقشتنا لهذا الموضوع، ترى أن الأشخاص في أي مجتمع أو حضارة عادة ما يتعرضون - عندما أو دون حمد - لخبرات مختلفة، ومن ثم تتطور لدى كل منهم قيم خاصة واتجاهات، ووجهات نظر متفردة، وإدراكات متباينة تفسر تصور الفرد لنفسه ولبيئته، وبشكل فريد ومتميز عما هو موجود لدى الآخرين. والمعالجة الناجعة هي تلك التي تراعي هذه الفروق، وتتلون بلون الفرد واحتياجاته.

وللمحق فإنا نرى في الوقت الراهن وعلى المستوى العالمي، اهتماماً واضحاً وجهوداً مكثفاً من قبل المختصين بالصحة النفسية وخبرائها، بدراسة العوامل الحضارية والشخصية من حيث دورهما في تطوير أساليب العلاج النفسي، وزيادة إمكاناته وقابليته في تعديل السلوك (Abel & Mennaux, 1974; Pridley, Mendonca, & Kanitz, 1984). نلاحظ هذا الاهتمام في مقدار البحوث التي تنشر، وفي مقدار المؤتمرات والحلقات العلمية التي تعقد، لدرجة يصعب علينا إحصاؤها في هذا المقام. ولكن يكفي أن نقول: إن هذه الجهود تفسر محاولات جادة من تعديل في النظريات الأساسية الكبرى في العلاج النفسي، أي التحليل النفسي، والعلاج السلوكي، والعلاج الجشتماني، والمعرفي... إلخ.

(Addison, Thompson & Grant, 1983; Badt, 1978; Gordon, 1986; Helms, 1983, Liberman, 1984; Mass & El-Kenzawi, 1984; Farnel & Padilla, 1985; Good & Iwamasa,

(1989; Bue, 1977, 1981; Bue & Zane, 1981; Wyatt & Parham, 1986). ونعرف أيضا، أن هذه المحاولات، تجاهد للوصول إلى تعديلات أساسية في أساليب هذه النظريات الكبرى، بحيث تصبح ملائمة لجماعات غير الجماعات الأصلية التي ظهرت هذه النظريات فيها. ومن ثم، نجد اهتماما - في الولايات المتحدة، مثلاً - بتطوير النظريات الرئيسة في العلاج النفسي والسلوكي ليعلام توظيفها لخدمة السود والآسيويين، والمكسيكيين، والإسبانيين... الخ.

وللأسف، لم نثر حتى ولو على دراسة واحدة ثابتة من واقع العالم العربي ولمصلحة الصحة النفسية في إطارها الشمولي. ولهذا تهيء أهمية دراستنا هذه كمحاولة لزيادة طريق لا بد من استكشاف معالمه. ولكي يتحقق هذا الغرض، فلا بد أخذنا بالصحة النفسية العربية ولما أحدثنا في هذا الميدان، من التصالح بالحرية، والمقدرة الشجاعة على التبدل والتعديل، والإضافة لنظريات العلاج النفسي، والإكراه في أساليبه وتطويعها لحاجة المجتمع والأفراد. ويرسم هذا البحث أقام الباحثين العرب في مجال الصحة النفسية بشكل عام، وفي مجال ممارسة العلاج السلوكي بشكل خاص، بعض معالم هذا الطريق كما تتجسد من خلال الأهداف التالية.

تتبع أربعة أهداف أساسية لهذه الدراسة، يمكن إجمالها في شكل أسئلة على النحو الآتي: (1) هل هناك ضرورة للعلاجات النفسية في العالم العربي؟ بمحاذاة أخرى، ما الحاجة لخدمات الصحة العقلية في هذا الجزء من العالم؟ (2) هل هناك خصائص مميزة للشخصية العربية، يجب الانتباه لها في مجال الممارسة، ومن شأنها أن تعطل أو تيسر من الفاعلية العلاجية؟ (3) ما القضايا الشائكة التي قد يتعرض لها مثيري الصحة العقلية خلال ممارسته للأساليب العلاجية في العالم العربي؟ وأخيرا (4) هل يمكن معالجة هذه المشكلات؟ وما أفضل الطرق لذلك؟

الحاجة لخدمات الصحة العقلية/ النفسية في العالم العربي من واقع البحث العلمي

لأن الدين الإسلامي، واللغة العربية مما دين ولغة الغالبية العظمى من الناس في غالبية أرجاء العالم العربي، فقد يتوهم البعض أن العرب يشكلون حضارة متجانسة. والمحققة - ومن واقع البحث النفسي - أن العرب - كغيرهم من الشعوب والقوميات - لا يشكلون جماعة واحدة متجانسة. فمما لهم النفسية، وخصائصهم الشخصية، وأنماط الاضطراب النفسي والعقلي الشائعة بينهم تتباين بتباين كثير من المتغيرات، بما فيها الفروق الجنسية، والمسألة الاجتماعية، والوضع الاقتصادي الطبقي، والاندماج السياسي، والديني، والقومي... الخ. ولنا في حاجة، إلى تفهم ما ثبت ذلك، لأن البحث عن الفروق بين الأفراد والجماعات في المجتمع العربي الواحد، (بما فيها مثلاً: الفروق الجنسية، والتعليمية، والمهنية، والطبقية، والحضارية... الخ) تتميز بالوفرة والشمول، ونجد أمثلة منها، تقريباً، في أي دورة علمية تصدر في العالم العربي في حقل البحوث النفسية، وبحوث الطب النفسي.

بغضاً عن هذا، نجد أن الدراسات التي قارنت بين عينات عربية وغير عربية تبين - كما سنرى بعد قليل - أن هناك بعض الفروق في بعض الفواحد السلوكية العامة والمضفكة بين تلك عينات من الجماعات العربية تميزها عن غيرها من الجماعات الأخرى في البحوث الأخرى. أي أن العرب، بالوهم من عدم تجانسهم، يتباينون - على مستوى المتغيرات الحضارية - عن غيرهم في كثير من الخصائص السلوكية: مقبولة أو مستهجنة. كما يتباينون في أنماط التعبير عن الصحة النفسية والاضطراب.

وتشير هاتان الحقيقتان أمام الخبراء والممارسين للصحة النفسية في الوطن العربي تحذيرين أساسيين لبحوث الصحة النفسية: فمن ناحية: نحتاج إلى تطوير بعض الأفكار النظرية أو التطبيقية الخاصة بالبيئة العربية، والملائمة لمواجهة المشكلات الخاصة بها والتي تميزها عن غيرها من الحضارات الغربية. ونحتاج

من ناحية أخرى، لقطوع علماءهم الصحة النفسية - النظري منها أو التطبيقي - بحيث تفوق ألبا الحاجات الخاصة لمختلف الجماعات داخل المجتمع العربي الواحد.

وقد رجب الآن الاستشهاد بنتائج بعض البحوث لترشيدها لخطى التقدم في مواجهة هذين التحديين. وهذه النتائج تنقسم - فيما نرى - إلى بحوث حضارية، وبحوث لروى بين الجماعات.

بحوث المقارنات الحضارية:

لا توجد لبحوث الصحة النفسية، ومدى انتشار الاضطرابات النفسية في أي من بلدان العالم العربي سياسة متسقة، أو هيئة تخطيطية عليها، فيما عدا بعض المجهودات المتناثرة التي كُنجز بدائع الاهتمام الشخصي، أو تلك التي تهدف لتحقيق ترقية أكاديمية معينة، أو لتفي بمتطلبات الدراسات العليا في الجامعات وبعض مراكز البحوث. ومن ثم، فقد يعتقد الشخص المتمسك - بطريق الخطأ - أن خدمات الصحة النفسية - بجوانبها العلاجية والتشخيصية والوقائية - لا تشكل مطلباً ملحاً أو ضرورة قصوى للمواطن العربي. والحقيقة أننا وجدنا يقتضي بعض البحوث المتناثرة في هذا الميدان ما يشير إلى عكس ذلك تماماً.

لدى دراسة حديثة كُتب انتشار كثير من المشكلات النفسية والسلوكية التي تستحق الرعاية المهنية المتخصصة بسبب شدتها وخطورتها، ومع ذلك، فهي لا تلقى اهتماماً (Braham & Braham, 1993) فمثلاً: تبين أن الأمراض الدالة على وجود اضطراب الاكتئاب - بصورته الإكلينيكية، واستخدام المقاييس النفسية - ينتشر بين أعداد كبيرة من الطلاب في إحدى الجامعات السعودية، بما في ذلك: الميل إلى الطوم الذاتي (44%)، والشمعون بالمصعج (52%)، ولقدان الشهية (46%)، واضطرابات النوم (38%)، وبالمثل، فقد عبر أفراد كثيرون من نفس العينة عن أوضاع أخرى ذات شغشات مزمنة، منها: العجز عن التركيز (54%)، والاضطراب الشديد (53%)، والتشنج عندما تورد أعضائهم (42%)، والصعوبات الدراسية (53%) (Braham & Al-Nasr, 1991).

وهناك دراسات أخرى حاولت أن تقارن عينات عربية بعينات أنجلو أمريكية من حيث بعض الخصائص الشخصية والمرضية. وفي هذا الإطار، أمكن تحديد الأبعاد الشخصية المرضية الأساسية، مثل النزعة العصابية *neuroticism*، والذهانية *psychosis*، والإجرامية *criminality* في مصر والسعودية والكويت، كما تمديدت في بريطانيا والولايات المتحدة (غالي، 1976، 1987، 1987، 1987، 1987). كذلك قارن إبراهيم (1979) بين عينات مصرية، وإنجليزية، وأمريكية باستخدام مقياس أيزنك للشخصية *Eysenck Personality Questionnaire (EPQ)* فتبين أن المصريين يحصلون على أعلى الدرجات في مقياس النزعة العصابية *neuroticism*. وفي دراسة أخرى (إبراهيم، غير منشورة)، تبين أن الطلاب الليبيين يحصلون على درجات مشابهة للفرنسيين على مقياس النزعة نحو الأمراض النفسية، ولكنهم حصلوا على درجات أعلى من الغربيين على مقياس الخجل *shyness* والقلق الاجتماعي *social anxiety*.

من هذه النتائج يمكن أن نستدل على وجود مؤشرات قوية تبين أن المواطن العربي يعاني مثل زميله الغربي - إن لم يكن أكثر - من الاضطرابات النفسية المعروفة، والتي تفتقر للرعاية المهنية الملائمة.

بحوث الفروق بين الجماعات:

تختلف الحاجة لخدمات الصحة النفسية داخل المجتمع العربي الواحد من جماعة إلى أخرى بحسب انتشار الأمراض النفسية وثقافتها داخل الجماعات المختلفة في المجتمع الواحد، ومن حيث استهداف كل جماعة منها للعرض لأحد الاضطرابات النفسية دون الأخرى. فعلى سبيل المثال، تبين دراسة الفروق الجنسية في غالبية المجتمعات العربية، أن المرأة تعاني أكثر من الرجل من الأمراض الدالة على شبح القلق *anxiety* (Brahim, 1979; Brahim, 1991)، والاكتئاب *depression* (Brahim, 1991; Brahim & Al-Nafo, 1991) والجمود العقائدي *dogmatism* (Brahim, 1977)، والتسلطية (إبراهيم 1984، 1977)، والنزعة العصابية *neuroticism* (تركلي، 1979، 1977). وفي دراسة شتمية لنسبة الالتحاق بأحد أقسام الطب النفسي في الفترة من 1998 إلى 1999 فاقت النسوة المرضيات

المرضى من الرجال بنسبة دالة إحصائية (Fadale & Medany, 1991). كذلك فافتت نسبة المريضات من النساء، نسبة المرضى من الذكور في كل أشكال اضطرابات الاكتئاب في حياة خارجية للرعاية الأولية في إحدى المستشفيات المعروفة بدولة الإمارات العربية (Fadale & Abood, 1994). وفي دراسة بين 270 مريضاً ومريضة في إحدى أقسام الطب النفسي بالمملكة العربية السعودية، هربت النسوة عن تعرضهن للضغوط النفسية/ الاجتماعية بنسبة أعلى من المرضى الرجال، وبشكل أكثر مما هو عليه الحال في الغرب (Chaleby, 1988). وفي دراسة كويتية (هادي، 1996) ترتفعت النساء الكويتيات عن الرجال الكويتيين في عدد من المؤشرات الفسيولوجية المرتبطة بزيادة التوتر النفسي، من بينها ضغط الدم، وضربات القلب.

ولجئنا دراسة حديثة (عبد الخالق، 1994)، أن الإناث يزدن عن الذكور في كل متغيرات القلق في جميع مراحل العمر، تقريباً. وتوضح نفس هذه الدراسة، أن درجة القلق عند الإناث تبدأ منخفضة حتى سن 11 سنة، ثم تأخذ في الارتفاع الحاد في المراحل التالية من العمر، وتصل أقصى درجاتها في سن المراهقة. مما يشير إلى أن المرأة في العالم العربي تعتبر من حيث لغة الصحة النفسية من أكثر الجماعات استهدافاً لمخاطر الاضطراب النفسي، ويزداد مخاطرها في مراحل مختلفة من العمر، خاصة في المراهقة.

والطفل العربي أيضاً في خطر. فمن واقع دراسة تمهيدية، تبين لنا أن 85% من الزيارات في عيادتنا النفسية السلوكية بقسم الطب النفسي، بجامعة الملك فيصل كانت لمشكلات متعلقة بالأطفال بشكل مباشر أو غير مباشر. ومن بين هذه المشكلات: 35% كانت لمشكلات يمكن وصفها بالمغلوبة لأنها تتطلب رعاية مهنية وإشرافاً طبياً مكثفاً بما فيها: ذهان الطفولة، والتخلف العقلي، واضطرابات الانتباه والتركيز، واضطرابات القلق. وفي استطلاع لرأي 88 من العاملين بالمحفل التربوي من مدرسين ونظار بمدارس الكويت عن المشكلات النفسية والتربوية. ولعل أهم ما كشفت عنه هذه الدراسة الكويتية وجود مشكلات نفسية تنتشر بشكل مرتفع بين أفراد هذه البيئة وتتعلق سلباً وبشكل مباشر بالصحة النفسية من بينها: كثرة المشاجرات، والشوهد، وإهمال الدراسة، والتهور. وقد تماثل نمط انتشار

هذه المشكلات بين الذكور والإناث، إلا أن مدارس الذكور شهدت أيضا انتشارا أكثر في أنماط سلوكية سلبية، كتدمير الممتلكات، والحركة المفرطة، وتدخلين السجائر. بينما شهدت مدارس البنات شيوعا أكثر في الاستجابات الغالة على التشاؤم، وتوقع الأسوأ، والتردد، والمجزع من اتخاذ القرارات (مكتب الإنماء الاجتماعي، 1993).

فضلا من هذا، يوجد ما يدل على أن نسبة أكبر من الأفراد الذين يتعرضون للكوارث والحروب يكونون أكثر عرضة من غيرهم للأخطار النفسية والعقلية مما يجعل مجتمعاتنا العربية في خطر مماثل، خاصة في البلدان التي تعرضت مباشرة لحرب الخليج، كالكويت. وكشاهد على ذلك الكثير من الدراسات التي أجريت في لبنان خلال حروبها الأخيرة (Zahr, Khoury & Seoud, 1994; Zurayk & Ammanian, 1985; Khel & Ammanian, 1985; Shamaa, 1987). وفي الكويت إثر العدوان العراقي وحرب الخليج (انظر: الأنصاري، 1994، 1995، 1996، 1994، 1994، 1993، الممر، 1993، النائم، 1994، المشعان، 1993، هادي، 1995).

كذلك، تُبين دراسة العلاقة بين الأمراض النفسية والمتغيرات الديموجرافية في البلاد العربية أن الجماعات في الطبقات الاجتماعية المنخفضة، ومن ذوي الدخل المحدود، والأفراد غير المتزوجين من أكثر الجماعات عرضة للإصابة بالأمراض النفسية والعقلية كالإكتئاب، والقلق، والعدوان، مما يجعل أفراد هذه الجماعات أكثر عرضة لأخطار الأمراض النفسية من غيرهم، وأنه يجب وضع احتياجاتهم لخدمات الصحة النفسية موضعاً بارزاً من الاهتمام.

الخلاصة، ومن خلال ما عرضنا من بحوث (e.g., Ibrahim, 1979; Ibrahim & Al-Nafie, 1991; Ibrahim & Ibrahim, 1983; Ibrahim, 1991; West & Al-Kalaf, 1986) يتبين لنا أن المواطن العربي بالمقارنة بأقرانه في المجتمعات الغربية لا يقل احتياجا لخدمات الصحة النفسية بسبب تعرضه لكثير من الضغوط النفسية والاجتماعية. وتشير المقارنات الحفظارية ومقارنة الفروق بين الجماعات في مختلف البلدان العربية إلى أن بعض الجماعات تعتبر أكثر من غيرها استهدفاً للأخطار النفسية والعقلية، كالنساء والأطفال، والمعرضين للكوارث والحروب، وذوي الدخل المحدود والمراهقين والمزاج. وفي مجتمعات تتضاءل فيها - خصوصا - الخدمات النفسية

بشكل مؤسف وملحوظ، تتضاءل هذه الخدمات أكثر فأكثر بالنسبة لنفس هذه الجماعات المستهدفة. ولهذا يحق لنا أن ندق ناقوس الخطر، بأن ندعو لمزيد من الدراسات التي تستهدف إعطاء الأولوية لتقديم خدمات الصحة العقلية وتوجيه سياساتها، في مختلف أنحاء العالم العربي على نحو إيجابي ومندروس.

الأطر الحضارية للشخصية العربية

سنقدم في الجزء المتبقي من هذه الدراسة بعض المقترحات الخاصة بالتعامل الفعال مع المشكلات النفسية للمريض العربي، وذلك بالاعتماد على خبرتنا في الممارسة العملية لسنوات طويلة مع المرضى العرب في العالم العربي وفي الولايات المتحدة. وبالأخص أن هذه المقترحات قد بنيناها على الخبرة، فإن ما يستندنا من أسس ومبادئ مستمد من واقع حدد لا بأس به من البحوث الاجتماعية والأنثروبولوجية والنفسية والطب النفسية.

ومن ثم، فإننا نقترح وجود أربعة عوامل خاصة بالشخصية العربية يجب مراعاتها في التعامل مع المريض العربي، وتشكل في مجموعها إطاراً مرجعياً للممارسة الفعالة لأساليب العلاج السلوكي وما يتصل به.

هذه الأبعاد المتوالية الأربعة ستكون موضوع هذا الجزء، ويمكن تسميتها:

- 1 - التوجه الديني والمقاليدي Religious orientation
- 2 - المرغوبة والمحرك الاجتماعي Social amiability and communal value
- 3 - الجنس، وما يرتبط به من محظورات Sex as a taboo
- 4 - الاتجاه السلطوي والانتهاكات الخارجية Authority orientation & external locus of control

ويجب أن ننبه - بادية ذي بدء - أننا لا نقصد بذكر هذه الخصائص تقديم قائمة متكاملة من خصائص الشخصية العربية، بقدر تقديم بعض الهاديات السلوكية التي توحي لخبرتنا الخاصة إلى ضرورة التنبيه لها بسبب ما يحيط بها من ممارسات علاجية، ومن شأن الانتباه لها أن يمنع كثيراً من المصداقية والفاعلية للأساليب العلاجية التي يستخدمها غير الصحة العقلية والنفسية في العالم العربي.

كما أننا لا نقصد من وضع هذه الأبعاد الإشارة إلى وجود عقلية أو طابع قومي National Character عربي مختلف كقيا عن غيره في هذه الخصائص، فتراها لا توجد إلا بين العرب، وتنطبق على كل العرب بشكل متساو. الأخرى أن ننظر لها بصفاتها خصائص متوالية Model. ومفهوم الشخصية المتوالية - كما سنستخدمه هنا - من المفاهيم التي ابتكرها «إنكلز» و«ليفينسون» منذ أكثر من ربع قرن (Lewin, 1939) ليشير بها إلى تزايد شجوع بعض خصائص الشخصية في بعض المجتمعات أكثر من غيرها. بعبارة أخرى، فإن الطابع القومي المتوالي للشخصية لا يمدد كونه إشارة إلى الزيادة النسبية في شجوع بعض أنماط أو سمات الشخصية الموروثة أو المرضية في مجتمع معين. ومن ثم، فإننا نرى هذه الخصائص - بهذا المعنى - تزايد شيوعها في البيئة العربية، ومن ثم، يجب وضع حساب خاص لها خلال الممارسات العلاجية.

ويمكن لممارس العلاج السلوكي في البيئة العربية - بتنبه لهذه المتغيرات - أن يكتسب الكثير من المهارة والفاعلية في مختلف مراحل العملية العلاجية بما فيها:

- 1 - صياغة السلوك المحوري Target behavior
- 2 - تحديد الأهداف القريبة والبعيدة للعلاج Treatment goals
- 3 - اختيار الأساليب العلاجية الملائمة Treatment techniques

ولنتقل الآن إلى بعض التفاصيل المرتبطة بوصف أبعاد وخصائص الشخصية العربية قبل أن نتقل إلى مساهماتها العملية في الممارسة الإكلينيكية لمختلف مراحل العلاج السلوكي.

القوجه الديني العقائدي:

تأثير العلاقات الاجتماعية في مختلف المواقف تأورا عموميا بالدين الإسلامي، فانت تجد سجادة الصلاة والمصحف الشريف داخل كل بيت مسلم تقريبا، حتى في بيوت هؤلاء الذين لا يجارئون الطقوس العقائدية على نحو متظم.

ولأن العلاج النفسي السلوكي يعتبر بدوره موقفا اجتماعيا تفاعليا يتبادل فيه فردان أو أكثر التأثير والتأثير المتبادلين، ولأن الممارس السلوكي يريد من خلال هذه

العلاقة أن يؤثر في مريضه حتى تتحقق الأهداف العلاجية على نحو فعال، فإن عليه أيضاً أن يحسب حساب هذا البعد في توجيه هذه العلاقة توجيهها إيجابياً. إن الممارس السلوكي الذي يطبق الأساليب السلوكية الشائعة على نحو آلي ودون أن يحسب حساب البعد الديني ودوره في تنظيم العلاقات الاجتماعية لن يحرم نفسه من إحدى نقاط القوة لحسب، بل سيرتكب خطأ فادحاً في حق مريضه، ولي مصداقته الشخصية credibility بين مرضاه، مما سيضر بالأهداف العلاجية على نحو أكيد.

بغذ - على سبيل المثال - الأسلوب السلوكي المعروف باسم تدريب القدرة على تأكيد الذات Assertiveness training، (إبراهيم، 1984) وتطبيقه في حل الصراعات الزوجية. فمن خلال علاقاتنا الطويلة ببعض الزملاء من الممارسين العرب/ الأمريكيين في تعاملهم مع المرضى العرب في الولايات المتحدة، لاحظنا أن كثيراً من الجوانب الدالة على فشل العلاقات العلاجية (بما فيها الانقطاع المفاجيء عن الجلسات العلاجية، والرهبة في الانتقال إلى مجال آخر، وتعتز أهداف العلاج بسبب تدخل أحد أفراد الأسرة) كانت لاحقة لاستخدام هذا الأسلوب على نحو خاطيء، يتصادم مع دور المبادئ الدينية والاجتماعية في تعديد شكلات العلاقات الاجتماعية والزوجية.

فضلاً عن هذا، فإن من المرغوب أحياناً إثارة المشاعر الدينية على نحو متعمد بسبب ما قد تؤدي إليه من تأثيرات علاجية إيجابية. وقد بين بدرى (Badri، 1979) - على سبيل المثال - أنه كان يثير المشاعر الدينية بشكل متعمد لمساعدة مرضاه المهاجرين ليصل بهم إلى الاسترخاء العميق والهدوء.

ولي أحيان كثيرة قد تستند بعض جوانب السلوك المرضي بطريقة غير عقلانية على أروحية أو توجه ديني خاطيء (بعض الهواجس، والسلوك القهري/ الوسواسي كالتوضي القهري، مثلاً)، مما يؤدي إلى آثار علاجية سلبية. في مثل هذه الحالات، من الممكن اللجوء إلى الأساليب الممرقية في العلاج السلوكي لتحييد أخطاء إدراك الفرد للمفاهيم الدينية، وما قد تثيره إدراكاته الخاطئة، من تمويه هذه جوانب السلوك المصوري المطلوب علاجه. ولكي يتحقق أكبر قدر من فعالية الإقناع العقلي فقد وجدنا أن من الأفضل للمعالج السلوكي/ الممرقي أن

يسلح نفسه بالمعرفة الدينية، خاصة تلك التي تتعلق بإثارة الاتجاه الصحي،
والوحي بمفاهيم من الصحة النفسية. ويمثل هذا التوجه يحمل المعالج السلوكي/
المعرفي على زيادة مصداقية لدى مريضه، كما يعمل على خلق إطار ديني عقائدي
وصحي يناقش - ومن ثم يكف *inhibits* - الاتجاه والسلوك المرضي الذي يتبناه
المريض بما في ذلك تصحيح المعتقدات المخالفة والأفكار الانهزامية والسلوك
الاجتماعي/ المرضي.

النزعة للمروحية الاجتماعية والتمركز الجماعي:

النزوع الجماعي والإغراق في معايير وأحكام الجماعة في مقابل النزعة
الفردية من الأشياء الهامة في المجتمعات الغربية، تكشف عنها الملاحظات العامة،
كما تكشف عنها بحوث السلوك الاجتماعي في البلاد العربية (انظر مثلاً:
Molloy, 1977; Sharabi, 1977; Tuma, 1980) فالأطفال يتم تدريبهم منذ فترة
مبكرة من حياتهم لتقبل الوجود مع الآخرين وتفضيله على الانفراد بالنفس أو
الانعزال. وعلى أفراد الأسرة أن يفعلوا ذلك دون إظهار أي تململ أو احتجاج
حتى ولو كان لهم أو لأحدهم مشاغل أو ارتباطات خاصة. بل إن مجرد الرغبة في
الابتعاد عن الآخرين واعتزالهم لفترات مؤقتة لأسباب شخصية أو ليداعية قد ينظر
إليها على أنها شيء غريب وشاذ لا يجوز تشجيعه (إبراهيم، 1978). وربما لهذا
السبب نجد أن الرغبة في إرضاء الآخرين والاتصاف الاجتماعي من الأشياء والقيم
المقبولة، والتي تلقى تدعيمها قوياً في المجتمعات العربية. وعلى المستوى
المعرفي، يُبين بحوثنا أن القلق الاجتماعي في الدول العربية، يعتبر من أكثر أنواع
الاضطراب النفسي شيوعاً بين طلاب الجامعات العربية بما فيها مصر وليبيا
والكويت والعمانية، مما يدل على مدى ما تلمحه المبحرارة والاتصاف الاجتماعي
من ضغوط نفسية على الفرد العربي (Brahim, 1991).

كذلك يُبين بحوث أخرى (Molloy, 1977) أن الطلاب العرب بمقارنتهم
بطلاب غربيين تجنبوا التمهيرات الدالة على المدوان والتهجم، وعندما أتيح لهما
الاستجابات أن تظهر، كانت تقع بالمجاملات والاعتذارات. فالاهتمام الأساسي
بين المواطنين العرب، يتركز على معاملة المحافظة على علاقة طيبة ودودة

بالأخرى، نخلو قدر الإمكان من الصراخ والقوتز وترتكز على فهم الصداقة والمحبّة. إن الفرد العربي في علاقته بالأخرى يحارل بكل جهده ألا يهرج مشاعر الأخرى أو كرامتهم.

من الناحية العلاجية، من الضروري للمعالج السلوكي أن ينتبه لهذه الخصائص المتأصلة في الشخصية العربية خاصة عندما يتعرض لمعالج اضطرابات السلوك الاجتماعي بما فيها من صعوبات العمل وتوتر العلاقات الاجتماعية بين الأزواج والزوجات، أو الآباء والأبناء، أو الرؤساء والمرؤوسين. ومن ثم، فإن من الواجب توثيق الحظر الشديد في ممارسة بعض أساليب العلاج السلوكي التي تستخدم في علاج الصراعات النفسية المرتبطة بمثل هذه المواقف بما فيها تدريب القدرة على تأكيد الذات، ومهارات التعبير عن الاحتياجات الخاصة. إن الممارس الذي يريد أن ينجح في وجهة نظره واقعية وجاهدة نحو أهداف العلاج، لن يجد ما يحفظ مصداقيته أمام مريضه العربي إن هو شجعه على الاستجابة للمعالجة نحو الأصدقاء، أو الآباء، أو الرؤساء، أو الأزواج وأفراد المجتمع الآخرين.

لكن من الممكن - من جهة أخرى - الاستفادة بالالتزامات الاجتماعية التقليدية الشائعة في الأسرة العربية كوسيلة إيجابية لتوسيع أهداف العلاج. ونجد - من جانبنا - أدلة قوية في صالح منهج العلاج الأسري/ السلوكي في تشجيع توالف المريض لمجتمعه ومواساته في بعض حالات الاكتئاب، ومساعدته في مواقف الضيق النفسي المرتبطة بالصراعات الأسرية، وصراعات العمل. ومن ثم، فإننا نتوقع أن يجد الممارس السلوكي في الهيئة العربية ثروة خصبة لأساليب العلاج الأسري/ السلوكي يسهب ما يحفظه من مكاسب على هذا المستوى.

كما يمكن أيضاً، تعديل بعض أساليب السلوكية الأخرى، وتطويعها للاستفادة من هذه الحقيقة. لقد وجدنا مثلاً في إثارة الصور الذهنية المرتبطة بمواقف الائتماء الاجتماعي والائتماس بالأخرى من أفراد الأسرة والأصدقاء وسيلة فعالة لتحطيق الأسرغاء كظنية علاجية، ولذا نرى لنا مريضاً أنهم يجهنونها ذات تأثير مهدئ. أكثر من صور الطبيعة ومشاهد الغلاء والأهوار والجهال.

الجنس ومخطوراتها:

على الممارس أن يتعامل مع المشكلات الجنسية بحذر شديد. ومن ثم، فإن اختيار فنيات العلاج السلوكي للاستخدام في علاج المشكلات الجنسية يجب أن تخضع للتدقيق الجيد، وأن تكون متوافقة مع الإطار الحضاري. ونعتقد أن التطبيق الآلي لأساليب العلاج الجنسي كما هي مستخدمة في الولايات المتحدة خاصة تلك التي ابتكرها «ماسترز» و«جانسن» (Masters & Johnson, 1967)، ودون التنبيه للإطار الحضاري وما يحيط به من اعتبارات دينية وتقليدية، وتوزيع أدوار القوة بين أفراد الأسرة العربية، والمفاهيم المثالية من المرأة... سيحول العلاج إلى تجربة حرجية لكلا الطرفين، الممارس والمريض.

إن نمط العلاقات بالجنس الآخر في غالبية الدول العربية يختلف عن تلك التي في الدول الغربية. هذه حقيقة تكشف عنها أي ملاحظة عابرة، كما تكشف عنها دراسات علماء الأنثروبولوجي، وعلماء النفس الاجتماعيين. فتفاعل أفراد نفس الجنس بعضهم بالعض الآخر يختلف عن أنماط التفاعل مع الجنس الآخر في جوانب كثيرة في اتجاه الميل للتخلف، وقلة حجم التفاعل اللفظي، واختيار موضوعات الحديث... الخ. صحيح أنه توجد فروق مماثلة في نمط العلاقات بالجنس الآخر في الغرب، إلا أن الفروق ليست هي نفس الفروق.

خذ - على سبيل المثال - المسافة الفيزيائية (أو البعد المكاني) بين الطالب الجامعي والطالبة الجامعية في بلد عربي كمصر عندما يتبادلان حواراً معيناً، وقارنها بالمسافة بين طالبين مثليين في إحدى مدن كاليفورنيا. ستجد دون شك فروقاً شاسعة.

وتأكيداً لهذه الحقيقة أجرى «ساندرز» وآخرون (Sanders et al., 1985) دراسة قارنوا فيها بين مجموعتين من الطلاب في جامعة الإسكندرية، وإحدى الجامعات الأمريكية، واكتشفوا بالفعل أن الطالبات المصريات قد يحافظن على مسافة مكانية عند تبادلهن الحوار مع زملاء الذكور (سواء كانوا زملاء عاصيين أو من الأصدقاء المقربين) أبعد من تلك المسافة التي تحافظ عليها زميلاتها الطالبات الأمريكية عندما تتبادل الحوار مع زملائها الذكور. فضلاً عن هذا، نجد أن المسافة بين الجنسين لا تختلف فقط، بل تأخذ اتجاهها مآكساً، إذ من المتوقع أن تأخذ المسافة بين الطالب

والمطالبة من الأصدقاء في الولايات المتحدة وضعاً وثيقاً للدرجة قد تختفي فيه تماماً. أما في البلاد العربية فإن هذه المسافات الوثيقة لا تكون إلا بين الأصدقاء من الجنس الواحد. أما مع أفراد الجنس الآخر فإنه عادة ما يُنظر إلى هذه المسافة الوثيقة مع أفراد الجنس الآخر على أنها مستهجنة، وغير مقبولة اجتماعياً.

ولا شك أن كل هذا يعكس التصورات العربية للعلاقة بالجنس الآخر بصفته موضوعاً حساساً ومجرماً، ولأن الجنس من الموضوعات الهامة في العلاج النفسي، ولأن العلاقة العلاجية كثيراً ما تكون بين أفراد مختلفين في جنس كل منهم (معالج رجل مع امرأة، أو العكس)، فإنه يجب أن يتنبه الممارسون إلى هذا الموضوع لوضعه في إطار سليم وفعال.

ولسنا نغني من هذا أنه يجب على المعالج ألا يتطرق لمناقشة المشكلات الجنسية، أو أن يتجنب إخضاعها لأساليب العلاج السلوكي الملائمة. إن العلاج السلوكي للاضطرابات الجنسية في البلاد العربية يمكن أن يؤدي إلى نتائج إيجابية، كما يمكن ممارسته ولكن مع ضرورة أن يفهم المعالج أنواع العلاقات الملائمة، وجوانب الحساسية والتهديد النفسي للزوج أو الزوجة عند التطرق لمثل هذه الموضوعات، حتى يمكن لكل الأطراف الدخلة في هذه العلاقة أن تحقق أكبر قدر ممكن من الفوائد المشتركة. كما يجب على المعالج عند تعامله مع أفراد من الجنس الآخر ألا يغفل عن أن إدراك الآخرين له بما فيهم المرضي والأقارب والأزواج أنه رجل تنطبق عليه نفس التصورات الجنسية الشائعة. ويحتاج هذا منه لمجهود خاص أكثر من زميله الممارس في الغرب. فمن اللائق أن يحافظ على مسافة بعيدة مع المرضي من الجنس الآخر، وأن يتجنب اللمس (أو الترتيب) كوسيلة من وسائل التدعيم والتعزيز للمريض. ومن المفضل - إن كان ممكناً - أن يشترك معالج ومعالجة مما في جلسات العلاج في حالات العلاج الأسري والجنسي.

التوجه نحو السلطة والانضباط الخارجي:

تمثل العلاقة بنماذج السلطة جزءاً حيوياً من حياة الأفراد في كل المجتمعات الإنسانية. وتوضح الدراسات الحضارية المقارنة أن المصريين يحصلون على

درجات تفوق الأمريكيين على مقاييس التسلطية (إبراهيم، 1984). وفي دراسات أخرى سابقة تبين بمقارنة مجموعتين من الطلاب إحداهما من أصل عربي والأخرى من أصل أمريكي في جامعة بيردو: العربية (Prothro & Mollan, 1953) أن المجموعة ذات الأصل العربي تفوقت على المجموعة الأمريكية على مقياس أدورنو للميول التسلطية. وقد تكررت نفس النتيجة عندما قام إبراهيم بالمقارنة بين الطلاب المصريين والأمريكيين على مقياس «روكيتش» Rokach للجمود العقائدي الذي يقيس وظائف مماثلة لمقاييس التسلطية (Ibrahim, 1977). لكن مقاييس التسلطية في كل الدراسات المصنفة عربية، لم تكن مرتبطة بمقاييس التصلب، والنفور من الغموض، والتوتر، كما هو الحال بالنسبة للميول الأمريكية. وقد دفعت تلك النتيجة بالباحث (إبراهيم، 1984: 20) أن يستنتج أن ارتفاع الطلاب المصريين في الميول التسلطية [كما تقيسها مقاييس التسلطية] لا يعتبر دليلاً على ارتفاع مستوى التصلب والنفور من الغموض في الشخصية كما هو الحال في المجتمعات الأنجلو/أمريكية.

أي أن ارتفاع الميول التسلطية في البيئة العربية يقيس شيئا مختلفا عما يقيسه في البيئة الأنجلو/أمريكية. ويبدو أن من الأسلم أن نستنتج أن ارتفاع التسلطية لدى فرد أمريكي تشير إلى هدم المرونة والتصلب، والتعصب، ولكنها بالنسبة للطلاب العربي ربما لا تكون أكثر من خاصية شائعة في الشعوب العربية للتعبير عن احترام السلطة، ومبايرها.

ويتفق هذا الاستنتاج مع البحوث والملاحظات العامة للمجتمعات العربية في إثبات أن الأفراد العرب يميلون - أكثر من الغربيين - إلى احترام السلطة، وطاعة مهابيرها (Mollan, 1977; Ibrahim, 1983; Ibrahim, 1982). وقد بين «مليكيان» في دراسة استخدم فيها مقياس تكميل الجمل للشخصية في حينات حرية أن تقبل السلطة، واحترام مهابيرها من الخصائص البارزة في الشخصية. ولهذا نجد أن العلاقة بنماذج السلطة تمثل جزءاً عضوياً من حياة الأفراد وقيمهم. وتزداد أهمية الفرد بمقدار قربها أو بعدة عن مواقع السلطة في الجماعة (Mollan, 1977).

وإن أحد المحاور المتضمنة هذا البعد ما يسمى بالانضباط الخارجي External Locus of Control في مقابل محور الانضباط الداخلي (Phares, Internal Locus of Control, 1979). ويمقتضى هذه النظرية، يميل الخارجيون إلى تبني المعتقدات الدالة على أن السلوك تحكمه قوى خارجية عن الشخص كالمعظ والقدر والظروف الخارجية بما فيها السلطة والواسطة... إلخ. بينما يميل أصحاب البعد الثاني (الداخليون) إلى نسبة السلوك إلى عوامل داخلية أي متعلقة بالفرد نفسه كالجهد الشخصي، والعمل والمثابرة وقدراته الخاصة. وقد كشفت بعض البحوث (إبراهيم، غير منشور) أن الطلاب العرب بالمقارنة بعينة من الطلاب الأمريكيين في جامعة ميشيغان الشرقية Eastern Michigan University كانوا أكثر انصافاً بالخصائص الدالة على الشخصية الخارجية.

ونظراً للارتباط الوثيق بين التوجه للسلطة والانضباط الخارجي، ونظراً لأن البعدين يشعنان في الشخصية العربية، فإن من الضروري أن ننتبه إلى متضمناتهما الإكلينيكية. فعلى مستوى ممارسة العلاج النفسي، كلما كان العلاج يميل إلى التوجيه المباشر والبناء المصحف كانت فاعليته أفضل. ومن رأينا أن العلاج السلوكي في البيئة العربية ربما يكون - لهذا السبب وحده - أفضل وأكثر فاعلية من العلاج الوجودي والتحليل النفسي. وتزيد الدراسات الإكلينيكية التي أجريت في بيئات غير عربية مماثلة في بنيتها للبيئة العربية كالمكسيك واليابان (e.g., Sue & Zane, 1990; Sue & Morikawa, 1992) هذه الحقيقة، من حيث إن المرضى في تلك المجتمعات كانت استجابتهم أكثر إيجابية لأنواع العلاج المباشر directive approaches. كما يتفق معنا في نفس الرأي خبراء الصحة النفسية في الوطن العربي، عندما يرى بعضهم (e.g., Badr, 1970; Chaleby, 1992; West & Al-Kalaf, 1985) أن الأساليب العلاجية المباشرة كالعلاج بالترويم المصنطيسي، والعلاج الكيميائي وبعض أساليب العلاج السلوكي تعتبر أفضل من غيرها للممارس الإكلينيكي في البلاد العربية. كذلك يرى آخرون (Chaleby, 1992) أن العلاج السلوكي / المصنطي يقع في نفس الفئة الفعالة من الممارسة العلاجية الملائمة للتطبيق بين المرضى العرب بسبب وضوحه وتأكيده المباشر على علاج الأعراض المرضية. إننا ندهو بهذه المناسبة إلى مزيد من البحوث في هذا الاتجاه حتى يمكن التخطيط الملائم لسياسة الصحة النفسية في البلاد العربية وعلى نحو مستثير.

مسار العملية العلاجية في إطار حضاري عربي

إن من إحدى الملاحظات الرئيسة في العلاج السلوكي أن الفرد يتعلم أساليب العلاجية من خلال خبراته المستمرة ببيئته الاجتماعية. ومن ثم فإن عملية العلاج تتطلب أن يتعرض المريض لتوجيه المعالج إلى خبرات جديدة تتنافس السلوك الحرفي وتكفنه. وتستند مناهج العلاج السلوكي إلى عدد من نظريات التعلم من بينها: التشريط الكلاسيكي (classical conditioning)، والتشريط الإجرائي (operant conditioning)، والتعلم بالقدرة الاجتماعية (social modeling)، والتعلم المعرفي (cognitive learning) (انظر بالمرية شرحاً وافياً لهذه الأسس وتطبيقاتها السلوكية في: إبراهيم، 1994، 1991، 1987. إبراهيم، والدخيل، وإبراهيم، 1993). وتتفق هذه المبادئ في المسألة الرئيسة لوصف السلوك المرشحي وعلاجه بصفتها ناتجاً لحوادث بيئية سابقة أو لاحقة لظهور السلوك.

وفقاً لملاحظات العلاج النفسي السلوكي، لا يستطيع المعالج السلوكي أن يمارس عمله بمفاعلية دون أن يراعي خصائص الإطار الحضاري الذي ينشأ فيه السلوك المرشحي ويتدخل بهما في ذلك الإطار من القيم والاتجاهات الاجتماعية السائدة في حياة المريض والتي تظهر تأثيراتها على سلوكه وتدعم اتجاهاته المرضية، على نحو مباشر أو غير مباشر. ويؤدي الانتباه للدور العوامل الاجتماعية والقيم الحضارية الشائعة في عملية العلاج السلوكي إلى فوائد متعددة في مختلف جوانب وعمليات العلاج السلوكي بما فيها تحديد المشكلة المحورية موضوع العلاج (السلوك المحوري) (target problem's)، واختيار الفنيات العلاجية الملائمة (treatment techniques)، وتحديد أهداف العلاج ونساره (treatment goals and prognosis).

صياغة المشكلة وتحديد المشكلة المحورية:

مادة ما يصوغ المريض مشكلاته بطريقة تنطق وتتسق مع اعتقاداته وتصوراته لما هو سليم أم مرشحي، وهي تصورات لا يمكن فهمها - ومن ثم تعديلها - دون

اعتبار للإطار الاجتماعي/ الحضاري الذي تكونت من خلاله هذه التصورات. وقد يركز المعالج ويقتضي مشكلة ثانوية أو تافهة، إذا لم ينتبه للإطار الحضاري للمريض، مما يقلل من فاعليته ومصداقيته.

مثال: قام زوج إحدى المريضات بإحدى الموادات الخارجية بقسم الطب النفسي بأحد المستشفيات الكبرى بإحدى الدول العربية بتقديم شكوى لإدارة المستشفى ضد طبيب نفسي حديث بالقسم لأنه (أي الطبيب) أصر على أن ترفع الزوجة حجابها خلال جلسات العلاج، بحجة أن من الضروري له أن يرى وجهها كجزء من عملية العلاج، وكان نتيجة ذلك أن نقلت المريضة إلى معالج آخر، وبعدها بقليل انقطعت المريضة عن العلاج في فترة حرجية.

في هذا المثال صاغ الطبيب المشكلة المعنوية على نحو مختلف عن تصور المريضة أو أسرتها للمشكلة، وكان من الممكن أن نخلف نتيجة العلاج تماماً لو أنه انتبه لدور الإطار الحضاري في فهم العلاقات الاجتماعية.

اختيار الأساليب العلاجية الملائمة:

قد تتعرض مصداقية المعالج وفاعليته للخطر أو على أحسن الأحوال التشكك، إذا أصر على أن يستخدم مريضه أساليب علاجية تتعارض أو تتنازع من وجهة نظر المريض، مع الإطار الحضاري.

مثال: ذكرت إحدى الطبيبات النفسيات الأمريكيات من ديترويت بولاية ميشيغان لأحد الباحثين (رضوى)، أنها (أي الطبيبة) كانت تقوم بعلاج إحدى السيدات العربيات. وقد نصحت الطبيبة المريضة، في إحدى جلسات العلاج بأن تتبنى موقفاً حازماً مع زوجها الذي كان فيما يبدو يسيء التعامل مع الزوجة. وقد بدأت تعلمها بعض أساليب التعبير عن الغضب بطريقة من طرق تأكيد الذات، وشجعته في فترة أخرى على القيام برحلة محلية خلال عطلة نهاية الأسبوع كانت تقوم بتنظيمها إحدى الجمعيات المحلية للتغلب على حالة الاكتئاب التي كانت تصوبها في تلك الفترة. وقد تعثر العلاج بشدة، وزاد من المشكلة أن المريضة كانت تزفط الأدوية الطبية على أساس أن حالتها لا تستدعي ذلك. وفي هذه المرحلة الحرجية من العلاج التي كانت مشكلات المريضة خلالها تتفاقم،

استشارته الطبية الأممية الباحثة،. وعندما أفركت أن تعبير المرأة عن غضبها نحو الزوج في البيئة العربية ربما لا يكون مقبولا كطريقة من طرق حل الصراع في العلاقات الزوجية بسبب القيم الخاصة، وقد استبدلت بأسلوب العلاج هذا أسلوب العلاج الأسري، أي بإشراك الزوج في جلسات علاجية أسرية تشجع البسمة خلالها وتحت إشراف المعالجة والأخصائية الاجتماعية وتشجعها لها على التعبير عن احتياجاتها ووجهاتها. ومن بعدما بدأ العلاج يأخذ شكلاً إيجابياً مختلفاً. حتى الزوج الذي كان في البدايات الأولى غير متفتح على أن تستمر زوجته في العلاج، بدأ - بسبب اطلاعه للمعالج على ما كان يدور في جلسات الأسرة - يفتي مؤلفاً إيجابياً ومطمئناً للأهداف العلاجية بما فيها إتاحة الفرصة لزوجته لتنمية بعض الاهتمامات الرياضية والاجتماعية خارج الأسرة.

من الواضح في المعالجة السابقة أن العلاج قد أخذ يتغير، ولشأت هزائل كثيرة ضد من قبل الزوجة والزوج معاً، لأن للمعالجة كانت تشجع منبتها على تبلي طيلة فترة علاجية غير مقبولة ولأن الإطار الحضاري الذي عاشت فيه المريضة. وعندما انتهت المعالجة إلى أن العلاج الأسري قد يكون هو الصيغة المقبولة في مثل هذا الطرف وتحت هذا الإطار، كُثرت بالمعالجة العلاجية نحو إيجابياً مختلفاً عن السابق.

أهداف العلاج:

إذا اختلفت أهداف المعالج عن الأهداف التي عند المريض، فإن المعالجة العلاجية ستعاني معاناة سلبية شديدة، وستأثر مصداقية المعالج بنفس الاتجاه السلبي. ومن المعتقد أن القطاع المرفق المفاجيء عن جلسات العلاج بتزايد بسبب هذا العامل نتيجة لمشاعر عدم الراسة، وخيبة الأمل، والخرج الناتج عن التعارض بين الأهداف المرسومة للعلاج. ومن المؤكد أن كثيراً من الأهداف العلاجية التي يبتوها المريض تكون متأثرة إلى حد بعيد بالإطار الحضاري وما يفرسه على الفرد من جزاءات، أو ما يمنع من إلهات لسلوك معين، كما سنرى في الحالات الآتية.

مثال: سيدة صمودية في الثانية والثلاثون من العمر، حاصلة على شهادة جامعية، وزوجة لرجل ناجح بكل مقاييس النجاح الاجتماعي والأكاديمي والمهني، والذي زلّي مؤخراً - وبفترة سابقة - تحليل على مخرج المريضة للعلاج - لوظيفة حكومية عليا. وقد تركزت شكاوى المريضة على عدد من الشكاوى من بينها: الكسل، ومشاعر عدم اللياقة، والسمل، وزيادة الوزن، والخوف على مستقبلها الشخصي في ظل ظروف النجاح الخاص بزوجها، (التي كانت تراها قاصرة عليه ولا تحمل نفس المزايا لها). ذكرت لنا (و. إبراهيم) أنها كانت تتردد قبل التحاقها بالمادة السلوكية على طبيب نفسي في أحد المستشفيات المعجلة، والذي كان من المعروف عنه ميله لمدرسة التحليل النفسي. من خلال البيانات المجمعة في ملف المريضة ومن خلال تقريرها الشخصي، كان من الواضح أن أهداف العلاج - كما رسمها المعالج التحليلي - تركز - فضلاً عن العلاج بالمقايير المهددة - على مساعدة المريضة على الاستبصار بديناميات علاقتها بزوجها، من خلال تحليل خبراتها الطفولية المبكرة من حيث علاقتها بوالديها، وعلاقة أمها بأبيها. وقد رسمت المريضة خبرتها العلاجية السابقة بأنها كانت غير مريحة، ولم تكن ملائمة لحل مشكلاتها (لقد ذهبت للعلاج بهدف محدد، ولكني وجدت أنه يقودني إلى سكة أخرى). ولهذا فقد شجعنا المريضة منذ البداية ولجلستين متتاليتين على حصر كل شكاياتها، واستطعنا من خلال ما عبرت عنه شخصياً، ومن خلال الاستمانة ببعض المقاييس السلوكية أن نحصر جوانب المشكلات المعنوية (target-problems)، ومن ثم الوصول إلى اتفاق متبادل للأهداف العلاجية. كان ذلك - حسبما عبرت المريضة - بداية ناجحة لجلسات علاج فردي وأسري (بوجود الزوج)، فُرِيت المريضة خلالها على عدد من الأساليب السلوكية بما فيها القبول على الاسترخاء، وتصحيح أفكارها الخاطئة عن نجاح زوجها، واستبدالها بالفكر أكثر عقلانية، وتنمية مهاراتها التفاعلية بزوجها وبالبيئة المهنية الجديدة للزوج، فضلاً عن مساعدتها على تنمية بعض المهارات السلوكية للتعامل مع أطفالها الذين كانت تشعر بأنها أهملت في حقهم خلال فترات معاناتها. إنها الآن تؤدي عملاً ناجحاً حصلت عليه مؤخراً، كما أنها - وكما تذكر خلال زيارتها المنتظمة - تضيء علاقة إيجابية ناجحة بزوجها وبأولادها.

... في المثال السابق، يتضح أن من الخطأ الاعتماد على أفكار نظرية جاهزة عند التعامل مع المرضى في الأطر العقلية المبرية. صحيح أن هذا يصدق على المرضى العرب وغير العرب، إلا أن المشكلة بالنسبة للمرضى العرب تكون أكثر إلحاحاً، وتشكل مطلباً علاجياً أهم. فالنظريات العلاجية الكبرى تطورت في الدول الأنجلو/أمريكية لتفي بحاجات مرضاهم ولتلتقي - من ثم - أهدافها الكبرى مع الأهداف العلاجية العامة للمرضى في تلك المجتمعات. أما في الدول العربية، فقد يؤدي التطبيق الأعمى للنظريات العلاجية الكبرى، وبدون محاولة لتطويع الأهداف العامة لتلك النظريات، ولتحقيق الأهداف الخاصة والنوعية للمرضى إلى نتائج معاكسة مع أهداف المرضى، ومن ثم التأثير سلباً في مصداقية النتائج.

مثال آخر: مرضى في الخمسين من العمر، يسكنون كثير من الأعراس المرضية البدنية والنفسية بما فيها الاكتئاب، وهبوط الحمل، وتوهم الإصابة بمرض القلب. أثنى أحد أفراد الأسرة المقربين - والذي تصادف أن يكون طبيباً بقسم الأمراض الجلدية ويحمل نفس الاستشعار الذي يحمل به المصالح (ع. إبراهيم) - بالحضور للعائلة السلوكية للاستشارة، واستكشاف إمكانيات العلاج لشكواه، وتصادف في نفس الوقت، أن حصلت زوجة الطبيب الصديق على معلومات من زوجة المريض - بحكم صداقتها - تفيد بأن المريض يعاني أيضاً من العجز الجنسي في علاقته بها لمدة لا تقل عن عامين. لهذا اتصل الطبيب بالمصالح في الليلة السابقة على الموعد الذي عُيِّن للمريض، مبتلياً إياه، مثله المتطلبات، وأنه ناقشها مع المريض، وطلب منه أن يلتزم بما تحاوله مساعده في إجهاد حل سريع لمشكلاته الجنسية، بسبب ما قد يؤدي إليه من مشكلات أسرية. لقد كان واحداً من البداية وجود أهداف مختلفة للعلاج: المريض يمزو مشكلاته إلى حالته النفسية الراجحة أساساً في تصوره إلى المرضى والمشكلات النفسية، بينما المقربون منه يصفطون في اتجاه أن المشكلة الأساسية هي العجز الجنسي، وما يمكن أن يؤدي إليه من مشكلات أسرية واجتماعية. لهذا أصبح المريض منذ البداية دافعاً ومتردداً في تكوين العلاقة العلاجية، لولا أن المصالح وجه المريض منذ البداية إلى ضرورة تحديد أهداف العلاج كما يراها المريض.

ولما كانت الشكوى من الإصابة بمرض القلب، هي الشكوى الرئيسة كما كان يرانا المريض، فقد أحيل المريض إلى أخصائي الأمراض القلبية بالمستشفى لإجراء بعض الفحوص الطبية له. وخلال هذه الفترة، وتعاون مشترك مع طبيب الأمراض القلبية أمكن للمريض أن تكون علاقة إيجابية مطمئنة بالمعالج، أمكن خلالها الاتفاق على رسم أهداف علاجية لمشكلاته السجوية ومن بينها مشكلات الجنسية، التي أصبحت منذ الآن موضوعاً مقبولاً للعلاج.

يتضح بعبارة من خلال الحالات السابقة أن صياغة أهداف العلاج بشكل لا يتسق مع الإطار الحضاري والشخصي للمريض تؤدي إلى تعطيل العملية العلاجية، ودعماً إلى إقناعها بشكل مبدور. وفي الحالات عندما تترك المعالجان هذه الثغرة، وأصبح هناك تفهم للإطار الحضاري العربي بتوجهاته الدينية، والجنسية، وعلاقات الالتزام الأسري، بدأت العملية العلاجية تتجه اتجاهاً الإيجابي الملائم.

المراجع العربية

أحمد محمد عبدالحق

1994 الدراسة التطورية للفكر. حريات كلية الآداب، 14، (العدد - 50).

بدر صبر العبد

1993 الآثار النفسية والاجتماعية والتربوية للفكر العراقي على دولة الكويت. المؤتمر الدولي الأول للآثار النفسية والاجتماعية والتربوية للمدوان العراقي على دولة الكويت. مكتب الإنماء الاجتماعي، الكويت، (25 أبريل).

بدر محمد الأنصاري

1994 أثر المدوان العراقي في سمات شخصية طلاب جامعة الكويت. المؤتمر الدولي عن آثار المدوان العراقي على دولة الكويت، جامعة الكويت، (25 أبريل).

1998 دراسة حاملة للحالات الانفعالية للشباب الجامعي في الكويت بعد المدوان العراقي. المؤتمر الدولي الثاني من الصحة النفسية في دولة الكويت. مكتب الإنماء الاجتماعي، الكويت، (25 أبريل).

راشد علي السهل

- 1994 أثر العدوان العراقي على عملية النوم وما يصاحبها من سلوك عند الأطفال من سن 11:7 سنة في دولة الكويت. المؤتمر الدولي عن آثار العدوان العراقي على دولة الكويت، جامعة الكويت، الكويت (2-8 أبريل).

عبدالمستار إبراهيم

- 1984 أبحاث عن القوة: الاتجاه التسلسلي في الشخصية والمجتمع. القاهرة: المركز العربي للبحث والنشر والتوزيع.
- 1987 آفاق جديدة في دراسة الإبداع. الكويت: وكالة المطبوعات.
- 1987 علم النفس الإكلينيكي: مناهج التشخيص والعلاج النفسي. الرياض: دار المريخ.
- 1991 القلق: قيود من الهم. مصر، القاهرة: كتاب الهلال.
- 1994 العلاج النفسي السلوكي المعرفي الحديث: أساليبه ومبادئ تطبيقه. القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع.
- (غير منشور) دراسة حضارية مقارنة للميكيافيلية والميول الاحتوائية ومحاور الضبط.

عبدالمستار إبراهيم، عبدالمعز الدخيل، رضوى إبراهيم

- 1983 العلاج السلوكي للعقل، أساليبه ونماذج من تطبيقاته. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة.

عبدالمعز الخاتم

- 1994 دراسة حول مشاكل الشباب الجامعي في الكويت في مرحلة ما بعد العدوان العراقي. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، 74، 202-221.

هويد سلطان المشعان

- 1993 الشخصية وبعض اضطراباتها لدى طلاب جامعة الكويت أثناء العدوان العراقي: دراسة للفروق بين الصامدين والنازحين وبين الجنسين. عالم الفكر، مجلد 22، عدد 1، 152-124.

فوزية عباس هادي

- 1995 تأثير المدى البعيد لازمة الخليج على أطفال الكويت ووالديهم.
المؤتمر الدولي الثاني للصحة النفسية في دولة الكويت (4-1 أبريل).

قاسم الصراف

- 1993 تأثير أزمة الاحتلال العراقي على الجوانب السلوكية والانفعالية والمعرفية للشباب الجامعي في الكويت. المؤتمر الدولي الأول للآثار النفسية والاجتماعية والتربوية للمدوان العراقي على دولة الكويت. مكتب الانماء الاجتماعي، الكويت، (3-6 أبريل).

محمد أحمد هالي

- 1974 دراسة مقارنة لبعض أبعاد الشخصية باستخدام مقياس أيزنك.
الكويت: وزارة التربية، مركز البحوث النفسية والاجتماعية.

مصطفى أحمد تركي

- 1978 الفروق بين الذكور والإناث من الكويتيين في بعض سمات الشخصية. الكويت: مجلة تلبية الآداب والتربية.

مكتب الانماء الاجتماعي

- 1993 الآثار النفسية والاجتماعية والتربوية الناجمة عن المدوان العراقي على أطفال الكويت من سن 17:8 سنة. الكويت: إدارة البحوث والدراسات، مكتب الانماء الاجتماعي، الديوان الأميري.

المراجع الأجنبية

Abel, T. & Metraux, R.

1974 Culture and Psychotherapy. New Haven: College and University Press.

Atkinson, D. R., & Thompson, C. & Grant, L.

1993 «Racial ethnic, and cultural variables in counseling». 2nd ed., pp. 349-382: In S. D. Brown & R. W. Lent (Eds.), Handbook of counseling psychology. New York: Wiley.

Badri, M.

1979 The dilemma of Muslim psychologists. London: MWH Publishers.

Chaleby, K.

1988 Psycho social stresses and psychiatric disorders in an outpatient population in Saudi Arabia. *Acta Psychiatrica Scandinavica*, 73, 147-151.

Chaleby, K.

1992 «Psychotherapy with Arab patients: Toward a culturally oriented technique». *The Arab Journal of Psychiatry*, 3, 1. 18-27.

Farrag, M. F.

1987 Dimensions of personality in Saudi Arabia. *Personality and Individual Differences*, 8, 851-859.

Gordin, M.

1988 Countertransference in cross cultural psychotherapy: The example of Jewish therapist and Arab patient. *Psychiatry International and Biological Processes*, 49, 69-79.

Helms, J. E.

1993 Considering some methodological issues in racial identity counseling. *The Counseling psychologist*, 17, 227-262.

Ibrahim, A-G.

1977 «Dogmatism and related personality factors among Egyptian University students». *The Journal of Psychology*, 85, 213-215.

1975 Extroversion and neuroticism across cultures. *Psychological Reports*, 44, 788-803.

1983 «The factorial structure of the Eysenck Personality Questionnaire among Egyptian University students». *The Journal of Psychology*, 112 - 221-228.

Ibrahim, A-G., & Al-Nafie, A.

1991 «Perception and concern about sociocultural change and psychopathology in Saudi Arabia». *The Journal of Social Psychology*, 13, 179-188.

Ibrahim, A-S., & Ibrahim, R.M.

- 1993 Is psychotherapy really needed in nonwestern cultures? The case of Arab countries. *Psychological Reports*, 72, 881-882.

Ibrahim, R. M.

- 1991 Sociodemographic aspects of depressive symptomatology: Cross-cultural comparisons. *Dissertation Abstracts International*, 51, 12.

Inkeles, A., & Levinson, D.

- 1968 National character: The study of modal personality and socio-cultural systems. In: G. Lindzey and E. Aronson (eds.), *Handbook of Social psychology*, IV. Reading, Pa.: Addison Wesley pp. 418-608.

Khelif, A.M., & Eysenck, S. B. J.

- 1983 A cross cultural study of personality: Egypt and England. *Research in Behavior and Personality*, 3, 215-229.

Khiat, M., & Armonian, H.

- 1985 Morbidity and risk factors. In H. Zuryak & H. Armonian (Eds.), *Beirut 1984: A population and health profile*. Beirut, Lebanon: American University of Beirut.

Klester, D. J.

- 1988 Some myths of psychotherapy research and the search for a paradigm. *Psychological Bulletin*, 65, 110-129.

Liberman, R. P.

- 1984 Treatment and rehabilitation of the seriously mentally ill in China: Impressions of a society in transition. *American Journal of Orthopsychiatry*, 64, 66-77.

Mace, M., & El-Torjani, A.

- 1984 When a man encounters a woman, Satan is also present: Clinical relationships in Bedouin society. *American Journal of Orthopsychiatry*, 64, 367-387.

Maestri, W. & Johnson, V.

- 1987 Human sexual response. Boston: Little Brown.

Melliden, L. H.

- 1977 The modal personality of Saudi College students. In L. C. Brown & N. Itzkowitz (Eds.), *Psychological dimensions of near Eastern studies*. New Jersey: The Darwin Press.

Parnal, M. E., & Padilla, A. M.

- 1983 Status of minority curricula and training in clinical psychology. *American Psychologist*, 37, 780-787.

Phares, E. J.

- 1979 *Clinical psychology: Concepts, methods, and professions*. Homewood, Ill: The Drysy Press.

Ridley, C. R., Mendoza, D. W., & Kanitz, B. E.

- 1984 Multicultural training: Reexamination, operationalization, and integration. *The Counseling Psychologist*, 22, 227-289.

Rufale, O. E. F., & Mediny, M. S.

- 1991 «Psychiatric inpatients in a general teaching hospital: An experience from Saudi Arabia». *The Arab Journal of psychiatry*, 2, 138-145.

Rufale, O. E. F., & Absood, G. H.

- 1984 «Depression in primary health care». *The Arab Journal of Psychiatry*, 5, 39-47.

Sanders, J. L., Hakky, U. M., & Brizzolara, M. M.

- 1985 «Personal space amongst Arabs and Americans». *International Journal of Psychology*, 20, 13-17.

Scott, N.E., & Iwamasa, L.G.

- 1983 Effective use of cultural more taking professional psychology, 21, 167 - 170

Shamea, A.

- 1987 *Growing up with war: The scourge of children in the Third World*. Beirut, Lebanon: Barbir Medical Center.

Sharabi, H., & Ani, M.

- 1977 Impact of class and culture on social behavior: The feudal-bourgeois family in Arab society. In L. C. Brown & N. Itzkowitz (Eds.), *Psychological dimension of Near Eastern studies*. New Jersey: The Darwin Press

Sue, S.

1977 Community mental health services to minority groups: Some optimism, some pessimism. *American Psychologist*, 32, 616-624.

1981 *Counseling the culturally different: Theory and practice*. New York: Wiley.

Sue, S., & Morishima, J. K.

1982 *The mental health of Asian Americans*. San Francisco: Jossey-Bass.

Sue, S., & Zane, N.

1991 The role of cultural techniques in psychotherapy. *American Psychologist*, 42, 1; 37-45.

Toma, J. M.

1989 Mental health services for children: The state of the art. *American Psychologist*, 44, 188-199.

West, J., & Al-Kalsi, H. H.

1985 Comparison of depression symptomatology between Saudi and American psychiatric outpatients. *The International Journal of Social Psychiatry*, 31, 230-235.

Wyatt, G. E., & Perham, W. D.

1985 The inclusion of culturally sensitive course materials in graduate school and training programs. *Psychotherapy*, 22, 461-468.

Zahr, L. K., Khoury, R. N., & Saoud, N. B.

1994 «Chronic illness in Lebanese preschoolers». *American Journal of Orthopsychiatry*, 64, 396-403.

Zuryak, H. & Armenian, H.

1985 *Beirut 1984: A population and health profile*. Beirut, Lebanon: American University of Beirut.

استلام البحث: مايو 1995

إجازة البحث: نوفمبر 1995

قراءة في علم النفس عبر الثقافات

د. صلاح سرديك

سمى العديد من الباحثين إلى استخدام طرق علمية مختلفة من أجل تقصي أثر الثقافة على السلوك والخبرة عبر إجراء مقارنات بين مجموعات الأفراد من الثقافات المختلفة. سناقش هنا واحدا من ثلاثة نماذج تلقى الضوء على النواحي الكاملة وراء الفوضى عمار البحث في العلاقة بين الثقافة والنفس من خلال دراسات عبر الحضارية وعلى الصعوبات التي قد تقف حائلا دون ذلك.

يتعلق النموذج الأول بالذكاء الذي يعتقد بأنه يضم وظائف نفسية عليها من النمط الذي رفض فولت Wundt فكرة إمكانية إخضاعه للشروط التجريبية، أما الثاني فهو يهتم بالذاكرة التي تتميز بوظائف نفسية دنيا وعليا حسب رأي معظم علماء النفس. ويركز الثالث على الإحساس والإدراك طبقا للوظائف النفسية التي يرى فولت أنها عامة والملمسة للاختزال في أساسها الفيزيولوجي مما يتيح إخضاعها للبحث التجريبي.

لقد انتشر في بدايات القرن العشرين الاعتقاد بوجود اختلافات ثقافية في الميالات الثلاث المذكورة أعلاه فظهر تبعا لذلك في الآراء المرتبطة بالتقدير دلالة الفروق في الوظائف النفسية بين أفراد الثقافات المختلفة. مثلا أشارت بعض الدراسات - كما سترى لاحقا - إلى أن أبناء الأقوام البدائية يمتلكون قدرات إدراكية وذاكرة قوية جدا، بينما تمتاز المجتمعات المتقدمة والمستطورة تكنولوجيا بخاصة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، باستلاك الأفراد مستويات ذكاء عالية.

نحن لن نتطرق هنا إلى النموذجين الأول والثاني على أمل البحث فيهما لاحقا. ساهمت الجهود الجبارة التي بذلها علماء النفس والعاملين في ميدانه واستخدمهم أساليب علمية رصينة كان التجريبي أهمها في تفريد علم النفس والاعتراف به كعلم مستقل. وقد أتاح ذلك المقارنة بين نتائج الدراسات المختلفة عبر مسار تطور النظرية والمنهجية في علم النفس. ولعل غياب اهتمام علم النفس العام بالأبحاث عبر الثقافية في خضم المقارنات السابقة واللاحقة لنتائج الدراسات النفسية يعود إلى أن الأخيرة لم تأخذ بعين الاعتبار دور الثقافة أو أثرها في السلوك والخبرة لدى الإنسان.

وتكمن أهمية ما نقوم به الآن في السعي نحو تحليل نتائج الأبحاث المتعلقة بالإحساس والإدراك ولاحقا الذاكرة والذكاء من أجل فهم دور الثقافة في السلوك البشري بشفاوية أكبر، علما

لتوصل من خلال ذلك إلى استخلاص الظروف والظروف الاجتماعية والثقافية التي تنبع في أساس وجهات نظر الباحثين ونظرياتهم ذات العلاقة.

وكما سترى فيما بعد فإن التقويمات العلمية للمشتغلين في الميدان غالباً ما تطوي على بصمة المعتقدات والقيم والاتجاهات التي تسود مجتمعاتهم في الفترة الزمنية التي عاشوا فيها أو لا يزالون.

إطار اجتماعي-تاريخي

تشير ليملي كان E. Chan و شلن وفت S. White إلى أن نشأة علم النفس وتطوره ارتبطت عضوياً بظهور مراكز بحثية خاصة به، إلى جانب التوجه نحو التخصص والتخصص والتفريد العاوم الاجتماعية بشكل عام (Chan, White, 1992). فمثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية بدأت علوم كالمسيكولوجيا والسيكولوجيا والاكثربولوجيا والاقتصاد والبوليتولوجيا (السياسة) خلال فترة لا تزيد من ثلاثين عاماً أكثر تمايزاً ووضوحاً، علماً أنه يمكن القول بتصور ما جميعها حول ما يسمى بعلم السلوك.^١

وعلى عكس ما كان يحدث في إطار الأكاديمية كان التطور في المدارس والشركات والمؤسسة العسكرية في المجتمعات الصناعية يصطدم بحواشٍ بيروقراطية كثيرة، مما دفع القائمين عليها إلى طلب المساعدة من المختصين في مجال العلوم الاجتماعية المختلفة لمعالجة المشكلات النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي تفاقمت خلال أيام الصيرورة التقنية في جوانب حياة الإنسان المختلفة. طبما يجري الحديث هنا عن الفترة التي وصلت فيها سيطرة أوروبا وتأثيرها على آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ذروتها، وذلك الجيل الأول من علماء النفس القرن العشرين، وهم الضربة التي وجهت القيم والأفكار الرومانسية المتعلقة بالتقدم الإنساني مع بداية الحرب العالمية الأولى، مثلاً بالمنطلقات أو للنظريات والآراء ووجهات النظر التي سادت في أواخر القرن التاسع عشر. هم لم يجيبوا على الأسئلة الأساسية التي طرحها أجدادهم لا كعلماء ولا حتى ككائنات حايين.

وتميزت الحياة في الولايات الأمريكية بالانتقال مكثف من مجتمع قروي زراعي إلى مجتمع يعيش فيه عدد كبير من الناس في مدن هائلة ينتشر فيها استخدام الطاقة الكهربائية والغاز

^١ يقدم ولیم كسین (Kessen, 1990, p.12) حرداً مفرداً لتاريخ توطيد بداية تفريق اعضاء فريق علم النفس والعلوم الاجتماعية الأكاديمية الأمريكية بموضوعات تقع في إطار العلوم الاجتماعية: أكاديمية علوم السياسة ١٨٨٠، الجمعية الأمريكية للعلوم الطبيعية ١٨٨٤، الجمعية الاقتصادية ١٨٨٥، الجمعية النفسية الأمريكية ١٨٩٢، المعهد الوطني للعلوم ١٨٩٩، الجمعية الأثربولوجية الأمريكية ١٩٠٢، جمعية علم الاجتماع الأمريكية ١٩٠٥.

إلى حد كبير، مما أدى بدوره إلى تغيرات عميقة في حياة الناس الذين يقطنون هذه المدن على الصعيد النفسي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي... الخ.

وتم عزل الأوروبيين آنذاك بقوة القنّون في مناطق خاصة بهم، ثم بدأت شوارع المدن تسج بالأوروبيين من شرق القارة وغربها.

ولعل أهم ما ميز تلك الفترة الاندفاع للتغير نحو العلم والإيمان به كطريق أمثل لحل المشكلات التي تعيق تقدم الإنسان. وعلى العكس فقد كان العرب يمتطون لذلك متن صيرورة تفكيرية صاعدة الاحتمال على التفكير الفردي واللاخطائي والخيبي الذي لا يزال للأغلب منتشرًا ويشكل قاعدة يستند إليها الناس في التعبير الظاهر من حوالهم.

بمباراة أخرى، استطاع علم النفس أن يشخص الكثير من المشكلات المرتبطة بالعلاقات بين الأشخاص والبيئة المحيطة بهم وأن يقدم تحليلًا لها، لكن الأفكار حول موضوعات كالثقافة والعرق والتقدم والتخلف الاجتماعي بقيت تظل من الملذات تفهيمات علماء النفس، بل لم يختلف الأخيرين عن الناس العاديين في آرائهم حول هذه المسائل.

القرن العشرين والإدراكية والثقافة

تم إجراء أولى الأبحاث التجريبية التي عُنيت بالفروق الثقافية في القدرات الإدراكية في بدايات القرن العشرين عندما كان علم النفس لا يزال ضيقًا (انظر في Haddon, 1901). وبعد قرابة خمسين عامًا أصبح جزء من هذا العمل المبكر موضوعًا للمزيد من الأبحاث الهادفة إلى الكشف عن الفروق الثقافية في الإدراك البصري (مثلًا Segall, Campbell, 1966). (Herskovitz, 1966).

ترأس هيدن A. C. Haddon عام ١٨٩٥ (رئيس قسم الأنثروبولوجيا في جامعة كامبريدج آنذاك) بعثة علمية نظمتها جامعة "كامبريدج Cambridge" إلى ما كان يسمى حينها بـ "عندبا البريطانية الجديدة" والجزر للتوريسية Torres Straits (وهي مجموعة من خمس جزر تقع في المحيط الهادي، مساحتها ١٢٢ كم²، ويبلغ عدد سكانها ٢٠٠ ألف نسمة). وكان الهدف الأساسي لهذه البعثة يتشور حول تقصي بعض التباينات الموجودة هناك. وبعد أن بدأ الباحثون العمل هناك صرح هيدن أنه "لا يمكن جد أي بحث يتعلق بالإيمان مكتملاً ما لم يأخذ دراسة اللوامي الفلسفية بعين الاعتبار" (Haddon, 1901, p. V). وهكذا ضم فريق البعثة كبيراً بمناهج علم النفس التجريبي يدعى ريفرز W. H. R. Rivers - حقق لاحقاً نجاحات هامة في مجال الأنثروبولوجيا، علماً أنه حاز على شهادة في الطب البشري (Slobodin, 1978). وبدأ ريفرز يهتم بعلم النفس التجريبي عندما كان يدرس في جامعة "كوليدج Collidge".

بلندن قبل أن ينتقل للعمل في جامعة كامبريدج عام ١٨٩٧. وحسب ريفرز إلى فريق عمله مكون من الباحثين هما مايرز C. S. Mayers ووليم ماكدوغال W. McDougall بسبب ضخامة حجم العمل ودقته. وكمناصر للمنهج الفولتي (تقصد بذلك منهج فولت) في الأبحاث المخبرية ركز ريفرز وزملائه على قياس الفروق في القدرات الحسية (أو الوظائف النفسية الأساسية). وفي مسيرهم لتحقيق هذا الهدف حمل هو وفريقه مجموعة من الأجهزة والتكليات التي صممت لدراسة الإحساسات البصرية والسمعية والشمية. وكان الاهتمام الأكبر من قبل ريفرز وزملائه ملصبا في إطار التحقق من فرضية بعض الدارسين الأوروبيين الذين جاءوا أجزاء من العالم يعيش فيها لغوام بدائيون تنص على ما يلي: "يظهر الأفراد من الأقوام البدائية غير المتحضرة درجة كبيرة في حدة حواسهم مقارنة بأبناء الشعوب الأوروبية" (Rivers, 1901, p. 12). ويكتب ريفرز في هذا الصدد أن "رجال سان كريستوبال - جزيرة من الجزر السلومولية^٢ Solomon Islands - يمتلكون عيون أسود الجبال"، حيث يفتقدونهم اكتشاف مكان لموضع الحمام على الأشجار من مسافة بعيدة وفي وقت متأخر من النهار حتى ولو كانت أوراق الأشجار تنوء هذا المكان ... كما يتميز السكان الأصليون لـ إيرلندا الجديدة New Ireland - جزيرة تقع في الأرجنتين ليسمركي من المحيط الهادي، وتخضع لحكم الاتحاد الفيدرالي الأسترالي. تقدر مساحتها بـ ٨٦٠٠ كم^٢ أما عدد سكانها فيبلغ حوالي ٦٥ ألف نسمة - بقدرتهم على اكتشاف الغيمة التي قد لا تراها نحن بالعين المجردة وأيضا على تحديد مكان وجود القوارب الصغيرة من مسافة ٧ إلى ٨ أميال حتى في الأوقات التي يكون فيها الطقس سيئا. وهذا ما قد لا يستطيع نحن القيام به حتى ولو استخدمنا المناظير أو التلسكوبات" (Rivers, 1901, p. 13).

لقد أخذت مثل هذه الروايات حيزا كبيرا من صفحات المجلة العلمية الأمريكية الشهيرة "Nature" خلال الثمانينيات من القرن التاسع عشر. وكان الجدل قائما لذلك حول معالجة المعلومات وتصويراتها التي تضمنتها مثل تلك الروايات، حيث آمن البعض بأن الشعوب البدائية تمتلك بصيرة حادا جدا مقارنة بالشعوب المتحضرة. من جهة ثانية كان هناك رأي يقول بأن البدائيين يركزون اهتمامهم بشكل أكبر على المزايا المتطابقة بينهم والمحيط ولهذا تجدهم يحوزون على خبرة أكبر في التعامل مع تفاصيلها الدقيقة.

سحب الباحثون إلى قصص صعبة وجهتي النظر السابقتين، فقاموا بإجراء العديد من الأبحاث ترتبط بحدة الحواس. فمثلا ريفرز نفسه بحث حدة البصر ودرجة الألوان والإدراك البصري

^٢ دولة تتكون من ٦ جزر تقع في الجزء الجنوبي الغربي من المحيط الهادي قرب من يديها جزيرة سان كريستوبال. وتبلغ مساحتها ٢٨٤٤٦ كم^٢ أما عدد سكانها فيبلغ إلى ٢٧٠ ألف نسمة.

للدراخ، بينما ركز ريفرز على دراسة حدة السمع والشم والذوق، واهتم ماكجوغال بتقصي الإحساس اللمسي والقدرة على تمييز الوزن الحقيقي والتغيرات الفرد للأوزان.

وتعد النتائج التي توصل إليها ريفرز من دراسته لحدة البصر عامة جدا ومثيرة للجدل في نفس الوقت. لقد استخدم من أجل تحقيق شايقة البصية اختبار لا يختلف في شكله وإجراءاته كثيرا عما يستخدم في التشخيص الطبي للقدرة البصرية. يقدم هذا الاختبار للمفحوص على شكل جدول يضم أشكالاً وحجوماً مختلفة للحرف "E" مربعة من الأكبر إلى الأصغر، علما أنه في كل سطر تكاين اتجاهات هذا الحرف. يعطي المفحوب كل مفحوص حداً من البطاقات تشمل كل أشكال الحرف وأحجامه كما ورنفت في الجدول ثم يطلب منه أن يمسك البطاقة طبقا للجهة التي يأخذها الحرف حسب ما يشير إليه المفحوب على الجدول أمامه. طبقا هذا الإجراء حصل إمكانية اختبار أولئك غير المتعلمين أمرا يسيرا. وقد كبر بعد التطبيق أن دقة تعرف المفحوصين على أشكال الحرف "E" تتخلف بشكل كبير كلما صغر حجم الحرف المشار إليه على الجدول.

جمع ريفرز معلوماته أو بياناته من التطبيق على ١٧٠ فردا من السكان الأصليين للجزر التوريسية، حيث قام باختبارهم في شروط بيئتهم الطبيعية (وليس في مختبر) لوضع وجود إتساع طبيعية مناسبة. ثم تم التعبير عن النتيجة النهائية في العلاقة بين المسافة التي يمكن فيها تحديد المفرد وحجم هذا المفرد: كلما كانت العلاقة أقوى كلما زادت حدة البصر. بكلمات أخرى، كلما استطاع الشخص أن يحدد مائرا ما من مسافة بعيدة كلما دل ذلك على درجة عالية من حدة البصر لديه. وحسب ريفرز وصل متوسط حدة البصر لدى السكان الأصليين للجزر التوريسية إلى (١ / ٢٠١). ومن أجل التحقق من صحة ما توصل إليه ريفرز، كان هذا الأخير بحاجة إلى مطبوعات أخرى للمقارنة. لقد افترض ريفرز وجود صعوبات كبيرة لتحقيق هذا الشرط، حيث أشار أن تحديد درجة حدة البصر لدى الأوروبيين في مستوياتها المعتادة صعب المنال لأنه يتطلب تقنية أخرى مناسبة لهذا الغرض (Rivers, 1901, p. 14).

وهكذا بدأت هذه المرحلة تكشف عن الصعوبات التي تواجه الباحثين في الميدان. لقد حاول معظم الدارسين استعمال تقنية مختلفة أو اختبار مختلف عما استخدم ريفرز لكن دون جدوى. إذا كان الجميع يلحى باتجاه إعداد شيء مشابه لتقنية "E"، وهذا بعد ذاته كان مشكلة أيضا، فلا يمكن الاختصار على هذا الاختبار فقط لأن النتائج لن تكون دقيقة، حيث نعلم تماما أنه في الدراسات عبر الثقافية لا يمكن الاكتفاء باستخدام أداة واحدة طالما نسمى إلى قياس ظاهرة ما في أكثر من ثقافة أو بيئة وما يكون مناسباً لواحدة منها قد لا يكون مناسباً لأخرى، وعلى هذا الأساس يمكن القول أن التوسع في الإجراءات البحثية وإعداد الاختبارات المناسبة للأفراد حسب البيئة التي يؤثرون ويتأثرون بها شرط ضروري ولازم. وفي الحقيقة تمكن ريفرز لوحا ما من

تأسيس مقارنته استنادا إلى المعطيات التي حصل عليها جراء تطبيق اختبار ه على حينة من مكان جزيرة هيلغولاند Helgoland - جزيرة تقع على بعد ٤٥ كم من ألمانيا. لقد كانت نتائجها مفيدة لأن حينته تألفت من ١٠٠ شخصا ويتسبون إلى شباك صيدية مختلفة ويمتثلون لصيد كمصدر رزق لهم كما هو الحال بالنسبة لسكان الجزر للتوريسية. لقد كانوا من مستويات تطورية منخفضة جدا مما يجعل نتائج المقارنة أكثر قيمة. وبلغ متوسط حدة البصر بالنسبة لهؤلاء نحو (١,٧٧ / ١). وعلى الرغم من قساسة ريفرز بدقة النتائج التي توصل إليها تبدو الفروق بين المجموعتين التجريبتين غير دالة كثيرا. وبعد أن راجع نتائجه أشار إلى أن النتيجة العامة التي يمكن أن يقال هنا هي " أن حدة البصر لدى البدائيين - رغم كونها أكبر - ليست أفضل بكثير مقارنة بالأوروبيين... لم تظهر الأرقام البدائية تلك الدرجة من التفوق في حدة البصر على الأوروبيين كما جاء في قصص الرحالة السابقين" (Rivers, 1901, p. 42).

أما بالنسبة لبقي الحواس فقد كتب ريفرز أن المفحوصين من الجزر للتوريسية يظهرون حساسية أقل نحو الإدراك البصري للون الأزرق، كما أنهم أقل تأثرا بالألوان البصرية مقارنة بالأوروبيين. من جهته اكتشف ماك دوغال بعد سؤال أفراد القبيلة للتوريسية والأوروبية عن تقديرهم للمسافة بين نقطتين يتم تبنيهما في أن معا على سطح الجاد أن الأوائل كانوا أكثر في تقدير هذه المسافة من الآخرين. وقد تبين له من ناحية ثانية أن الحبة الحسية لتقدير الفروق بين الألوان لدى مفحوصي الجزر للتوريسية كانت أخفض مقارنة بالمبحوثين الأوروبيين. وفيما يتعلق بالاحساس السمي وجد مايرز أن الخلية للأوروبيين أي أنه أقوى لديهم، بينما لم يجد فروقا بالنسبة للأحساس الشمي.

لقد طرحت العديد من الأمثلة حول هذه الأبحاث ولا تزال الإمكانية قائمة لطرحها اليوم. فمثلا أيد تيتشر E. H. Titchener - عالم نفس أمريكي بعد واحد من أهم أنصار المذهب التجريبي لفونت في الولايات المتحدة الأمريكية - نتائج هذه الأبحاث محذرا أنه من الصعب الحصول على مثل هذه المعطيات السلوكية لأنها تساعد في فهم بعض الجوانب النفسية للإنسان البدائي من خلال قصص علاقته مع البيئة والجماعة التي يعيش فيها (Titchener, 1916, p. 235).

لقد اتفق مع ريفرز أيضا بالنسبة للصعوبات التي تحدث عنها أثناء تطبيق اختباراته في الجزر للتوريسية. ثم عمد تيتشر بكل ما يستطيع إلى إعلاء شأن الباحثين، حيث وصف جهودهم بالإبداعية. لكن رغم هذه الكلمات الجميلة جاء تقييمه لنتائج هذه الأبحاث قاسيا، حيث اعتبر الاختبارات المستخدمة غير صالحة ولا تحقق الأهداف المرجوة من تطبيقها.

ويمكن القول بأن انتقادات تيتشنر يمكن أن تحلل حتى بعض الأبحاث الأكثر حداثة من تلك التي قام بها ريفرز ورفاقه.

وتبدو واحدة من أهم المشكلات التي تقف حائقا أمام هذا النمط من الأبحاث واضحة للعيان لكنها تهمل بشكل متعمد أو غير متعمد. نقصد هنا أنه في معظم الحالات لا يمكن أن تكرر التجارب التي تم إجراؤها في المجتمعات البدائية. ويوجد ذلك للثقافات الكبيرة التي يتطلبها النقل والسفر والتجوال هناك، إلى جانب التطور الدائم في الشروط أو الظروف التجريبية التي يعيش فيها المبحوثين^٢. وللتخفيف من هذا الإشكال حاول تيتشنر إجراء ما سماه فيما بعد "بالتجارب المرئية". وهو يرى أن تكرار تجربة ما في مختبر نفسي يعني إعادة تطبيقها على ذات أو نفس للمحوصلين الذين تعرضوا للنفس المعلومات أو المثيرات التجريبية من قبل. على كل حال تيتشنر على ما سماه بـ "الوحدة النفسية" من أجل إعطاء نتائج وثوقة أكبر. فعلى سبيل المثال يشير هو إلى أن وصف ما قام به المبحوثين من الجزر التوريسية^٣ يذكرنا من جديد بأن الطبيعة البشرية هي ذاتها في كل أرجاء العالم! لم نلتق بامرأة عجوز من جزيرة موراي Murray - جزيرة تقع في المحيط الهندي - قامت بربط اسمها وأسماء صديقاتها بعدد من الأوراق الملونة^٤ ألم يكرر الشخص الذي طلب منه ترتيب الألوان حسب أفضاليتها بالنسبة له بنفس الترتيب والترتيب الذي اختبره المبحوث في مرحلة أبكر. هذا أمر كثيرا ما نشاهده في مختبراتنا^٥ (Titchener, 1916, p. 206).

وتصخور ألق انتقادات تيتشنر وأعضا حول فئتين من التجارب التي أجريت في الجزر التوريسية. أما الأولى فقد قام بها ماكجوهال وتتعلق بالقدرة على التمييز للمسي. وتعود الثانية إلى ما قام به ريفرز بسداد إبرك الألوآن. وتمثل هاتان التجربتان أهمية خاصة لأنهما تكشفان عن وجود فروق ذات دلالة بين أفراد الجماعات المختلفة في هذه الوظائف النفسية الأساسية، بينما كان متوقعا وجود توافق مشترك لدى جميع الناس إذا أخذنا ما ذهب إليه فرونت في هذا الإطار بعين الاعتبار (أو حتى تفسيرات ريفرز للفروق في حدة البصر) - نقصد الأساس الفيزيولوجي الواحد للمحواس لدى جميع أبناء البشر. فعلى الرغم من أن النتائج التي توصل إليها ماكجوهال، التي تكمن على أن السكان الأصليين للجزر التوريسية أكثر قدرة على التمييز الحسي للمسافة بين نقطتين يتم تبويبهما في أن مما على سطح الجلد مقارنة بأفراد حينته الإنكليزية، تبدو منطقية، لأنه أخذ بعين الاعتبار قدر الامكان تكافؤ المبتكبين التوريسية والإنكليزية في الخصائص والشروط، فإنها قابلة أي هذه النتائج للتفسير بطرق مختلفة. فمثلا يشير تيتشنر حول ما كتبه ماكجوهال من

^٢ ولم أجد أية محاولات لتطبيق تكرار تجربة في إحدى الدراسات غير الثقافية لصنعهم للنس الإجراءات، والجماعات الثقافية، طما أنه توجد محاولات بتكرار فيها لمستخدم نفس الإجراءات التجريبية، لكن المجموعة البحثية كانت مختلفة تماما. فوجد هذا ما قام به لوربا A. Luria من أبحاث حول التفكير الاستنباطي (Luria, 1976).

أن "الإجراء المبدئي يجب أن يعيد أي معرفة سابقة للمفكرين بموضوع المهمة المطلوب منهم تنفيذها"، إلى أن الإجراء الذي أصر عليه الأخير كان مشبها بالإيهام مما انعكس بدوره على تفسير نتائج ما قام به المبحوثون في هذه التجربة. ثم وضع تيتشر أن الفرق أدل بين التجربة التورية وبين الإنكليزية في التمييز الحسي للمعنى قد يعود إلى الخرافات المبحوثين في مهمات إنسانية أو بسبب الفرق في كمية الإيهام المقدم والبرهنة بالمسبة لأفراد المبحوثين. وهكذا بدأ تيتشر يركز جهوده على التعليمات وكيفية تقديم المثير لها. على ما يبدو لم يكن مثير الفرق الذي بحث عنه ماكندو هال هو المسألة بين النقطتين منبهتين على سطح الجلد بل أن هذا وإنما الإحساس الذي يثيره لديه عقول النقطتين، حيث يدرك هذا الأخير بطريقة مختلفة تماما عن لديه نقطة واحدة على سطح الجلد (Titchener, 1916, pp. 207-208). وعلى هذا الأساس قام تيتشر فرضية مفادها أن الفرق التلافية التي تحدث عنها ماكندو هال هي فروق في الأسلوب الذي فسر فيه المفكرسون التعليمات والمثيرات المتقدمة لهم. واستنتج تيتشر من خلال الأبحاث التي أجراها في مسقط رأسه في الإحساس الذي ينجم عن لديه نقطتين على سطح الجلد، أنشأ العديد من الاختصاصات النفسية. فذكر بعض المفكرين إحساسهم بوجود خط متصل بين النقطتين المنبهتين، بينما فسر آخرون بشيء يتحرك بين النقطة الأولى والثانية. وفسر تيتشر نتائج التي توصل إليها ماكندو هال ونصنف نتائجها إلى تباين مساهدي الأخير من حيث كم التعليمات والإيهامات التي كانوا قد قدموها للمفكرين، مما جعل تقديراتهم ونتاج عملهم تباين أيضا. وبهدف التأكيد من مدى صلاحية نتائج ماكندو هال قام تيتشر بما أسماه بـ "التجربة المعجزة". وهدد فيها إلى تكرار تجربة ماكندو هال مستخدما أداة مائلة لأداة ماكندو هال، لكنه بدلا من تعميمه لآخرون مختلفين من الاختصاصات النفسية النفسية ركز على تباين التباين في الإحساس الحسي من خلال لديه هذه النقطة أو تلك ومداه وشدة. ثم أكد من خلال نتائج هذه التجربة بأن المفكرين من المدرسة الإنكليزية لم يكونوا أقل حساسية للمثيرات النفسية، وإنما كانوا قد فهموا المهمة بطريقة مختلفة.

لم يكتف تيتشر بالحس لحو إثبات عدم وجود فروق في الحساسات الحسية بين المبحوثين (مجموعة الجزر التورية وبين مجموعة الكتل)، لكنه أهدم بجودة النتائج التي توصل إليها ماكندو هال وبراهينه على وجود فروق بين المجموعتين المختلفتين. كان ماخوذا بفكرة أن أفراد الهيئة الإنكليزية لم يهتموا كثيرا بالحساسات من المثيرات والتأصلها بالمقارنة مع أفراد الهيئة التورية، بل انشغلهم الأداة المستخدمة أكثر والأثر الذي قد تتركه على الجلد. والغريب في الأمر أن تيتشر رغم كل ما سبق كان قد أعطى أهمية كبيرة لما ذهب إليه ماكندو هال من أن شدة الحساسات الحسية لدى المبحوثين الإنكليز تصبح شدة جدا كلما ابتعدوا عن الاهتمام الحسي للبهاتين.

(Titchener, 1916, p. 211). والمقصود هنا كلما اقربوا من بينتهم الحسية وانشطوا من البيئة لاهمية لسكان الجزر التوريسية الاصليين.

فيما بعد تعرض تيتشر بالقد الشديد لاستنتاجات ريفرز المتعلقة بالإمبرك المضطرب نسبيا لدى أفراد جزيرة الجزر التوريسية اللون الأزرق. فقام بنفس الإجراءات التي قام بها ريفرز وكانت النتيجة عدم وجود فروق دالة في إمبرك اللون الأزرق بين أفراد الجزرتين خلافا لما ذهب إليه ريفرز.

نولر لنا نتائج المهمات التي قامت بها البعثة العلمية إلى الجزر التوريسية والتقييم النقدي لها من قبل تيتشر إمكانية للتأثير لونها.

تدهم الأبحاث بشكل عام التي استمرت قرابة قرن من الزمن فكرة أن الفروق الثقافية في التقدرات الحسية تقريبا غير دالة وأن وجودها إنما يعود إلى طبيعة الماهيات التي تتكون من مادة محقة كالرموم (المزيد من المعلومات انظر Berry et al., 1992 أو Segall et al., 1990). ويستند هذا التوجه إلى افتراض أن العمليات النفسية الأساسية لا تتأثر بالتأثير الثقافي، على عكس العمليات النفسية التي تتأثر بالأعراف والتقاليد والمعتقدات الثقافية وتربط بالتغيرات فيها.

وبنفس النظر هما سبق فإن نتائج الأبحاث التي أجريت في الجزر التوريسية أو تلك التي قام بها تيتشر تشير إلى أن دراسة ما يسمى بالعمليات النفسية الأساسية (التي يعتقد بأنها واحدة لدى جميع الناس) لم تستطع أن تتجاوز حقيقة أن الأساليب الثقافية المنظمة للتصور المهمات المطلوبة من المبحوثين تقوم بتأثير كبير على أدائهم لها. ورغم ما قام به تيتشر من تديلات على إجراءات ريفرز للبحثية فقد اعترف بأن العوامل الثقافية ظلت نابضة ومؤثرة⁴.

ولكن إذا لمعنا النظر فيما ذهب إليه ريفرز في مقالته لوجدنا أن جانبها منها يلقى الضوء على صعوبة استمرار تمويل المجهود بين العمليات النفسية الأساسية والعليا. ثم حاول في جزء آخر أن يشرح كيف تملاء المعتقدات الثقافية اجتهادية الجزر أو الفراع الذي رأينا مناهما تقود العمليات إلى استنتاجات علمية لا تحمل أكثر من معنى.

وبعد أن بين ريفرز ، بشكل مقنع ، أن حدة البصر ، التي قامها بالاختبارات المتعددة من قبله شخصيا ، لدى السكان الأصليين للجزر التوريسية ليست غارقة ، كان لا بد له من الاعتراض بأنهم أصيلا كانوا يظهرون خصائصهم البصرية. وواحد من المؤلفات التي أثارت تعجب ريفرز كان في أثناء نقله بحرا من جزيرة توريسية إلى أخرى ، عندما أشار من البقية لثلاثة من أبناء هذه

⁴ لم يوافق تيتشر في موقع الأفكار التي كانت نتائج التجارب عبر الثقافة بشكل مطلق. فقام أسير فر على التداخل بين البحوث الميدانية والتجريب (التي يصل في السكندر).

ولكن إذا نظرنا في نتائج تجارب التامبين على هذه العوامل والعمليات الحسية لوجدنا ما مثيرة إلى حد كبير بالأساليب التي قام بها المبحوثون في تصوير ما هو متوقع منهم القيام به. لذا فهو استدلالات الثقافية إلى حد ما حصة في كل هذه الأبحاث.

الجزر وبوقت واحد إلى الغرب يملأو قريباً من الشاطئ على بعد ٧ أميال تقريباً. والغريب في الأمر أن هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا قد خضعوا لاختباراته قبل هذه الحادثة وقد فهم حدة البصر لديهم على أنها جيدة، لكنها ليست فوق طبيعية. وعلى إثر هذه الحادثة كتب ريفرز أن ما حصل هو دليل كلي "أنهم هذه القدرة البصرية لأولئك الذين يعيشون في توحيد مع الطبيعة من حولهم" (Rivers, 1901, p. 43). ويستمر بقوله: "يجب أن الحدة البصرية لدى البدائي تكون في البداية أفضل بقليل مقارنة بالإنكليزي الذي يقع في حالة المتوسط من حيث درجة حدة البصر لديه. لكن الممارسة والشهرة الطويلة للبدائي في التعامل مع جزئيات بيئته جعلته يتعرف على كل ما فيها بشكل دقيق جداً (p. 43). وهكذا فهو يستطيع أن يرى ويتعرف على أشياء بمودة جداً بأسلوب ريفرز وكأنه معجزة.

ثم يتابع ريفرز اهتمامه بهذه القدرة "الطورية" بقوله أنها ترتبط إلى حد كبير بالإطار الفيزيائي انطلاقاً من الأدلة التي تبين أن سميداي السمك الأسفر الذين يصطيدون معنومي السمارة خارج نطاق موطنهم الطبيعي.

لا تقوم فكرة ريفرز على إدراك تجريبي، كما أنها لا تتضمن بالضرورة توظيف معرفتي خارج حدود مهارات السكان الأصليين. من جهة ثانية فقد يمتلك هؤلاء حدة بصر من درجة كبيرة لكن حساسيتهم السمعية قد تكون بالمقابل ضعيفة جداً.

ويشكل الجدول المصنوع - كما أسماه ريفرز - أو نظرية "التعويض" حول دور الثقافة في الشهرة والسمارك الإسمائي أمراً مثيراً للجدل بالفعل. لقد فهم هو ذلك كما يلي: "نعلم أن تطور العقل يعتمد بالدرجة الأولى على المادة التي تقدمها الحواس، وبالتالي يمكن أن يدرس الجدول حول اهتاف الحواس للنمو المعرفي أمراً شريفاً ومستهجناً. لكن إذا قمنا في هذا الجدول، فإننا ننرى الأمر في حدود الطبيعة" وبأنه لا يوجد ما هو غريب أو مستهجن. "فيذا درس الكثير من الطبيعة في عملية المعالجة السمعية، نادماً ستكون معالجة البديهة العقلية التي تركز عليها تلك المعالجة مسألة لكيدة" (Rivers, 1901, p. 44-45). فريفرز مثلاً يلمن بأن الاهتمام المتبادل لدى الإنسان البدائي على أشياء محددة في بيئته المحيطة يمكن أن يوفق النمو العقلي لرائي لديه (p. 45).

وفي هذا الصدد لن نجد لأحمر من رفضي لهذه الفكرة أفضل من تناول الطهجة التي أوصفت إليها. لم يقدم ريفرز لو لم يقدم بأية تجربة تبحث في العلاقة العقلية العليا أو الرافعة بمعنى، فهي ما نلاحظه التي تنطلق بالنمو العقلي لرائي لدى السكان الأصليين للجزر التي رسمية محض شامل وتفكر لا معنى له ولا دليل تجريبي حاد.

أخير الحكماء الذين لم يكن يمكن أن يمتدحوا بها من الأعمال التي قام بها الباحثون في
الجزر التي يسمونها في لغاتهم: فمن جهة، أسهمت الطرق التجريبية المستخدمة فيها في تزويدنا
بالطرق يضم العديد من الأفكار والفرضيات: للعلماء والمرحلة بالعلماء بين المعرفة والثقافة (رغم
كل الفسلفة التي تتعلق بالأمور، والصحيح العلمي الذي تقدمه الباحثون لذلك). ومن جهة ثانية،
لأن الاهتمام على الأفكار التي تمتدحها ويقرها ومما لديه أو إعداده ما يشبهها حالها ما يقوم
الباحثون، حتى للجهل والعمى الذين ملجأ، إلى نتائج أو أفكار تصفها بغير الدقة حتى لا نقول
بالكلمة.

الأوهام البصرية: معطيات أكثر معاصرة

التصلب في التفكير يفرز إضافة لما سبق بما يسمى الركوب إلى الأوهام البصرية. وبالنسبة للطريقة
التي ولد التفكير الذي سطر ويقرر استنتاجاته حول حدة البصر لدى الشعوب فهو صورة بالبدلية
في إطاره فكرة أن الآخرين أكثر قابلية للركوب إلى الأوهام البصرية. انظر انذاه الشكل ١ :



شكل ١: أمثلة على الأوهام البصرية. يمثل الوهم في الأعلى ما يسمى بـ "مورل-لاير"، أما
الشكل المرسوم في الأسفل فهو الوهم الأفقي-العمودي. وكلاهما في كلتا الحالتين متساوية من
حيث الطول، لكنها تروى وكأنها مختلفة بسبب الإطار المختلف لكل منها.

- Berry, J. 1971. "Müller-Lyer Susceptibility: Culture, Ecology, or Race"? *International Journal of Psychology*. 1, 207-229.
- Berry, J. W., Poortinga, Y. H., Segall, M. H., and Dasen, P. R. 1992. *Cross-Cultural Psychology: Research and Applications*. New York: Cambridge University Press.
- Bolton, R., Michelson, C., Wilde, J., and Bolton, C. 1975. The Heights of Illusion: The Relationship between the Altitude and Perception. *Ethos*. 3, 403-424.
- Chan, B., and White S. 1992. "Proposals for a Second Psychology". *American Psychologist*. 47, 224-235.
- Haddon, A. C., "Report of the Cambridge Anthropological Expedition to the Torres Straits", Vol.2, Cambridge: Cambridge University Press.
- Kossen, W. 1990. *The Rise and Fall of Development*. Worcester, Mass.: Clark University Press.
- Luria, A. R. *Cognitive Development. Its Cultural and Social Foundations*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press 1976.
- Pollack, R. 1970. "Müller-Lyer Illusion: Effect of Age, Lightness, Contrast, and Hue". *Science*. 170, 93-94.
- Pollack, R., and Silver, S. 1976. "Magnitude of the Müller-Lyer Illusion as a Function of Pigmentation in the Fundus Oculi". *Psychonomic Science*. 8, 83-84.
- Rivers, W. H. R. 1901. "Vision".- In: A. C. Haddon. "Report of the Cambridge Anthropological Expedition to the Torres Straits", Vol.2, Cambridge: Cambridge University Press.
- Segall, M. H. Campbell, D. T., and Herskovitz, M. J. 1966. *The Influence of Culture on Visual Perception*. Indianapolis: Bobbs-Merrill.

Segall, M. H., Dasen, P. R., Berry, J. W., and Poortinga, Y. H. 1990. *Human Behavior in Global Perspective: An Introduction to Cross-Cultural Psychology*. New York: Pergamon.

Slobodin, R. 1978. *W. H. R. Rivers*. New York: Columbia University Press.

Titchener, E. A. 1916. "On Ethnological Tests of Sensation and Perception". *Proceedings of the American Philosophical Society*. 55, 204-236.

Wagner, D. A. 1977. "Ontogeny of Pozo Illusion: Effects of Age, Schooling, and Environment". *International Journal of Psychology*. 12, 161-176

لماذا الآن ذلك الاهتمام بالفرق عبر الثقافات أو الحضارات في مجال الطب النفسي؟

إن الواقع المعاصر الذي نعيشه يتطلب بطرح سؤال، في كل أمة على حدة، تساؤلاً شبيه بأحد تساؤلات المراقبة.. وهي: من أنا؟ أمت مختلفة من الآخر؟ ليس اختلافاً في جذ ذاته جزءاً من حقيقة الوجود ذاته؟ ليست المسألة تكاداً أو تخطأ بالمعايير السائدة المعاصرة، لكنها في الجوهر إنزاله صرام اضرورة أن نضع بالتوازي على الهوية (الخصومية)، الحاضر الذي هو الآن للشرعي للماضي، والمستقبل الذي يتشكل كجولان في بطن الحاضر.

لذا . . . يبدو أن الموضوع يستند أهميته بسبب ما يجري في العالم من تسوية كل الاختلافات وحمل كل شيء على منوال أو نموذج واحد، وهو النموذج الغربي الذي تسوده الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم يمكن القول أن الكوكبية أو العولمة هي إلى حد كبير أمركة.

في ظل التغيرات التكنولوجية وثورة الاتصالات والمواصلات يتحول العالم المعاصر إلى مستويين من الوجود يعكسهما كل فرد على هذا الكوكب.

المستوي الأول هو الحياة اليومية للمعيشة في كل مجتمع حسب مستوي تطوره، وطابعه التقليدي والتقليدي والثقافي، وذلك بالضرورة مختلف من مجتمع إلى آخر، بل في داخل كل مجتمع يكاد نلاحظ الاختلاف والتباين طويلاً بين الطبقات والطوائف والفئات العمرية في ذلك المجتمع، ذلك المستوى الأول هو المعيار المميز للفارق.

أما المستوى الثاني فهو حالة الإدراك الإنساني الجمعي، والفكر الإنساني الجماعي الذي يتشكل بسرعة متنامية لكي يصبح لغة واحدة هي الإنجليزية، وتغلب على التناقض فيه جماعي على منظومة شاملة من الأفكار أو المفاهيم الأساسية هي أسس ثقافة العالم المعاصر. تلك الثقافة التي ارتطمت الجميع أن يسودها ما يقرره العلم، بالرغم من مساهمات بمساهمات لكل الحضارات المستفادة من العلم للثقافة، والمعتقدات الدينية المختلفة أو غير ذلك من معتقدات أسموها بالمقارنة بالعلم.. الخرافة أو ثقافة الغموض.

أزعم أن أزمة الوجود الحالية للإنسان - التي يعيشها البشر بدرجات مختلفة من الوضوح والوعي - هي ذلك الصراع بين المستوي الأول والمستوي الثاني. ولذلك الأزمة الوجودية تجليات عديدة في كل المجتمعات على ما أزعم، ولكنها أكثر ما تكون إثارة للشواش الذهني والاضطراب المجتمعي والقلق النفسي في تلك المجتمعات ذات الحضارات الضاربة بجذورها في حلق التاريخ والإنسان مثل مصر، والتي ترضى حلها معدلات التطور المعلمي ضرورية التحرك إلى الأمام فيما يسمى بخطط التنمية الشاملة على المذهب الغربي للتقدم والحداثة.

ومصر نموذج خاص لنا جميعا (بحكم لثقتنا لها) لكنها في رأيي الخاص كذلك بالنسبة لها في الدور ذات الحضارات القديمة. . لأنهم ونحن معهم أصبحنا أحيانا كما لو كنا حواجز مدهوين إلى أحد الأكرام المعاصرة. . للفرج أساسا، ولشارك مجبرين أو مجاملين بالتصديق أو بلعب دور المتكاف مما يملطه القناب. . لأننا لا نفهمه ولا نوافق عليه... وربما أحيانا نقول لبعضنا في لحظة صدق .. لأننا لا نقدر على الإتيان بمثله، ولواسي أنفسنا باجترار الماضي. . والامتغراق في نقد الحاضر والتطلع لا يخطر على بالنا الانشغال بالمستقبل.

ذلك الحال من الورطة الوجودية التي تستلزم حلول بعضنا للتأمل ومحاولة الفهم والتفهم هي في رأيي ما يحيطني أرى صنفية للتوجه نحو الاهتمام بالفروق الحضارية والثقافية في ممارستنا لمهنتنا الجمولة. . الطبابة النفسية أو طب النفس.

لأنها في البداية مراجعة يومية متواترة لمن يمارس الطب النفسي بين حقل ينتمي بسبب تكوينه التعليمي والمهني للمستوي الثاني، وإنسان مكروب يحتاج إلى مساعدة، هو/هي منشغل أساسا بمصاناة يومية حيائية في مجتمع بعينه، ومن ثم فهو في المواجهة كيان ينتمي معظم الفركت أو كله إلى المستوي الأول.

في الممارسة الإكلينيكية للتطبيب العام والتخصصات الطبية الأخرى وطب النفس قد تختلف القضايا أو تكرارية أعراض وحالات ما من مجتمع إلى مجتمع، وفي داخل نفس المجتمع بين المستويات الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية المتباينة، ذلك أمر مرصود متفق عليه يرجع إلى معاملة خاصة بكل مرض تتفاعل فيه المسببات المحيطة لمرض وحوامل الخطورة مع بنية الجسم وآلياته المناهضة لتفرض تلك التباين، الذي يكون فهمه في إطار النموذج الطبي المعاصر سهلا، لكن الأمر مختلف تماما بالنسبة للأعراض والعلامات (الخبرائية و

السلوكية) في الاضطرابات النفسية، لأن العرض والعلامة المرضية تصبح في ذلك السياق رسالة سلوكية بقدر ما هي مؤشر لاختلال التوازن العضوي للرد... أي المرض.

ومن ثم نجد الحاجة إلى تلك الإشارة لتلك اللغة الإنسانية ضرورية... مضافة إلى فهم مسار العملية المرضية وآليات الخاتمة والظاهراتية.

والتي لأرحم أن تلك الانشغال بالمعنى - معني السيكيوباتولوجيا - هو الذي يميز الممارسين الأكثر إنسانية، والأكثر شاعرية، وأكاد أقول... بل الأكثر طمعية بالمفهوم الديناميكي للعلم، والإنسان، ودور الطبيب، الحكم، كما كانوا يسمونه في زمان مضى.

إذا: الأعراض والعلامات المرضية في الطب النفسي الإكلينيكي هي مؤشرات الاضطراب، وفي نفس الوقت هي لغة إنسان في كنيته يعني، ويقول بطريقة رسالة... في جوهرها تطلب الرد، وتسمى للحوار مع الآخر، وفي أحيان أخرى قد تكون مجرد رسالة ذاتية من الشخص لنفسه وكلي.

ومسار التطور في الطب النفسي المعاصر يربط أن استمرار الفرع الجديد طب النفس الإكلينيكي تفرع من عدة تخصصات فيما قبل القرن التاسع عشر... أهمها الفلسفة والطب العام والطب العصبي وتطور تيار من الدراسات الأقرب إلى العلمية حول النفس والسلوك الإنساني. هذه الرواد العديدة كونت نهجا من الخبرات المتراكمة والمعلومات الإكلينيكية المتكررة الحدوث التي سمحت لجول الرومانيون المظلماء من العاملين مع مرضى المستشفيات المحبوس بها ذوي السلوك المضطرب غير المنتج من ناحية، والذي يحمل صفات للمعتاة الإنسانية من ناحية أخرى، أقول سمحت تلك التراكمات بتبرحم ثم تكون ذلك التخصص الجديد الذي يصف السلوك الإنساني المضطرب ويسمى لإعادة الرد إلى سياق قدراته عقليا واجتماعيا، مع معنى دورهم مسيبتك ظاهرة العرض والحوامل المجتمعية المحيطة بظهورها ومعالجتها.

لكن أكر فرويد الحاسم بما قدم من رؤى وتأويلات للسلوك في المرض والصحة أدى إلى بصمة دائمة على فهم الأعراض والعلامات المرضية، وبالأخص في التيار الذي بدأه بلويير لتفسير آليات حدوث الهلوس... ومن ثم تلا ذلك تسيد جذاب للفراغ بمحاولة إعطاء المعنى للمرض على حساب محاولة فهم نشوء ومسار العملية المرضية في إطارها البيولوجي (أي

ماذا يحدث في الدماغ ليتحول لسلوكه إلى سلوك مريض، هو مجموعة الأعراض والعلامات المرضية).

إن ما سمع بذلك القصيد منذ بداية القرن العشرين حتى ما بعد منتصفه بمقتضى، هو تصور لغة الطب عن أن تجد اصطلاحاً يدل عن مرض لم يثبت أن له أساساً يمكن رسمه بالحين المجردة أو المجهز في شكل تغيرات باثولوجية في الدماغ. وعلى ذلك دخل اصطلاح الاضطرابات الوظيفية.. لتفتح الباب على مصراعيه لدوي المظاهر الإنسانية الفياضة وذوي القول الفياضة للبحث عن معنى (أرقي في نظريهم من مجرد الفهم) ولتخلط التوجه للبحث عن المعنى بالتفكير الخائى الذي يطلق في الأساس من اعتقادات أو أيولوجيات تفسر الظواهر في إطار منظومة فلسفية متكاملة.. سواء كانت فكراً دينياً أو أيولوجية غير دينية.

ما حدث - بسبب ذلك - كان مسؤولاً عن الانكشاف بالتكريد في موضوع التصنيفات للأمراض النفسية والعقلية في جانب، وظهور تيار رفض الطب النفسي بقيادة توماس زاس في أمريكا وأسترسون ولانج في بريطانيا، وإلى حد ما 'لاكان' في فرنسا.. ذلك على جانب آخر. ولقد ظل المشهد هكذا حتى منتصف الثمانينيات من هذا القرن حين تطورت أدوات التعرف على أصل الدماغ من ناحية، وفرضت نتائج البحوث الانتشارية والإكلينيكية من ناحية أخرى ضرورة أن يجمع الجميع على مراجعة التراث والاتفاق على الحد الأدنى من المنهج والروية.

وهكذا برزت على استحياء، ثم فرضت نفسها، ضرورة الاتفاق على أن لوي الإنسان كياناً مستنداً للأبعاد، كل بعد مضطرب مع البعد الآخر، ولا مجال للكلام بالاختلالية فلسفية عن أن الإنسان كيان بيولوجي فقط أو أساساً، أو أنه كيان نفسي روحي فقط أو أساساً، أو أنه كيان اجتماعي و مجموعة أدواره المجتمعية فقط أو أساساً.

ومن ثم أُلْجِمَ أن الفكرة المفاصرة أو الفهم السائد للإنسان هو أنه كائن بيولوجي نفسي روحي اجتماعي مما.

ذلك في تصوري هو المدخل المناسب لحل إشكالية الإنسان المعاصر الذي يعيش أزمة وجودية ناتجة من تحول الاتجاه نحو عالمية الفكر مع استمرار المعدلات المتباينة لمعدلات المجتمعات البشرية التي تسهم طول الوقت في زيادة معدلات الاضطراب التوافقي مع المجتمع، وزيادة معدلات الاضطرابات النفسية والعقلية (السلوكية) في كل المجتمعات.

لكن الإشكالية التي تواجه كل ممارس وممارسة هي تلك الخصوصية في الأعراض والعلامات المرضية (الخبرائية والسلوكية) التي يواجه بها طالب المصاحبة الطبية. وهي في رأي باختصار الفرق بين الوصف التفصيلي لكل مرض في الكتب الطبية وبين الصور الإكلينيكية التي تختلف من مريض إلى آخر، ويكون الاختلاف أوضح ما يكون بين المرضى بفلس المرض في مجتمعات مختلفة.

أكاد أرحم أن أحدي الوسائل التي تساعدنا في الاقتراب من الفهم الأوسع والمساعدة الأجدى هي أن نستبدل كلمة الاكتئاب مثلا بكلمة المكتئب. حيث لا سيوضح للمدرس والممارس أن المكتئب المصري مختلف بالضرورة عن الصيني، وكلاهما مختلف عن الأمريكي..

كذلك أتصور أن مثل هذه العادة في الحديث عن موضوع ممارستنا الإكلينيكية ستزيد الوعي تدريجيا حتى نصل إلى مرحلة يدرك فيها كل طبيب وطبيبة ممن يمارسون الطب النفسي أن الأرضية الأساسية للمعرفة المهنية هي مزيج من الوعي المجتمعي العام، والإدراك لخصوصية ثقافة المجتمع الذي يمارس فيه مهلته ورصد نابه لقدر تمثيل مريضه المجتمع واستماعه لثقافة ذلك المجتمع.

ويعد .. أظنني بذلك المقدمة، وذلك المدخل، ومكثلي أن أبحر مع قرائي وقارئي في المرات التالية في المياه الهادرة لما نسميه .. للطب النفسي المعاصر من مظاهر خصوصية الثقافات والحضارات.

الاتجاه عبر الحضاري في التحليل النفسي

د. بدر الدين ماسود

علم النفس في القرن العشرين (الجزء الأول)

مكتبات جامعة الكويت للطباعة - ٢٠١١

تزامن بروز هذا الاتجاه مع تفكك الأزمة الاقتصادية التي عرفتها البلدان الغربية، وما نجم عنها من اضطرابات اجتماعية وسياسية آلت إلى تصلم النازية بكونيتها العرقية مقابل الحكم في ألمانيا. وفي ظل هذه التحولات السريعة انتشرت في الحياة الثقافية الأوروبية على وجه الخصوص أشكال جديدة من النزعة الفلسفية التشاؤمية حيال الوجود الإنساني. وكان من الطبيعي أن تبنى الأحداث والوقائع البارزة أصداءها في أفكار المفكرين في العلوم الإنسانية والاجتماعية. ولعلنا ندرك هذه الأصداء بوضوح أكثر في نظريات هورني وغروم وسوليفان.

صالت كارن هورني K.Horney وإريك فروم E.Fromm خلال عشرينيات القرن العشرين محلين لمسيين متدربين في مستشفيات برلين. وقد عرفا آنذاك بإتصافهما إلى الفكر الفلسفي للماركسي. وحسب وصول النازية إلى الحكم هاجرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك أعلنا عن تأليفهما عن الماركسية.

أولت هورني الجوانب الثقافية والعلاقات الاجتماعية اهتماماً خاصاً. ولقد زادت ملاحظاتها الميدانية لثقافتها بأهمية الشروط الثقافية في تكوين الشخصية. حيث ركزت خلال ممارستها العلاجية على أنواع جديدة من الاضطرابات والأمراض النفسية عند مرضاهما الأمريكيين تختلف عما كانت تلاحظه لدى المرضى الأوروبيين. وتطورت كتاباتها هذه بنتائج الدراسات الأنثروبولوجية الثقافية التي نشرتها مارغريت ميد M.Mid وبليديكت R.Benedict ومالينوفسكي B.Malinofsky ولبتون R.Linton في أواسط الثلاثينيات.

لقد جاءت هذه النتائج لتدحض مزاعم فرويد حول النتمية البيولوجية ودور الغريزة الجنسية في تكوين الشخصية ومظاهرها الغمية والشرجية والتضيقية وحسنة أوديب وحسنة إلكترا. وبيدت في الوقت ذاته أن الثقافة والتشئة الاجتماعية هما العامل المحدد للشخصية. فالمرء في جزر الساموا وخيليا الجديدة لا يتعرضون لأزمة المراهقة التي أكد فرويد على هتميتها، ولا يعانون من أزمة صراعات كذلك التي يعاني منها المراهق في المجتمعات المتقدمة. ولاحقت ميد، صاحبة الفراسة، أن تحول طلل تلك القبائل إلى مرحلة المراهقة يتم دون اضطرابات أو مشكلات. وترجع الباحثة السبب في ذلك إلى التشئة الاجتماعية والمعتقدات

التي تؤمن بها القهيلة التي يلتصق إليها الطفل. كما كشفت دراسة بنديكت عن وجود اختلاف في فترة المراقبة من مجتمع إلى آخر. ففي الوقت الذي تستمر فيه هذه المرحلة سنوات عديدة في المجتمعات الحديثة، نرى أنها لا تستغرق إلا شهوراً قليلة في المجتمعات البدائية. وتمكنت الباحثة من أن تذهب على سبيل المثال من الطفولة إلى المراهقة، القمط المتصل، والقمط المتصل الذي يتميز بالفصل بين ما يتلقاه الطفل في مرحلة الطفولة وما يليه عليه استيعابه والتكيف به لكي يصبح راشداً.

لقد أجزنا لأنفسنا الوقوف قليلاً عند أهم النتائج التي نلناها في هذا الأثر. لا يكون الأمر كما هو عليه الظروف الاجتماعية والثقافية التي يتربص بها الطفل في مثلها على صعيد استمرارية مرحلة المراقبة من جهة، ووجود (أو غياب) ما دعاه فرويد بأزمة هذه المرحلة وصراعها من جهة ثانية، وطبيعة الانتقال من الطفولة إلى المراهقة من جهة ثالثة.

إن نظرة هورني إلى الشخصية عبر أهمية المحدد الثاني في تكوينها جعلتها تذهب مؤلفاً تالياً من نظرية فرويد، وكانتها، وبالتالي، إلى معارضة نزخته البيولوجية واعتقاده بأن السلوك الإنساني، السوي منه والفلان، إنما يقرره الطاقة الجنسية، وأن الدوافع التي تشكل المستويات المختلفة للشخصية الفرد تتوقف من النمو بعد السنة الخامسة أو السادسة من العمر. وقد بسطت مؤلفها بصراحة في مؤلفها "طرائق جديدة في التحليل النفسي" وفيه تقول: "إن نظرية الفرويدية وجميع إلهاماتها لا تقوم على أساس علمي". وبعد أن تلتفي الوراثة العضوية لعقدة أوديب: "لا تعتبر عقدة أوديب موروثاً بيولوجياً" تعلن رفضها لـ "كل الإشاعات التي بنيت على هذه النظرية" (HORNEY, 1939, 84).

وبدلاً من التفسير الجنسي لـ "عقدة أوديب" تقترح هورني تناولها في إطار الملاحظات الاجتماعية داخل الأسرة. فالمخاوف التي يربها الطفل تجاه والده لا ترجع إلى توقع الخصاء بسبب ميله الجنسي نحو أمه، وإنما إلى الدور الذي يمثله الأب في نظر الطفل كمسؤول مهيم في الأسرة. كما أن البنت لا تحسد الولد لأنه يملك قضيباً، بل لشعورها بالمكانة المتميزة التي يخصصها لها الوالدان تحت تأثير الموقف الاجتماعي الذي يفضل الذكر على الأنثى. إن ثقافة المصوطة الاجتماعي هي التي تحدد السلوك، وهي المسؤولة بصورة مباشرة ضمن الأمراض العصبية. تقول هورني: "إن العصبية هي في المحصلة تعبير عن الخلل في الرشائج المتبادلة بين الناس" (فروست، ١٩٥٧، ٣٣٢).

ومما يلتفت اليه الكثيرون في أعمال هورني تلك الصيغة الفلسفية التي تكتمل فيها معالجتها لقضايا حتم للنفس المرضية. فقد وجدت في كتابها "صراعاتنا الداخلية" (١٩٤٥) و"العصاب وتطور الإيمان" (١٩٥٠) أن الصراع الداخلي هو ظاهرة ملازمة للإيمان، وأن وجوده لا يعد وحده دليلاً كافياً للحكم على الشخصية بالمرض. وهي ترى أن هذا الصراع يرجع إلى "القلق الأساسي" الذي يعاني منه الإنسان بصورة دائمة ومستمرة، نتيجة إصابته بضيقه وصعده عن مواجهة القوى الطبيعية والاجتماعية. ويقارن الباحثون مفهوم "القلق الأساسي" بمفهوم "عقدة الذنوب" عند أفلو. ويحدثون أنهما يتشابهان في الكثير من الجوانب. فكلاهما يعبر عن الشعور بنبأ الإنسان، كل إنسان، لدى مواجهته للعالم الخارجي. بيد أن هورني لم تعتمد على أفلو اعتمادها على برخصون وكيركيجارد اللذين كثيراً ما تعود إلى كتابتهما وتستشهد بأقوالهما وتردد المفاهيم التي اصطفتت لصفتهما بها كـ "الخوف" و"الغاس".

وإطلاقاً من مفهوم "القلق الأساسي" طرحت هورني مسألتها حول "الصراع الأساسي" داخل الشخصية. ويتجلى هذا الصراع في انعدام قدرة الإيمان على تلصص سبيله نحو معرفة حقة للمستجدات والتغيرات التي تطرأها الحضارة. وفي سياق تحليلها لنزعة الدفعية في حياتها مع المحيط الاجتماعي تميز ثلاثة أنواع من الحاجات: الحاجة إلى الآخرين، والحاجة إلى معاداة الآخرين، والحاجة إلى الاعتماد على الآخرين. وترى أن في كل نوع من هذه الأنواع حصراً من العناصر الرئيسية للقلق الأساسي يسيطر على تركيبته ويتطلب على العناصر الأخرى. ففي النوع الأول يتطلب الضعف الإنساني على بقية العناصر. وفي النوع الثاني تكون الدوافع هي الأقوى، بينما يتفوق الانسحاب والعزلة على هرهما من العناصر في النوع الثالث. ويعني اختلال التوازن بين هذه الحاجات، بالنسبة لهورني، عصبية للشخصية.

لقد اتخذت هورني من هذا التحليل قاعدة لتصنيف الشخصية العصابية، فوجدت أن العصابيين يتوزعون على ثلاث فئات: التنازليين والعنوايين والانسحابيين. ويتسم النمط التنازلي بالانكسالية والاعتماد على الآخرين في شؤون الحياة كافة. ويتطلب حلوه الفورية وتتماثل مع الناس والاندفاع نحو تقديم الخدمات لهم. ويتميز النمط العنواني بالمعند على الآخرين ومعاداتهم والمضي إلى السيطرة عليهم بكل الوسائل المتاحة. تقول هورني: "...إن أحدهما (أي النمطين - ب - ج.) يلمح، وإن كان بصورة عصبية إلى المثل الإنسانية الطوبا،

في حين يسمي الآخر إلى فلسفة الغاب^(البيّن، ١٩٨١، ١٦٠). أما "اللحم الاجتماعي" فرويدسز
بالمعروف عن الآخرين والاستغاث بالقيم والمعايير الاجتماعية.

وعلافاً فرويد الذي تفوقت صلايات البناء النفسي هذه على النزعة للعذولة الفطرية،
تعتقد هورني أن الإنسان يحمل في داخله من القوى المبدعة ما يعينه على قبح مواهبه
وتحقيق ذاته. وتقيم اعتقادها هذا على أساس الإيمان بوجود "لحمة إلى تحقيق الذات" لدى
الإنسان. وتجد أن هذه النزعة الفطرية تجسد "الحاجة المتأصلة في الإنسان إلى التطوير الذاتي
لامكانيته الداخلية. كما يشكل هذا النزوع أيضاً هدفاً للتطور النفسي يحدد اتجاهات قيم
الشخصية، وسبل صليها وأشكال سلوكها"^(البيّن، ١٩٨١، ١٦٤).

ويحتل البحث في تطور الشخصية ومكوناتها المختلفة وارتباطه بـ "النزعة إلى تحقيق
الذات" جزءاً هاماً من نظرية هورني. وفي هذا الصدد توصلت إلى القول بتشكيلات النفسية
داخلية، مثل "الأنا الواقعية" و"الأنا المثالية" و"الأنا الحاضرة" و"الأنا التجريبية". فـ "الأنا
الواقعية" تملك قوة حيوية، وتعرفها هورني بأنها القوة المركزية الداخلية لمشاركة بين جميع
الناس، ولكنها الوحيدة في نوعها لدى كل إنسان بمفرده التي تولد المصدر العميق للنساء"
(HORNEY, 1950, 23,24). وتظن هورني إلى هذه القوى الحيوية على أنها الانفعالات لا
واحدة، ذات طبيعة مزدوجة: بيولوجية واجتماعية. وقد أطلقت عليها "النزعة إلى الأمن
والرضا".

أما "الأنا المثالية" فهي الصورة التي ترسمها الشخصية العصابية لذاتها. وترغب في
امتلاكها. و"الأنا الحاضرة" هي الشخصية بخصائصها الجسمية والنفسية كما تبدو في اللحظة
الراهنة.

ومن خلال ذلك تتجلى بوضوح هوية هورني إلى التطور النفسي الفرويدي. وهذه العودة
لم تفوت حد حدود استعانة هورني بمفهوم الانفعالات اللاواعية لوصف الشخصية، بل
تجاوزتها إلى مفاهيم أخرى، كالإزاحة والمقاومة، واستعمال التليات تفسير الأحلام وطريقة
التداعي الحر. فقد انقلت في هذه المرحلة من حملها مع فرويد حول الأهمية القصوى للنسي
يحتلها الكشف عن دينامية الرهبات أو الانفعالات اللاواعية، باعتباره المهمة المركزية للنسي
وتوجب على التحليل النفسي أن يتصدى لها. وبذا تكون قد تخلت عن أهم مطلقاتها حينما لم
تتطرق ولو ظمياً إلى دور الثقافة أثناء حديثها عن "النزعات الانفعالية". واكتفت بالتأكيد على

استحالة تواجدها معاً في وقت واحد، وأن بعضها يزيج البعض الآخر ويحل مكانه، مما يعني غياب الارتباط بين دينامية القوى اللاواعية ووقائع الحياة الخارجية التي طالما تمسكت بها.

لنا لا جانب للحقيقة عندما نقول إن الثقافة الاجتماعية التي تحدثت هورني عن دورها للفعال في تحديد الشخصية وما يستتبع ذلك من إنشاءات لم تكن سوى عملية تعويض مفاهيم ومسلّمات تنقل إلى السند القوي والحجة المقنعة بأخرى أقل إثارة للشكوك والاحتجاج بقوة إكساب التحليل النفسي حلة جديدة مقبولة، وتزويده بأسباب البقاء والاستمرار. وهو ما أصبحت حله هورني منذ البداية حينما وجدت أن مهمتها تكمن في ترقية النظرية التقليدية في التحليل النفسي، واستبعاد كل ما من شأنه أن يثير التحفظ أو الاعتراض والاحتفاظ بما هو إيجابي ومفيد منها. وصبرت حله فيما بعد بدرجة أوضح حين حددت موقع نظريتها بالنسبة للنظرية التقليدية صبر إجابتها على سؤال حول مدى اعتمادها على التقاليم الفرويدية وأوجه خللها منه. وقد تولت صياغة هذا السؤال على النحو التالي: "بما أن الكثير من تفسيراتي تختلف عن التفسيرات الفرويدية، فإن بوسع بعض القراء أن يسأل عما إذا كان ينبغي أن تعد نظرياتي تحليلاً نفسياً". حيث أجابت بقولها: "إذا كان فهم التحليل النفسي على أنه جميع النظريات التي طرحها فرويد، فعندئذ لا تكون النظرية التي أنشأتها تحليلاً نفسياً" (HORNEY, 1937, IX). وبعد أن تشير إلى أن المقصود بالتحليل النفسي ليس كل ما جاء به فرويد من الألف إلى الياء، وإنما المقصود هو اللاوعي وتقلبات معالجة الأمراض العصبية التي تعتمد في جوهرها على إخراج ما هو موجود في اللاوعي إلى حيز الوعي، تعلن أنه: "في ضوء هذا الفهم تعتبر منظومتها تحليلاً نفسياً" (HORNEY, 1937, IX).

ومن تلك الوقائع الميدانية والموقع الفلسفي التي بنت حلوها هورني تصوراتها حول بنية الشخصية والعوامل التي تؤدي إلى نشوء اضطراباتها وأمراضها، انطلاقاً من فهمها لظواهر وآراء حول انعكاسات حضارة القرن العشرين على البنية النفسية للإنسان. لقد عارض هذا العالم تأكيدات فرويد على أهمية القوى البيولوجية البدائية (الفريزة الجنسية) وأهميته إياها للمحرك الوحيد للسلوك البشري. وذلك على خطأ هذا الاعتقاد بملاحظاته حول سلوك مرضاه. حيث وقف خلال ممارسته للمعالجة على أعراض مرضية لم تكن موجودة في زمن فرويد وفرويد. ولما أن تكون هذه الأعراض نتيجة للنشاط الفريزة الجنسية فهي أطوار الطفولة الأولى، كما رفض تفسير فرويد للسند النفسية. ورأى أن ظهورها مرتبط بمعاناة الفرد من

الأحباء الثقيلة التي تلزمها طلبة الحياة المادية والاجتماعية. وتتمثل هذه الأهمية، حسب اعتقاده، في تزايد حجم الحاجات التي يحس الإنسان بحجزه عن تلبيتها. وكلما ازداد هذا الإحساس حدة تضاعفت المعاناة وتفاقت الأزمة النفسية لديه.

وعندما يتحدث فروم عن الحاجات فإنه يتجاوز الحاجات البيولوجية، كالجوع والعطش والجنس، هذه، هي من الأمور التي يشترك فيها الناس جميعاً، وبالتالي فهي ليست مصدر الاختلاف والتباين بينهم. إن ما يعنيه بالحاجات، إذن، هو شيء مختلف، ووثيق الصلة بالثقافة الاجتماعية من مثل الحب والكرامة، للرجوع في التسلط والسيطرة والاستعداد للتضحية والخضوع. فمن هذه الحاجات تولد الفروق في الميول والاتجاهات بين البشر. ويرى فروم أن تفاوت الناس في دوافعهم إنما يعكس ثقافة المجتمع والعلاقات السائدة فيه وإن من الخطأ أن ننظر إليه كتأخر البقاء العضوي للفرد.

لقد انصب اهتمام فروم منذ البداية نحو البحث في معضلة الوجود الإنساني وهاية الإنسان والأساليب والوسائل التي ينبغي أن يستخدمها من أجل الخلاص من حالته المرضية التي يعيشها في ظل التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي حملتها المدنية البورجوازية. ويلاحظ في هذا الباب أن الإنسان المعاصر يحيا تناقضات وعصاوات داخلية لم تعرف طريقاً إلى إنسان الأزمة السابقة.

فالعصارة الحديثة ملحت له حرية أوسع، ولكنها، في الوقت نفسه، منتهت للقيم الأخلاقية التي كان يحملها من قبل. وهذا ما خلق لديه الشعور بالقلق والخوف والاضطراب. وحطه بمرسة اللامبالاة بمسائل الحياة. كتب يقول: "أصبحت اتهدد (أي الإنسان - ب. ع-) فترتان جبارتان وصماتتان، وهما رأس المال والسوق. وحدث حالته بغيره من الناس الذين تحول كل منهم، بالنسبة له، إلى منافس محتمل، علاقة باردة وعدائية. فإن يكون الإنسان قد وجد نفسه هزأ إنما يعني أنه أصبح وحيداً معزولاً لا يحسن سوى بالأخطار من حوله". (FROMM, 1941, 62, 63).

ويلج فروم في مؤلفاته: "الهروب من الحرية" و"الإنسان في تصوره الذاتي" و"المجتمع المعلوم نفسياً" و"التحليل النفسي والدين" و"اللغة النفسية" على ضرورة تناول الإنسان من حيث هو كائن طبيعي وروحي، وعدم الفصل بين ما هو طبيعي وما هو روحي فيه. وقد وجد خلال بحثه أن الإنسان يعمل مجموعة من المتناقضات التي يعكس تعاضلها في مجموعتين:

المتناقضات الوجودية، والمتناقضات التاريخية. فالإنسان، في رأيه، كائن ضعيف. وضعفه
يتأني من كونه جزءاً من الطبيعة وخاضعاً لقوانينها. وهو، في الوقت ذاته، قوي بفضل قدرته
على فهم ذاته وإبراز ضعفه.

ويوضح ليبين موقف فروم من هذا التناقض بقوله: "إن الإنسان الذي ولد لتتجهه ثقافته
وأهواء الطبيعة، والذي لا يملك ما للحيوان من خرائط قوية، يطور القدرة على اتخاذ القرارات
بصورة مستقلة. غير أنه، أثناء استخدامه بجملة من القرارات المتناقضة لا يستطيع أحياناً
اختيار الصحيح منها، مما يواد لديه صدم الثقة والخوف والتلق، مما يدل على وجود
"زدواجية" وجودية أخرى. نظراً لأن الثمن الذي يدفعه الإنسان لقاء الوعي هو صدم الثقة
بالنفس" (البيان، ١٩٨١، ١٨٩).

ومن بين الأمور الجوهرية التي يعوها الإنسان نهائيه المحتومة. ويحتل فروم حقيقة حياة
الإنسان وحتمية موته "التناقض الوجودي" الرئيسي. ويتجلى التناقض الثالث في الإمكانيات
الكبيرة التي يتمتع بها الإنسان، وجزء من استغلالها وتوظيفها بسبب قصور حياته. أما
التناقض الوجودي الرابع فإنه يتمثل في محاولات الإنسان الرامية إلى إعادة الانسجام مع
الحلم الخارجي دون أن يظهر أي استعداد للتخلي عما يميز شخصيته. فهو يبدى مرونة أثناء
تفاعله مع المحيط، وفعالية في بناء حالات طيبة مع الغير، ولكنه لا يتردد باستغلاله صوته.
ومع أن فروم يعترف بوجود تباين في موقف الناس تجاه هذه المتناقضات تبعاً لثقافتهم، إلا
أنه لم يجد لديهم ما يخلصهم منها ويبعد تأثيراتها السلبية عنهم.

وتختلف المتناقضات التاريخية عن "المتناقضات الوجودية" من حيث مصدرها وطبيعتها.
ففيما يمثل الوجود الإنساني ذاته مصدر "المتناقضات الوجودية" التي تتصف بالديمومة، تتألف
"المتناقضات التاريخية" بلعل ظروف حضارية معينة. وإذا اعتبرها فروم تناقضات مرحلية
وغير مستمرة، ويمسك عليها أمثلة مستمدة من التشكيلات الاجتماعية المختلفة التي ظهرت عبر
التاريخ البشري. ومنها التناقض الذي تعيشه الحضارة المعاصرة والمتمثل في التقدم السريع
للعلم والتكنية الذي جرد الإنسان من قيمه الروحية عوض أن يسفر لرفاهه وسعادته. وقد بدا
فروم مثلاً في نظريته إلى هذا التناقض. حيث يرى أن هناك إمكانية لحله. بيد أنه بدلاً من
أن يبحث عن حل جماعي وشامل، راح يستهضئ الفرد ويستعبد وحيه وطاقتيه الكامنة
للانضطلاح بهذه المهمة الصعبة والمعقدة.

إن الحالة الاجتماعية والأحداث التي عاشتها أوروبا في فترة ما بين الحربين العالميتين وما خلفته من آثار على الفرد والجماعة تركت بصماتها، ولا شك، على آراء فروم وصيغت نظريته في حضارة هذا القرن بالسوداوية والتكاثور. لقد رأى أن الحرية التي منحها هذه الحضارة للإنسان قد تحولت إلى عبء ثقل لا يحتمل. وقضت على اللذة والهدوء والطمأنينة التي كان يعيشها إنسان القرون الوسطى. واستبدلت التضامن والتعاون بين الأفراد والأمن الاجتماعي الذي كان سائداً آنذاك بالمعاداة والتنافر وشعور الإنسان بعزله. والخروج من هذا الوضع البائس يقترح فروم حلين لا ثالث لهما. إما أن يهرب الإنسان من الحرية مهما كانت هذه الحرية، وإما أن يصعد من "الحرية السلبية" إلى "الحرية الإيجابية". وحسب تقديره فإن معظم البشر يتجهون للحل الأول. ويقيم هذا التقدير على الاعتقاد بأن الإنسان يحمل رغبة لا تظهر في هذا الشكل من التخلص من أعباء الحرية.

وعندما أراد فروم أن يتحرى آليات هذه الرغبة اللاواعية وجد أن السبيل الأنسب هو العودة إلى التراث الفرويدي والاعتماد على طريقة التحليل الحر وتفسير الأحلام وتوظيف المفاهيم التي تعبر عن تلك الآليات. وقد توصل بفضل ذلك إلى أن تجليات الهروب من الحرية تتجسد في السادية والماروكية والتدمير والانسجام الآلي.

فالسادية هي نزعة الإنسان للتخلص من مشاعر القلق والخوف والعزلة عن طريق إخضاع الآخرين والسيطرة عليهم. وتتخذ هذه النزعة وجهاً محرفاً يدعوه فروم بالماروكية. والماروكية تعبد النزعة إلى الضئمة والخضوع للآخر.

أما التدميرية فتشير إلى رغبة الإنسان في تدمير الآخر قبل أن يقوم الأخير بتدميره. ويعطي الانسجام الآلي تلك الخاصية النفسية التي تتجلى في تقبل الفرد لمطالب المجتمع والرضوخ إليها حتى ولو لم يكن مقتنعاً بها.

ووجود هذه الآليات لا يقتصر على فئة من المجتمع فقط وإنما يقدمها فروم - كما فعلت فروني - على أنها خاصية كل إنسان. وهذا ما دفعه إلى الحكم على جميع الناس للذين يعيشون في المجتمع الرأسمالي بأنهم مرضى عصائريين. ويقول: "إن المجتمع الغربي هو مجتمع مريض. والأطية الساقطة من الناس الذين يعيشون فيه، إن لم يكن جميعهم، هي، إلى هذا القدر لو ذلك مريضة نفسياً. لقد حدث هذا لأن العقل والمعارف والتكنولوجيا، أو، بكلمات أخرى، لأن النشاط العقلي حلت محله الدافعية العمياء. كل ذلك إنما صلبته الحرية المسلبية

المعضلة التي جاءت بها الرأسمالية (ملصوف، ١٩٦٢، ١٠٨).

ولعله من الواضح في ضوء ما تقدم أن فروم حاول أن يطبع نظريته بالطابع الثقافي والاجتماعي. وقد تضمن في مؤلفاته وخاصة كتابه "الهروب من الحرية" لتفسير المشكلات الاجتماعية والسياسية. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إلى أي حد وفق فروم في مصادره؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب العودة إلى أعمال فروم وراعاتها بإيمان. ففي مؤلفه المذكور "الهروب..." يستوفنا تأكيد على أن أي نظام اجتماعي - سياسي يقوم نتيجة العوامل النفسية. وهو يضرب النظرة كمثال على ذلك، ويدعي أن ظهورها كان بسبب أعباء الحرية التي أثقلت كاهل الألمان وأفلستهم صبرهم. فوجدوا في الحكم التوتنسي أفضل مخرج للنجاة من حالة الاختراب والقلق والخوف. لقد أراد فروم أن يقول أن الانسجام الآلي كآلية للهروب من الحرية التي ميزت الشعب الألماني هي السبب المباشر لوصول هتلر إلى الحكم. ومما صرر هذه النرجة قيام البيروقراطية الصناعية والعالية الألمانية بتصفية "اللامسجون" وقتلهم بهم. الأمر الذي ضمن حواد الطبقات الفقيرة في المجتمع الألماني. كما يرجع فروم صعود النازية إلى الحكم ومساندة الطبقات الوسطى لها إلى نفسي للنرجة الصناعية والماركسية التي أطلقت للدوائر الإمبريالية لها العنان.

وهكذا فإن تحديد فروم على الدور الحاسم الذي تلعبه الخصائص النفسية في الأحداث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يبعده تماماً عن هدفه في صياغة نظرية تكون الكلمة الفصل فيها للعامل الثقافي والاجتماعي.

وعلى خلفية معارضة المصطلحات البروردية الأساسية صاغ الفيلسوف الأمريكي هاري سوليفان H. S. Sullivan (١٨٩٢-١٩٤٩م) نظريته في التحول النفسي. وقد استمد أفكاره وتصويراته من ملاحظاته اليومية لسلوك مرضاه من جهة، والاستنتاجات التي خلص إليها الباحثون الذين تناولوا الجانب الاجتماعي في الشخصية وأثر التفاعل الاجتماعي فيها، أمثال عالم الاجتماع ش. كولي وعالم النفس ليفين وعلماء الأنتروبولوجيا ر. بلديكت وم. ميد وب. مالينوفسكي من جهة ثانية. وتكرب نظرية سوليفان من نظريتي فروم وفروم ليس في رفضه المحددات البيولوجية وحسب، بل وفي طرحه لتعديل الثقافي والاجتماعي. وتعريفه هذه النظرية باسم "نظرية العلاقات الشخصية المتبادلة".

يسلط سوليفان آراءه في كتاب "نظريات في الطب النفسي المعاصر" الذي نشر عام ١٩٤٧، وفي معاضراته ومقالاته التي جمعت بعد وفاته في كتابين: "نظريات العلاقات الشخصية المتبادلة في الطب النفسي" و"المقابلة الطبية النفسية". ولعل موسعاً إدراج أعماله ضمن للمباحث التي تناولت نشوء الشخصية وتطور سماتها ومحدداتها، وظهور الاضطرابات فيها والأسباب المؤدية لها. فقد كان للفرد في الجماعة مدخله العام في دراسة السلوك المساوي والسلوك المرضي، وهذا ما جعله ينظر إلى الشخصية في نموها وتطورها عبر شبكة العلاقات الجماعية القائمة بين الأفراد، وقد عبر عن هذه الفكرة بقوله: "ولا يمكن أن تكون (الشخصية - ب. ع -) معزولة عن جملة العلاقات الشخصية المتبادلة التي تعيش ضمنها" (البيسون، ١٩٨١، ١٧٣).

ولقد كان لطبيعة عمل سوليفان أثر واضح في توجيه اهتمامه نحو الظواهر النفسية المرضية، والقصام (الشطروغيا) منها على وجه الخصوص، وخلافاً لهورني وفروم فإن سوليفان يرفض طريقة "التداهي الحر" معلاً ذلك باختلاف مرض القصام عن الأمراض العصابية التي تولى فرويد ومن بعده هورني وفروم علاجها، ويتسرح بدلاً منها بالمقابلة العيادية التي يجد أنها تمتد بإمكانية تعري نشأة الحالة المرضية وأسبابها وأعراضها المختلفة.

وربما يتبادر للذهن أن سوليفان بإحاطته عن "العلاقات الشخصية المتبادلة بين الناس" كموضوع للبحث والمقابلة العيادية كطريقة للتشخيص والملاج النفسيين قد قطع كسل صلبة بالتعاليم الفرويدية وصيغتها البيولوجية. ولكن الحقيقة هي غير ما يترامى لنا من خلال بعض الآراء المطروحة والأقوات المقترحة، فإذا ما مضينا قدماً في قراحتنا لأعمال سوليفان وجدناه يتحدث عن ثلاثة مبادئ هي: مبدأ الوجود الاجتماعي، ومبدأ النشاط الوظيفي، ومبدأ التنظيم. معتبراً نقل هذه المبادئ من "البيئة البيولوجية" إلى "البيئة النفسية" صلاً مشروعاً، لأنها، حسب اعتقاده، قوانين نهائية لا تحتاج صلاحيتها والاعتماد عليها في دراسة الشخصية إلى برهان. ولدى تحليله لبيئة الشخصية يرى أنها تشتمل على "القلق" و"الانفصال" و"التصعيد" و"الفكرة المحبوسة" و"الحميد". وقد أطلق على هذه المركبات اسم ديناميات السلوك الإنساني، مستخدماً إيها في وصف حالة الفرد بالآخرين في شتى المواقف الاجتماعية.

ويتناول سوليفان ديناميات السلوك كطاقة يزود بها الكيان الإنساني منذ الولادة، وبذا فإنه يسميها إلى مكونات اللاوعي من الجهاز النفسي. فالقلق، مثلاً، هو سمة من بين السمات التي

تلازم الإنسان طوال حياته. ويتجلى وجودها في إحساس اللطال بالحاجة الدائمة إلى صلف له
ومسانقتها، واقتراح ذلك بطرقه المستمر من الاتصال عنها.

وليس من العسير أن نلاحظ الشرط الاجتماعي الذي وضعه سوليفان لظهور الديناميات.
فهو - كما يقول - يبرز من خلال تقاض الفرد مع الآخرين ويحتمل عن ثلثة حاجاته المتنامية
أثناء ذلك. ويرى سوليفان أن عدم وصول الفرد إلى ثلثة حقوقية لحاجاته يقود إلى نشوب
صراع داخلي لديه، وبالتالي نشوء الأمراض المرضية التي تحدد مستوى علاقته بالعالم
الخارجي. ويعزو السبب في ذلك إلى تعارض حاجات الفرد مع الأساليب الاجتماعية القائمة،
أو إلى ما يسميه الفرد من "قلق" إزاء وضعه في المجتمع.

إن التأكيد على دور المجتمع في نشأة الحاجات وتوجيه مسار ديناميات السلوك، يلقى قدراً
كبيراً من مصداقيته حينما يشار إليه من خلال موقفه الحقيقي ضمن الإطار العام لتصورات
سوليفان حول آليات النشاط النفسي. ذلك لأن دينامية هذا النشاط تقررها بطاقة محددة مسلفاً
وثلاثة لسيباً. ولأن دور الظروف الاجتماعية يقتصر على توفير موضوعات هذا النشاط
وتحديد وجهته. ويتبين هذا من خلال بحث سوليفان عن أسباب انقسام الشخصية والاكتئاب
وجنون العظمة في المعنى القليل المحتمل في النص الطبيعي الذي يدركه الإنسان في ذاته،
بدلاً من البحث عنه في الخبرة والتاريخ الاجتماعي للفرد. وحلته فإن السبيل إلى معالجة هذه
الأمراض النفسية يمر، في اعتقاده، عبر "استئصال" أجزاء الدافعية للتواحية التي تلب حكمة
كاداة في وجه الفرد، وتحول بيته وبين إقامة صلات اجتماعية حسنة.

وهكذا تكون إرادة سوليفان في تقديم فكر جديد ومتميز في الطب النفسي قد برزت جليسة
للزجة الانتقائية والتوفيقية التي اتسمت بها الاتجاهات الجديدة في التحليل النفسي. واسم قدم
نظريته ثوباً كثيراً على صعيد العلاقة بين الشخص والمجتمع، ما هذا بعض الإشارات
والإيماءات إلى أثر اختلاف العلاقات الاجتماعية والاتجاهات الأخلاقية في المجتمعات
للغربية والمجتمع الأمريكي بصورة خاصة في التصديق النفسي وإزالة العصابات المرضية.
وبدلاً من أن يتوجه إلى معالجة الظواهر الاجتماعية السلبية وإصلاحها بوصفها المسؤولية عن
الاضطرابات النفسية المتنامية، كما يروحي بذلك اسم نظريته، انصرف للبحث عن التلميحات
للكولة بتكوين اتجاهات إيجابية عند الفرد كحمله وتقبل مجتمعه وتكيفه مع ظروفه، وتمكنه من
بناء علاقات حارة مع الآخرين.